قصة موسى كل عصر

دارسة لأبرز قصص صراع الحق مع الباطل

إعداد

محمد نجاتي سليمان

تحت إشراف ومراجعة

فضيلة الشيخ أحمد المحلاوي

والباحث الدكتور وصفي عاشور أبوزيد

إهداء ...

إلى شهداء فلسطين وتونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا ..

إلى من ضحوا لأجل إظهار الحق، وإبطال الباطل؛ فرفعوا رؤوسنا وأعطونا حريتنا..

إلى روحِ صديقي محمد صابر سعد ..

إلى أساتذتي الذين تربيت على أيديهم، أو استفدت من محاضراتهم، أو قرأت كتبهم

إلى من شغلت عنهم أثناء إعدادي للكتاب..

أبي وأمي وزوجتي وولديّ "عمر" و "خالد" وصديقي الحبيب خالد الدهام..

لهؤلاء جميعاً أهدى هذا الكتاب ..

تقديم بقلم العالم الجليل الشيخ أحمد المحلاوي

إمام وخطيب مسجد القائد إبراهيم بالأسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، والصلاة والسلام على سيد الخلق وإمام الأنبياء سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فعندما ترك المسلمون الجهاد في سبيل الله، تحقق فيهم وعيد الله جل في علاه، فاحتل الاستعمار الغاشم بلادهم، فنشر فيهم الانحلال، واستبدهم وسرق أقواتهم، لكن الشعوب شرعت تكافحه، وتقتل جنده، وتنزل به الخسائر الفادحة، فابتكر لهم حيلة شيطانية، يستبقى بها احتلال البلاد، ويتجنب الخسائر التي تنزل به؛ فاختار المستعمر من أهل البلاد جنداً له، رباهم على عينه[1]، وجعلهم مفتونين بثقافته يحتقرون شعوبهم، ويتنكرون لدينهم وثقافتهم، ومزق البلاد إلى دويلات.

ومبدأ المستعمر معروف "فرق تسد" أشار إليه القرآن الكريم في قصة فرعون بقوله تعالى:﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا** ﴾ القصص:4

فجعل على رأس كل دويلة فريقاً من هؤلاء العملاء، فكانوا على شعوبهم أشد قسوة، وللبلاد أكثر نهباً واستغلالا وفساداً.

والله تعالى ينهي المسلم عن الخضوع لغير الله، والاحتكام لغير شريعته، وفى الوقت ذاته ينذر الظالمين بسوء المنقلب، وللكتاب والسنة سبح طويل في هذه المعاني؛ واقتداءً بهذين المصدرين جاءت المؤلفات والمصنفات ومن بين هذه (القصة في القرآن الكريم) فهي أقوى تأثيراً لأنها حقائق ووقائع فالقصة في القرأن الكريم أو السنة النبوية، تكشف لك النفس البشرية على حقيقتها وتوضح لك مساربها والتواءاتها، ومداخل الشيطان إليها.

---

[1] قلت: صدق شيخنا المحلاوي – حفظه الله – فقد قال أحد قادة اليهود عن الشعوب العربية "سنولى عليهم سفلة قومهم حتى يأتي اليوم الذي تستقبل فيه الشعوب العربية جيش الدفاع الإسرائيلي بالورود والرياحين".

وبين يدي القارئ كتاب (موسى كل عصر) للأستاذ/ محمد نجاتي سليمان، وهو كتاب يصب في هذا الإطار، وإني لأرجو للمؤلف من الله تعالى دوام التوفيق، ولكتابه دوام النفع به، كما أرجو لمن يقرؤه أن يخرج بحصيلة ممتازة يقف فيها إلى جوار الحق، دافعاً للباطل حتى يتحقق وعد الله: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ الأنبياء:18.

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، وصلِّ الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين والحمد لله رب العالمين.

أحمد المحلاوي

تقديم بقلم الكاتب والباحث الإسلامي د/ وصفي عاشور أبوزيد

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الواقع الذي تحياه الأمة العربية والإسلامية والعالم كله، وبخاصة بعد الربيع العربي ومآلاته ومقتضياته يحتم علينا أن نُهْرع إلى القرآن الكريم وسنة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وإذا كان استلهامهما واستهداؤهما واجباً في كل وقت فهو في وقتنا أوجب وألزم، فلا حياة للأمة المسلمة بل الإنسانية جمعاء بدون اتخاذ هذا القرآن والسنة أنيسين وسميرين على مر الأيام والليالي.

فهذا القرآن العظيم هو الروح الذي به حياة كل مخلوق: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**﴾ الشورى:52، فلا حياة للأمة بلا قرآن، كما لا حياة للجسد بلا روح؛ فالقرآن الكريم هو الكتاب الخالد لهذه الأمة، ودستورها الشامل، وحاديها الهادي، وقائدها الأمين، كما أنه الكتاب الخالد للدعوة الإسلامية، ودليلها في الحركة في كل حين، وله أهمية كبيرة في حياة الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة؛ فهو يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، ويشرع من التشريعات ما يحفظ كيان الأسرة؛ تظللها السكينة وتحفها المودة والرحمة، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام الطاقات الكامنة في المجتمع، ويؤسس للدولة القوية المهيبة المستقلة، وينشد الأمة القوية المتماسكة الشاهدة على العالمين.

وفي هذا السياق يأتي هذا الكتاب الذي أقدمه للقراء؛ حيث يتحدث عن قصة من أهم قصص القرآن الكريم، وهي قصة موسى مع فرعون؛ فهي مناسبة لعصرنا – وكل قصص القرآن مناسب ومعجز ونحتاج إليه – حيث تبين القصة طبيعة الاستبداد وتصرفاته ومنطقه وعاقبته، وهي عاقبة

مطردة لم تتخلف في التاريخ عن طاغية أو ظالم أو مستبد، وليس ما وقع لبعض حكام العرب منا ببعيد.

ومؤلف هذا الكتاب من شباب الدعاة الواعدين الذين اهتموا بالدعوة، وبواقع الأمة، ومعالجة مشكلاتها، هو الأخ الأستاذ محمد نجاتي سليمان الذي أراد أن يستلهم من القرآن العظيم ما يكون نبراسا للأمة ووميضا يبرق للعاملين بما يتناسب مع أحداث العصر وحاجات المرحلة.

وقد بذل جهدا طيبا نافعا في كتابة هذه القصة، وفي ترتيب أحداثها من خلال القرآن الكريم، بل تناول الأحداث التي وقعت قبل ميلاد موسى عليه السلام، ثم قام بجمع الآيات القرآنية التي أوردت القصة ورتبها ترتيبًا زمنيًّا؛ ابتداء من: ولادته وإرضاعه عليه السلام، ومرورا بتربيته في قصر فرعون، وقتل موسى للمصري، والهروب إلي مدين، وقصة زواجه، والعودة إلى مصر، وتلقي الرسالة من الله، ولقاء موسى بفرعون، ومناظرته مع فرعون، وادعاء فرعون الألوهية، ومعجزة العصا واليد، وتمادي فرعون في الكفر وإيذاء بني إسرائيل، والتدبير لاغتيال موسى، وإنذارات الله لفرعون، حتى ختم القصة بخروج بني إسرائيل من مصر وغرق فرعون وملئه، واستنشاق الشعب نسيم الحرية؛ وقد كان موفقا غاية التوفيق في هذا الترتيب والتبويب.

ومما يحمد للكتاب أنه اتخذ القرآن الكريم مصدرا رئيسا للتناول، وهذا يعطي للكتاب قيمة خاصة وصبغة خاصة، واستعان بأقوال المفسرين والعلماء حول توضيح ما ينقله من آيات كريمة، وكذلك عناوينه الشائقة التي كتبت بلغة معاصرة تتناسب مع ثقافة العصر ومصطلحاته وألفاظه.

إنني أدعو السياسيين والحكام أن يتأملوا هذه القصة ليأخذوا منها العبر والعظات ويتدبروا عواقبها، وأدعو الأدباء والقاصين أن يفيدوا من منهج القرآن الكريم في صياغة القصة، وفي رساليتها وإفادتها للمجتمع والأمة، وأدعو الدعاة أن يستنبطوا معانيها حتى تكون لهم زادا لتوعية الناس وتبصيرهم بطبائع الاستبداد ومصارع الطغاة، وأن يتأملوا في الكليات القرآنية والقواعد الربانية في الأمم والشعوب والظالمين والمفسدين، والسنن الإلهية التي لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتغير .. داعيا

الله تعالى بالتوفيق لأخينا الشاب النابه محمد نجاتي سليمان، وأن يجعل عمله محلا للقبول الأعلى، ويجري به النفع للدعاة وللأمة، والحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو الله

وصفي عاشور أبو زيد

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد :

إن قصة صراع الحق مع الباطل؛ هي من أطول القصص على الإطلاق، فهي قصة متنوعة الفصول، متجددة الأحداث، أبطالها كثر سواء في الخير أم في الشر، وأول مشهد فيها هو مشهد تلقي الملائكة الأمر بالسجود لآدم ﷺ، ليقعوا بعد هذا الأمر الرباني سجوداً لآدم إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين بحجة أنه خير وأفضل منه، ومن يومها نشب الصراع وبدأت الملحمة، وتأسس حزبان لا ثالثَ لهما؛ حزبُ الله، وحزبُ الشيطان ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾ سورة البقرة :36.

حزبان على ساحة الحياة

1- حزب الله

وهو حزب له غاية ومنهج وأهداف ووسائل:

فغايته رضوان الله والجنة، ومنهاجه شرائع الله الهادية وختامها القرآن الكريم دستور الأمة، وأهدافه تحقيق السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة، ووسائله تتعدد وتختلف بحسب الزمان والمكان، فشريعة القرآن تمتاز بالثبات في الأصول، والمرونة في المستجدات والفروع، فتتناسب مع الزمان والمكان والأشخاص.

2- حزب الشيطان

وهو حزب له غاية ومنهج وأهداف ووسائل هو الآخر:

فغايته الهوى وتحقيق كل ما تشتهيه النفس، والتمتع الكامل بالشهوات، ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** ﴾ سورة محمد:12

ومنهاجه البعد عن طريق الله المستقيم، وأهدافه التمتع بزينة الحياة الدنيا، وإشباع شهوات النفس ورغباتها، ووسائله متعددة وغير شريفة فالغاية عنده تبرر الوسيلة، فلا حدود ولا قيود، المهم تزيين الباطل، وتزييف الحقائق.

لينطلق من يومها آدم عليه السلام بحزبه وكوادره ومؤسساته، والشيطان بحزبه وكوادره ومؤسساته نحو البشرية يتصارعان عليها، لتبدأ قصة لن تنتهي إلى يوم القيامة وهي قصة صراع الحق والباطل.

قصة الكتاب

بهذه المعاني وبهذا التصور خرجتُ من رمضان 1433هـ- 2012 م ونفسي تتوق إلى أن أبدأ سلسلة من الخطب المنبرية عن قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون بوصفها قصة من أبرز قصص صراع الحق مع الباطل وربطها بواقعنا المعاصر؛ فإن كان نموذج فرعون يَتكرَّر عبر الزمان والمكان، فإنَّ الساحة الإنسانية لا تعدم نموذج موسى – عليه السلام – في صورة مصلحين وسياسيين وعُلَماء دِّين يواجهون كل فرعون في كل العصور.

فبدأت بالبحث عما كُتب في هذا الموضوع، وذهبت إلى المكتبات لشراء مجموعة من الكتب التي كتبت عن هذه القصة العظيمة، ولكني وللأسف الشديد لم أعثر على كتاب للقصة في هذا التوقيت، بل وجدتها ضمن كتب تحكي قصص الأنبياء ككل، فساءني أن تكون في القرآن قصة بهذا الحجم ولا يفرد لها كتاب كامل يتناول بعضاً من أبعادها التربوية والحركية، إلى جانب أنها في ذاتها قصة من أحسن القصص.
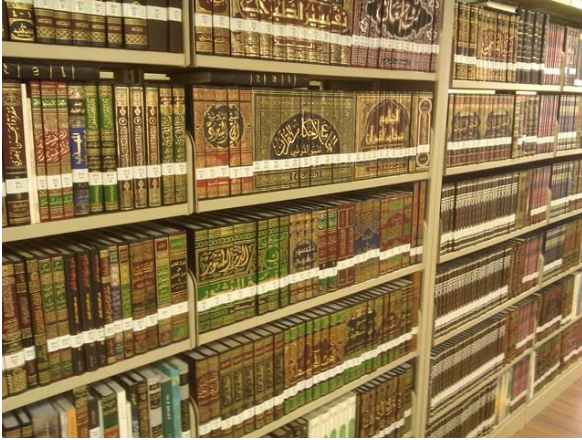
فأشار على بعض المقربين أن أبدأ في كتابة كتاب جديد يجمع اللآلئ والدرر المتناثرة في بطون كتب التفاسير، وكتب قصص الأنبياء، والمقالات التربوية والسياسية ومحاضرات الدعاة والعلماء عن قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون؛ لأجمعها للأمة الإسلامية في كتاب واحد فتتعرف

على قصة كفاح هذا النبي العظيم، فلو كان لهذه القصة كبير أهمية في حياة المؤمنين بصفة عامة، فأهميتها تتضاعف في زماننا بصفة خاصة؛ لقلة الوعي وانتشار الجهل بين المسلمين.

وفي الوقت الذي تنعم فيه شعوب الغرب بديمقراطية تخلصوا بها من حكم الطغاة منذ قرنين وأكثر، وبينما يتهيأ العالم الثالث لاستقبال رياح الديمقراطية، فإن بعض دول المسلمين التي تزعم أنها تتمسك بالقرآن، لا تزال شعوبها تئن تحت وطأة حكم الطغاة الذين جلبوا لها العار والفقر والتخلف، وباتوا بين فرعون قائم وفرعون قادم، بسبب البعد عن منهج القرآن الرشيد الذي يدعوهم إلى تملك حريتهم والتمسك بها، والأخذ على يد الظالمين والفاسدين والكافرين.

فتحمست للفكرة ورجوت من الله أن يفتح عليّ فتحاً عظيماً في هذا الكتاب، ليكون سبباً في تربية ووعي جيل النصر الذي سيقود الأمة لتحرير المسجد الأقصى من قبضة اليهود.

مرحلة جمع القصة

وبدأت في مرحلة البحث عن القصة في القرآن الكريم ووجدتها ذكرت على النحو التالي:

ذكر الله نبيه موسى عليه السلام في القرآن مائةٍ وستٍ وثلاثين مرة في أربع وثلاثين سورة؛ وقد كان لسورة الأعراف النصيب الأكبر من هذا العدد، فقد ذكر كليم الله موسى فيها إحدى وعشرين مرة، ثم تلتها سورة القصص بثماني عشرة مرة، ثم سورة طه بسبعِ عشرة مرة، ثم سورة البقرة بثلاثِ عشرة مرة، ثم سورتا يونس والشعراء بثماني مراتٍ لكلٍ منهما، ثم سورة غافر بخمسِ مرات.

وتشترك سور النساء والمائدة والأنعام وإبراهيم والنمل وهود والإسراء بنصيب واحد وهو ثلاث مرات لكل منها، ومرتان في كل من سور الكهف والمؤمنون والأحزاب والصافات والأحقاف، ومرةٍ واحدةٍ في كلٍ من سور آل عمران ومريم والأنبياء والحج والفرقان والعنكبوت والسجدة وفصلت والشورى والزخرف والذاريات والنجم والصف والنازعات والأعلى.

أما فرعون فقد ورد ذكره في القرآن أربعٌ وسبعين مرة، في سبعٍ وستين آية، موزعين على سبعٍ وعشرين سورة؛ وكانت أكثر السور ذكرًا له سورتى الأعراف وغافر، حيث ذُكِرَ في كل منهما تِسع مرات، ثم تلتهما سورة القصص بثماني مرات، ثم سورة يونس والشعراء بست مرات في كل منهما، ثم سورة طه بخمس مرات، ثم سورتا الأنفال وهود بثلاث مرات في كل منهما، وتشترك سور البقرة والإسراء والزخرف والدخان والتحريم والمزمل بذكره مرتين في كل منها، بينما ذكر مرة واحدة في كل من سور آل عمران وإبراهيم والمؤمنون والنمل والعنكبوت و"ص" و"ق"والذاريات والقمر والحاقة والنازعات والبروج والفجر.

مرحلة جمع التفاسير

ثم اطلعت على تفسير هذا الكم الهائل من آيات هذه القصة في معظم كتب التفاسير تقريباً [1]، ولقد استفدت من طريقة تناول العلامة **الشهيد سيد قطب**، والمفكر الراحل **عبد الكريم يونس الخطيب**، رحمهما الله تعالى فنقلت تقريباً كل ما كتباه عن القصة في ثنايا الكتاب – بالنص أو بالمعنى – فاقتضى التنويه.

كما استمعت إلي محاضرات عدد كبير من الدعاة، وقرأت بعض ما كتبه الكتّاب الكبار من مقالات عن قصة موسى وجبروت فرعون، ثم جمعت هذا الكمّ الهائل من التفسير والمقالات والمحاضرات، ونظمته ونسقته على هيئة قصة روائية متوالية الأحداث بأسلوب مثير ومشوق، وأضفت لها جانباً تربوياً، مع ربطٍ حركيٍ واسقاطٍ على الواقع، لأقدمها لكم بين دفتي هذا الكتاب.

وختاماً ..

أرجو منك أيها القارئ العزيز– من باب إثراء هذا العمل ومشاركتي في الثواب – إذا وجدت خطأً أو عيباً، أو إسهاباً لا طائل من ورائه بعد انتهائك من القراءة، أن تنصحني بمحوه أو تعديله،

---

(1) اطلعت على قرابة 50 كتاب تفسير قديم ومعاصر أثناء إعدادي لهذه الدراسة، وقد أعانني برنامج المكتبة الشاملة على عمل مقارنة تفسير لكل آية من آيات القصة مما أعطاني ثراء في الطرح، لذا أقدم للقائمين على موقع المكتبة الشاملة www.shamela.ws ، وكذلك موقع www.mosshaf.com الشكر لما قدموه من خدمة لكتاب الله عز وجل، وتيسير الاطلاع على تفسير آياته.

ولتعتبر أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب مكتوبة بقلم رصاص احتراماً لممحاة نقدك، فالنقد منك يبني ولايهدم، والخطأ منا شهادة ناطقة على أن الكمال لله وحده، وأن العصمة – فقط – لأنبيائه ورسله، وليكن بيننا تعارف، وتواصل مستمر عبر التواصل الهاتفي على رقم (002)01091500080، أو عبر صفحات التواصل الاجتماعي[1]

وأسأل الله جل وعلا أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يفتح به قلوباً غفلت عن آياته، وأن يبصر به أعيناً عميت عن أنواره، والله ولي التوفيق ..

وباسم الله نبدأ في كتابة هذا العمل : 6 ذو القعدة 1433 الموافق السبت 22 سبتمبر 2012

محمد نجاتي سليمان

مصر – البحيرة – دمنهور

---

(1) للتواصل عبر تويتر: https://twitter.com/AlDa3eeyaa وللتواصل عبر فيس بوك: https://www.facebook.com/Nagati.MN
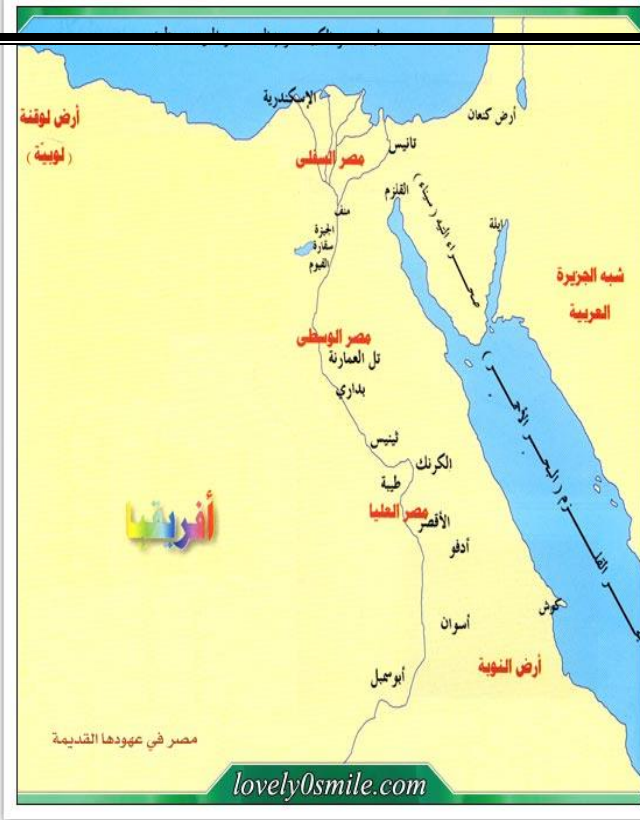
قصة البداية ...

قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد قامت الدولة المصرية القديمة بتوحيد القطرين، ثم ازدهرت ونمت فترة من الزمان، ثم انهارت، ولم يحدث وقت انهيارها أن استولى على مصر أي عدو خارجي، لأن في ذلك الوقت السحيق لم تكن قوة تجرؤ على استغلال الضعف الداخلي في مصر.

وما لبثت مصر أن عادت مرة أخرى للاتحاد والقوة في عصر الدولة الوسطى (عصر الرخاء الإقتصادي)، إلا أن الانهيار لحقها مجدداً ولكن في هذه المرة طال انهيارها بسبب ضعف الحكام من ناحية، والتنازع المستمر على السلطة من ناحية أخرى؛ فضعفت قوة الدولة وانمحت هيبتها، وحينئذ ظهرت قوى خارجية استغلت ذلك الضعف فسيطرت على مصر خصوصاً في منطقة الدلتا ..

- فمن يكون هؤلاء وما سر قوتهم ؟
- وما حكاية تلك الرؤيا العجيبة التي رآها ملكهم فكانت سبباً لخروج يوسف من السجن وتبرأته من التهم الملفقة ضده ؟
- ولماذا أحب المصريون يوسف وكرهوا إخوته بعد موته ؟
- وما اسم هذا الفرعون الذي قتّل أبناءهم واستحى نساءهم ؟
- ولماذا استسلم بنو إسرائيل أمام هذا العدوان الغاشم عليهم ؟
- وكيف تجرأ فرعون أن يفعل ذلك كله، ومن هم أبرز معاونيه ؟

كل هذا وأكثر سنعرفه بمشيئة الله من خلال أحداث **الفصل الأول** من هذا الكتاب.

من هم الهكسوس ؟

ضعفت الدولة المصرية في آواخر أعوام حكم الدولة الوسطى، وازدادت ضعفاً مع بداية عصر الاضمحلال الثاني[1]، فظهرت قوى خارجية استغلت ذلك الضعف وسيطرت على مصر خصوصاً منطقة الدلتا، وكان الرعاة الهكسوس هم تلك القوة الوافدة من الشرق لاحتلال مصر.

الهكسوس كما أطلق عليهم المؤرخ المصري "مانيتون" لا ينتمون إلى جنس واحد، بل هم مجموعة من قبائل وشعوب آسيوية تحركت من آسيا في تجمعات عشوائية غير منتظمة، وقد أطلق عليهم بعض المؤرخين اسم (الآريين أو الهندوآريين)، وعرفوا في مصر باسم "حقا خاسوت" التى حُرِفت إلى الهكسوس، وقد سماهم المصريون «الهكسوس» كراهية لهم، إذ يقال: إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة: «الخنازير» أو «رعاة الخنازير» وقد تدفقوا إلى مصر في عصر الأسرة الثالثة عشر في ظل الضعف السياسى وعدم مراقبة الحدود، ودخلوا مصر كهجرات شعوبية في دفعات متتابعة واستقروا على الحدود الشرقية للبلاد.

" ولقد ساعد تفوق الهكسوس العسكرى واستخدامهم لبعض الأسلحة التى لم يعرفها المصريون مثل الأقواس المركبة، والفؤوس الخارقة، والسيوف المنحنية، والعربات الحربية التى يجرها الحصان والتى لم تكن استخدمت في المعارك من قبل في حسم المعركة لصالحهم من الجولة الأولى".[2]

---

[1] في أواخر عهد الأسرة السابعة ولي العرش ملوك ضعاف، وانقسمت البلاد إلى أقاليم مستقلة، فانتشرت الفوضى في البلاد لاسيما في فترة (الأسرات 7 – 10) (2280ق.م _2050ق.م) ثم بدأت مصر عهد الاضمحلال الثاني (الأسرات 13 – 17) (1778 ق. م – 1570 ق. م) بسقوط بقايا الدولة الوسطى نهائياً وغزو الهكسوس لمصر. انظر كتاب الدراسات الاجتماعية/ الصف الأول الإعدادي، أو موسوعة ويكيبيديا.

[2] منقول بتصرف من كتاب تاريخ وحضارة مصر القديمة، د. سمير أديب، مكتبة الإسكندرية ص143.

وبعد حرب طاحنة لم يستطع المصريون مقاومتها حُرّقت خلالها المدن، ودُمرت المعابد، وسُبيت النساء وقتل الأطفال وفرضت الضرائب؛ استقر الهكسوس في الدلتا في منطقة "أورايس" التى تقع في منطقة شرق الدلتا (بين الزقازيق وقناة السويس)، وجعلوها عاصمة لهم[1].

وقد اختار الهكسوس هذا المكان، ليكونوا قريبين من فلسطين ليفروا إليها في حالة وجود أى خطر عليهم لو عاد المقاتلين المصريين الذين فروا منهم إلى مصر العليا (جنوب مصر) في طيبة وبلاد النوبة(الأقصر وأسوان حالياً).

وكوّن الهكسوس منهم أُسراً حاكمة؛ امتد حكمها في مصر لعشرات السنين من الأسرة الثالثة عشر إلى الأسرة السابعة عشر، كما حاولوا خلال هذه الفترة أن يتقربوا من المصريين ويتعايشوا معهم فتسموا بأسماءهم وتلقبوا بألقابهم، ولبسوا ملابسهم، وتحدثوا بلغتهم حتى تمصروا.

دخول يوسف عليه السلام إلى مصر

وخلال هذه الفترة من الزمان، دخل سيدنا يوسف إلى مصر، بعدما ألقاه إخوته في البئر – ليخلو لهم وجه أبيهم – وعثرت عليه إحدى القوافل التجارية أثناء مرورها في الصحراء، وباعوه عبداً لعزيز مصر، فرباه وأكرم مثواه حتى أصبح شاباً قوياً فتياً، فراودته زوجته عن نفسه، فأبى يوسف واستعصم بالله، فلما يئست منه رمته في السجن، ولبث فيه بضع سنين.

رؤيا الملك

في ليلة من الليالي رأى حاكم مصر رؤيا عجيبة، ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الملأ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾. سورة يوسف: 43

فعرضها على كهنة المعابد، إذ يمثلون السلطة الدينية، فعجزوا عن تأويلها له واكتفوا بقولهم ﴿**أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾. سورة يوسف 44

---

[1] وآثار تلك المرحلة لا زالت باقية بشرق الدلتا في أماكن متفرقة مثل بلبيس، وتل المسخوطة، وتل بسطة، وتل الصحابة، وتل اليهودية.

ولما خاب أمل الملك في ملئِهِ؛ رشح له الساقي "يوسف الصديق" ليأخذ منه تعبير الرؤيا، لما له من تأويل دقيق في مجال الرؤى والأحلام لمسه منه عندما صاحبه في السجن؛ فأرسله الملكُ إليه ليسأله عن تأويل الرؤيا، ثم عاد الساقي بتفسير الرؤيا وعرضها على الملك؛ فأدرك الملك أن تعبير رؤياه ليس مجرد كلام يقال، بل هو خطة متكاملة للمستقبل تستلزم استعداداً كاملاً، وتوفيراً من إنتاج المحاصيل في سبع سنوات من الرخاء ليستعين بها المصريون ومن حولهم في سبع سنوات أخرى من المجاعة.

فقرر الملك الاستعانة بـ "الخبير الاقتصادي" يوسف عليه السلام في هذه السنوات وأرسل رسولا خاصاً من لدنه إليه في السجن ليخرجه ويبلغه بمنصبه القيادي الجديد، وذلك تكريم خاص ليوسف عليه السلام لا يحلم به سجين في تلك العصور ولا في غيرها؛ ولكن يوسف أصر ألا يخرج من السجن إلا وصفحته نقية من تلك التهمة الكاذبة التي ألصقت به ظلما وزوراً، وطالب الملك بإعادة التحقيق في قضيته.

إعادة التحقيق في قضية يوسف

وأدى ذلك الموقف من يوسف إلى تصعيد جديد أثار اهتمام الملك وإعجابه بيوسف أكثر وأكثر، ولا ريب أن الساقي قد حدّث الملك عن قصة يوسف وظلم امرأة العزيز له، فقام الملك بنفسه بالتحقيق في ملابسات هذا الحادث الذي مضى عليه سنوات؛ واستدعى النسوة ليحقق معهن بنفسه؛ واعترفت امرأة العزيز أمام الملكِ وملئه أنها المذنبة وأن يوسف بريء من التهمة المنسوبة إليه؛ فعلم يوسف بنتائج التحقيق الذي كان سبباً في تأكيد براءته، فقبل الخروج من السجن إلى قصر الملك، ودار بينهما الحديث الذي كان الملك يتوق إليه وهو القائل عن يوسف: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي** ﴾.يوسف: 54

وبعد ذلك الحديث ازداد الملك قناعةً بيوسف وإعجاباً بشخصيته، فأحله المقام السامي في بلاطه، وحينئذ طلب يوسف بنفسه أن يكون مشرفا على خزائن المملكة المصرية لأن لديه الخبرة الاقتصادية التي تمكنه من الإشراف عليها خلال السنوات الحاسمة القادمة.

دخول بني إسرائيل إلى مصر

وبعدما أصبح يوسف عزيز مصر حدثت المجاعة التي تنبأ بها، وجاء إخوته إلى مصر يطلبون الغوث، وكانت مصر لا ترد سائلاً؛ فأغاثهم يوسف واستضافهم عنده وحدثوه عن وضعهم في فلسطين – وهم لا يعرفونه – فطلب منهم أن يأتوا المرة القادمة ومعهم أخوهم بحجة أن يتأكد من صدق كلامهم.

وبعد نقاش طويل بينهم وبين أبيهم يعقوب عليه السلام أخذوه معهم في زيارتهم الثانية لمصر.

وحين عرّف يوسف نفسه لإخوته وعفا عن جرمهم في حقه، طلب منهم أن يذهبوا ويأتوا بكل بني إسرائيل ليعيشوا مع يوسف في مصر.

وذهب أخوته إلى فلسطين مرة أخرى، وجاءوا بأهلهم أجمعين، ولما اقترب موعد وصولهم عند حدود مصر الشرقية، خرج في استقبالهم يوسف عليه السلام بنفسه، ودخلوا معه إلى مصر آمنين ﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إليه أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ**﴾ يوسف: 99

وكانت هذه بداية استقرار بني إسرائيل بمصر في منطقة اسمها أرض جاسان[1]، وكانوا وقتها قرابة المائة بين رجل وامرأة وشيخ وطفل، وعاشوا في مصر وتناسل أبناء يعقوب الاثنا عشر وصاروا اثنتي عشر قبيلة؛ وحظوا بعناية ورعاية منقطعة النظير، ومارسوا دينهم كما يحلوا لهم في ظل حرية كفلها الهكسوس لهم.

وفي ظل هذه الفترة التي حكم الهكسوس فيها مصر، والتي لم تخلُ من مقاومة أو انتفاضات شعبية؛ استطاع المصريون الذين كانوا قد انسحبوا إلى مناطق متعددة تجميع قواهم مرة أخرى والهجوم على الهكسوس وطردهم من مصر إلى بلاد الشام، على يد القائد العسكري الشاب "أحمس" الذي

---

[1] هذا بحسب ما ورد في التوراة "سفر التكوين" وهذه الأرض في شرق دلتا مصر بالقرب من "صفط الحنة" في محافظة الشرقية.

تولى قيادة الجيش المصري وهو دون العشرين من عمره، ليواصل نضال أبيه "سقنن رع" وأخيه "كامس" اللذين قتلا في معاركهم ضد الهكسوس والتي استمرت لسنوات.

إجلاء الهكسوس خارج مصر

"استطاع الشاب أحمس في فترة وجيزة سحق الهكسوس حتى جعلهم يفرون خارج مصر، ثم لاحقهم وحاصرهم في "شاروحين" آخر قلاع الهكسوس الحصينة في فلسطين ومن بعدها لم تقم للهكسوس قائمة"[2].

عاد أحمس قائد جيش مصر وبطل عملية التحرير إلى وطنه بعد أن حرره من المعتدين، واستقبله شعب مصر استقبالاً حافلاً، إذ كان هذا النصر الحاسم إيذاناً بميلاد عصر جديد في مصر، وهو عصر الدولة الحديثة التي سعت وبكل قوة إلى توسيع حدودها وبسط نفوذها في المنطقة كلها.

فأصبحت مصر أول وأكبر وأقوى إمبراطورية في العالم – آنذاك – فامتد سلطانها من "الأناضول" شمالاً إلى"القرن الأفريقي" جنوباً، ومن "الصحراء الليبية" غرباً إلى "الفرات" شرقاً.

" وسمي عصر الدولة الحديثة بعصر المجد الحربي، وعصر الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، فقد كانت "طيبة" تتدفق عليها خيرات أفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط، ويفد إليها كل عام رسل من جميع البلاد التي تحت سلطانها"[1].

تأسيس الأسرة الـ 19

تولى الحكم "رمسيس الأول" مؤسس الأسرة الـ19 والذي كان قائداً للجيش في عصر "حورمحب" وقد حكم مصر أقل من عامين وذلك بسبب تقدمه في العمر وقت اعتلائه العرش؛ وبعد وفاته

[2] منقول بتصرف من كتاب موسوعة مصر القديمة – سليم حسن – الجزء الرابع صفحة 149.

[1] منقول من بحث بعنوان "من هو فرعون موسى" محمد عبدالرازق جويلي.

تولى ابنه "سيتي الأول" حكم البلاد وكان رجلاً في منتصف العمر، تميز عهده بالحملات الحربية في شمال مصر، وقد حكمها لمدة عشرين عاماً.

وفور تولي "سيتي الأول" حُكم مصر عمل على توريث ابنه "رمسيس الثاني" حُكم البلاد فأشركه معه في إدارة شئون البلاد، وكلفه بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة "بررعمسيس"[1]، وإدارة شئون الدولة الداخلية رغم صغر سنه !

بينما تفرغ "سيتي الأول" لحروبه الخارجية بالشام لاستعادة ممالك مصر الضائعة نظراً لضعف حكام مصر في أواخر الأسرة الـ 18 وعدم اهتمامهم بتلك الممالك.

ثم توفى "سيتي الاول" وخلفه ابنه "رمسيس الثاني" في الحكم وقد ساعدته عدة عوامل على أن تفرض شهرته في التاريخ منها :

صورة رمسيس وهو طفل صغير

1- مشاركته لوالده في الحكم فاكتسب خبرة سياسية وحربية.

2- ولي الحكم شاباً يملؤه الحماس وتحدوه آمال واسعة.

3- طول مدة حكمه المنفرده التي بلغت 67 عاماً.

4- ورث عن أبيه دولة قوية ذات ثراء عريض.

5- وجد من رجاله المدنيين والعسكريين تأييداً لكل أعماله.

6- تصديه "للحيثيين" في معركة قادش رغم أنهم أضخم قوة عسكرية في عصره.

7- كان شغوفاً بتخليد ذكراه وتمجيد نفسه، ولذلك بنى عدداً كبيراً من المعابد والقصور والمسلات والتماثيل أكثر من أي حاكم آخر سبقه.

---

[1] أنقاض هذه المدينة موجودة حتى الآن بقرية (قنتير – مركز فاقوس محافظة الشرقية) ، واستمرت عاصمة لمصر طوال حكم الأسرتين الـ19 والـ20 قبل أن تنتقل إلى "صان الحجر" (مركز الحسينية – التابع لمحافظة الشرقية) في عهد الأسرة الـ21 ثم "تل بسطا" في عهد الأسرة الـ22، وكلها لا تبعد عن بعضها سوى بضعة كيلو مترات قليلة، وما زالت قرية قنتير تحظى باهتمام كبير من اليهود وزيارات مستمرة لها، فقد تحولت البلدة من منطقة تنقيب للآثار إلى مطمع لليهود في مصر عقب خروج شواهد تُثبت أن قرية قنتير هي مهد سيدنا موسى عليه السلام، وبحر فاقوس هو اليم الذي أُلقى فيه سيدنا موسى لهذا أطلق عليه "بحر مويس"، فضلا عن العثور على شواهد أثرية تؤكد وجود قصر فرعون بمنطقة قنتير، ما دفع اليهود إلى التمسك بالمنطقة وقالت عنها إسرائيل إنها أرض أجدادنا وهناك مخاوف من أهالي هذه القرية من سيطرة إسرائيل عليها وتحويلها لمزار يهودي يشبه "مولد أبو حصيرة" الموجود في مدينة دمنهور بمحافظة البحيرة.

8- في عهده تكونت لمصر عاصمة جديدة سميت باسمه (بروعمسسو) أو (برعمسيس) أي دار رمسيس وأصبحت واحدة من أهم العواصم في الشرق الأدنى القديم.

بنو إسرائيل والتغيير السياسي

قضى المصريون على حكم الهكسوس وأقاموا الإمبراطورية المصرية التي بلغت اوج قوتها في عصر "الرعامسة" الذين حولوا مصر إلى نظام الحكم العسكرى المركزى والذي تتجمع سلطاته كلها في يد الفرعون ليكون هو القائد الأعلى للعسكر، والقائد الأعلى للجند - الشرطة- ، والقائد الأعلى للقضاة، ولكل شيء في مصر؛ فتأسست عبادة الفرعون المتأله.

وقد كان يؤرق – الفراعنة الحكام- أن بني اسرائيل لم تتأصل فيهم عبادة الفرعون لكونهم ذرية الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف - عليهم السلام- الذين توارثوا الوصية بأنه لا اله الا الله ﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ سورة البقرة: 132.

هذه الوصية التي لا تعني – بالنسبة لفراعنة كل عصر – إلا التمرد على النظام، والثورة على كل فرعون يحكم بهواه؛ فإن ربوبية الله للعالمين التي هي رسالة النبيين ومشروع المصلحين تعني- أول ما تعني- إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره، وإعلان تحرير الإنسان من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله؛ كما تعني تحرير الإنسان من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر للبشر؛ إلى حكم الله وحده[1].

---

[1] تلك المفاهيم الغائبة عن مجتمعاتنا الآن؛ استقاها رجل عربي- بفطرته وسليقته- حين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال: «**هذا أمر تكرهه الملوك!**»؛ بل وقال له رجل آخر من العرب: «**إذن تحاربك العرب والعجم**».

ولأن سلطة الفرعون تعتمد أساساً على التسليم المطلق له، وسلطانه القائم على ثقافة العبيد؛ فإن أى شك دينى فيه – حول أنه ليس إلهاً له حق التشريع – ينذر بظهور التمرد عليه، لذا كان يؤرقه أن توجد في مملكته قلوب لا تقدس غير الله جل وعلا.

إضافة إلى هذا فقد استغل حكام مصر كره المصريين لبني إسرائيل الذي تزايد - بعد موت يوسف - لأن بني إسرائيل لم يقفوا على الأقل موقف الحياد من احتلال الهكسوس لمصر كما فعل جدهم يوسف؛ بل صاروا بعد موته حلفاء للهكسوس أعداء الفراعنة وتعاون بعضهم مع الهكسوس على ظلم المصريين[1].

ولأنهم لم يكونوا مقاتلين محترفين –كالهكسوس– لم يستطيعوا التعاون العسكري معهم في مواجهة المقاومات الشعبية المصرية والثورات التحررية ضدهم، كما لم تكن لهم ديار في بلاد أخرى فيفروا إليها كما فعل الهكسوس، ولم يكونوا أيضاً أصحاب أرض في مصر فيثبتوا، فبقوا في مصر ينتظرون مصيرهم مع الحكم الفرعوني الجديد.

وبما أن الهكسوس هربوا دون أن يتمكن الفراعنة من استعبادهم والانتقام منهم والتنكيل بهم على ما فعلوه بهم طوال فترة حكمهم لمصر؛ صب الفراعنة جام غضبهم على بني إسرائيل فنكلوا بهم واستعبدوهم وأذاقوهم سوء العذاب، فأُخذ منهم المظلوم مع الظالم، والجاني مع المجنى عليه دون تحقيق أو توثيق، بحجة تعاونهم مع الهكسوس وإن كان هذا ليس هو السبب الرئيسي كما بينا، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة:49.
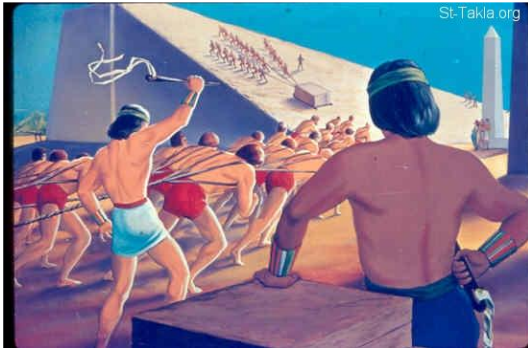
وظل بنو إسرائيل - على مدار سنوات متتالية – يتجرعون كأس الظلم بسبب وبغير سبب، حتى حكم مصر فرعون موسى، فتضاعفت عليهم البلايا والمحن، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولسان حالهم يقول له:

الظلم قبلك كان كمّاً مهملاً   واليوم صار على

[1] ذكرت بعض الدراسات التاريخية أنهم حاولوا الثورة وإثارة الفوضى والاضطراب أثناء مطاردة أحمس لفلول الهكسوس خارج البلاد" انظر كتاب حقيقة بني إسرائيل في مصر – عادل حسين – ص8.

يديك منظماً !!

من هو فرعون موسى ؟

بداية يجب التأكيد على أن المنهج القرآني المعتاد في القصص، هو عدم تحديد الأشخاص بأسمائهم؛ وذلك للتأكيد على جانب العبرة والعظة، فتتحول الحادثة التاريخية المحددة بالأسماء والزمان والمكان إلى قضية عامة قابلة للاستشهاد في كل مصرٍ وعصر، وبذلك يتحول الشخص في القصة القرآنية من اسم إلى رمز؛ فالمستبدّين والطّغاة عبر التّاريخ شركاء في الغيّ والفساد، إلّا أنّ ما يفرّقهم هو الزّمان والمكان، والتّفاوت في استعمال معاول البطش والتهديم، وما فرعون الذي ذكره القرآن الكريم إلّا رمزٌ من رموزهم، ولونٌ من ألوانهم، ويمثّل حال كثيرٍ منهم.

وقد توارثَت الأجيال عبر التاريخ كلمة فرعون، وأصبح لها معنى خاصٌّ يعي الجميع مدلوله وما تَحتويه هذه الكلمة بمجرَّد نُطقِها من صفات العلوِّ والكبر والعظمة والبطش وتقديس وعبادة الذات، وإذلال الناس، والقضاء على المخالفين والمصلحين؛ إما بالقتل أو السجن او الإبعاد والتشريد كل هذه الصفات المظلمة تَرتسم في الذهن مباشرة عندما يُذكر هذا الاسم البغيض: "فرعون."

وفرعون قصة موسى ليس اسماً لإنسان بعينه، وإنما لقب يطلق سياسياً على كل من حكم مصر – في ذلك الزمان– من أبناء شعبها، كما يطلق الآن على حاكمها لقب "رئيس"، ومن قبل لقب "ملك"، وكما أطلق في سابق العصر والزمان على كلِّ مَن ملَك الفُرس: كسرى، برغم أن من تسمى بذلك هو ملك من ملوكهم، ثم جرت العادة بعد ذلك على تسمية كل ملكٍ فارسي بكسرى، وكما تسمى ملوك الروم بقيصر، وملوك الحبشة بالنجاشي، وهكذا ..

والإجابة على سؤال من هو فرعون موسى عليه السلام قد حيرت المفسرين والمؤرخين معاً، ولا نبالغ إذا قلنا أن هناك المئات من الأبحاث والكتب والمقالات على مر العصور قد تناولت هذه

القضية وقد تعددت إشارات الاتهام لأكثر من فرعون، غير أن أكثر الأصابع كانت تتجه نحو "رمسيس الثاني" لتتهمه بأنه فرعون موسى الذي ذبّح الذكور واستحيا النساء واستضعف الشعب، وأذاقهم الويلات.

قصة تشريح مومياء رمسيس الثاني

اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتماماً بالآثار والتراث, وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام 1981م طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (رمسيس الثاني) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة ..

وافق الرئيس الراحل أنور السادات على الطلب، وتم نقل مومياء رمسيس الثاني إلى فرنسا.. وهناك وعلى أرض المطار اصطف الرئيس الفرنسي منحنياً هو ووزراؤه وكبار المسؤولين عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حيا..!

وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا .. حُمِلت مومياؤه بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي, ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها.

وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور (موريس بوكاي)؛ وما أدراك من هو موريس بوكاي ؟!

إنه شامة فرنسا ورمزها الوضاء..

فلقد ولد من أبوين فرنسيين, وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية, ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالباً في كلية الطب في جامعة فرنسا, فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب, وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة، لذا عُين رئيساً للمجموعة التي عالجة مومياء رمسيس الثاني.

كان المعالجون مهتمين في ترميم المومياء, بينما كان اهتمام (موريس بوكاي) مختلفاً للغاية, فقد كان يحاول أن يكتشف كيف مات رمسيس الثاني ؟! فجثة رمسيس الثاني لم تكن كباقي جثث الفراعين التي تم تحنيطها من قبل، فوضعية الموت عنده غريبة جدا، فلقد فوجيء المكتشفون عندما قاموا بفك أربطة التحنيط بيده اليسرى تقفز فجأة للأمام! أي أن من قاموا بتحنيطه أجبروا يديه على الانضمام لصدره كباقي الفراعين الذين ماتوا من قبل!! فأخذ البروفوسور يحلل الجثة لعله يجد حلًا لذلك اللغز،

صورة تظهر ارتفاع يده اليسرى

وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت النتائج النهائية للبروفيسور موريس: لقد كانت هناك بقايا للملح معلقةً في جسد الفرعون، وتبين أيضا مع صورة بأشعة إكس أن عظام فرعون قد انكسرت من دون أن يتمزق الجلد المحيط بها!

فاستنتج البروفسور الفرنسي من ذلك أن الفرعون قد مات غرقًا، وأن سبب انكسار عظامه دون تمزق اللحم كان بسبب الضغط الرهيب الذي سببته المياه في أعماق البحر السحيقة، ولكن الغريب أن جثة فرعون رغم سقوطها في قاع البحر العميق يبدو عليها أنها طفت بشكل غريب على سطح البحر بسرعة ليتم تحنيطها فورًا قبل تحلل الجثة! واستطاع بوكاي أيضًا تفسير الوضعية الغريبة ليد رمسيس اليسرى، فلقد وضح بوكاي أن فرعون كان يمسك لجام فرسه أو السيف بيده اليمنى، ودرعه باليد اليسرى، وأنه في وقت الغرق رأى شيئًا غريبًا أدى لتشنج أعصابه بشكل فظيع ساعة الموت، ونتيجة لشدة المفاجأة وبلوغ حالاته العصبية لذروتها ودفعه الماء بدرعه فقد تشنجت يده اليسرى وتيبست على هذا الوضع، فاستحالت عودتها بعد ذلك لمكانها! وهذه الحالة تشبه تمامًا حالة تيبس يد الضحية وإمساكها بشيء من القاتل كملابسه مثلًا، ولكن سؤالًا

أخيرًا بقي يحير البروفسور موريس بوكاي، وهو: كيف بقيت هذه الجثة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استُخرجت من البحر الذي من المفروض أن يعمل أكثر على سرعة تحلل الجثة؟!!

فأعد البروفيسور الفرنسي موريس بوكاي تقريرًا نهائيا لكي يعلن للعالم ما كان يعتقد أنه اكتشاف جديد، وقرر أن يعقد مؤتمرًا صحفياً له ..

حتى همس أحد معاونيه في أذنه قائلاً: لا تتعجل مسيو بوكاي فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء بالفعل !فقرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق..! فازداد ذهولاً وأخذ يتساءل.. كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام 1898 ميلادية أي قبل مائتي عام تقريبا , بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟!

وكيف يستقيم في العقل هذا, والبشرية جمعاء – وليس العرب فقط – لم يكونوا يعلمون شيئا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟

جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقاً بجثمان فرعون , يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق .. بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة .. وأخذ يقول في نفسه :

مومياء رمسيس الثاني

هل يعقل أن يكون هذا المحنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟!

وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه ؟!

لم يستطع (موريس) أن ينام , وطلب أن يأتوا له بالتوراة, فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله "فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، ولم يبق منهم أحد! ".

وبقي موريس بوكاي حائرًا، فحتى الكتاب المقدس الذي يزعم علماء النصارى أن محمدًا قد سرق منه قصص الأنبياء السابقين لم يتحدث عن قريب أو بعيد عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة! فمن أين أتى هذا البدوي بهذه الحقيقة العلمية وهو في أعماق الصحراء؟!حتى الإنجيل لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه !!

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون! ولكن ..(موريس) لم يهنأ له قرار ولم يهدأ له بال, منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة!

فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين..

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم فيه عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون، فابتسم له عالم مسلم وأعطاه كتاب الترجمة الانجليزية للقرآن وقال له اقرأ هذا يا بروفيسور: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾ يونس: 92 فما إن قرأ بوكاي هذه الكلمات القليلة حتى كاد أن يسقط من على قدميه، فصرخ بالحاضرين: "لقد آمنت برب هذا الكتاب، لقد آمنت بالرسول الذي جاء به! لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن"[1].

---

[1] رجع "موريس بوكاي" إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم، فكانت ثمرة هذه السنوات التي قضاها، أن خرج بتأليف كتاب (القرآن والكتاب المقدس والعلم) وهو من أعظم كتب القرن العشرين، فهذا الكتاب وقع كالزلزال في أوساط الكنيسة في روما، ومن أول طبعة له نفد من جميع المكتبات في أوروبا! ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والإندونيسية والتركية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب، وليدخل من خلاله آلاف الناس في الإسلام، فسبحان من جعل جثة فرعون بعد مماته سببًا في إسلام الآلاف، كما جعلها عبرة لمن يحارب الإسلام والمسلمين في جميع العصور والأزمنة! (راجع كتاب مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ– جهاد الترباني – ج1/ ص254).

القرآن يشير إلى اسم فرعون موسى

سبق وأن أشرنا إلى أن لفظة فرعون ذكرت في القرآن 74 مرة في 67 آية في حين أن هناك شبه إجماع بين المؤرخين وعلماء الآثار، وعلماء المصريات؛ أن مدة حكم رمسيس الثاني منفرداً كانت 67 سنة وهي ثاني أطول مدة حكم لملك على مصر طوال تاريخها, حيث نجد أن الملك "بيبي الثاني" - أحد ملوك الأسرة السادسة - قد حكم مصر لمدة 84 سنة، مع ملاحظة أن الملوك في تلك الفترة (أقصد الأسرة السادسة) لم يكن يطلق عليها لفظ (فرعون)، لأن لقب فرعون "برعا" لم يتداول إلا في منتصف الأسرة الـ 18 طبقًا للوثائق الفرعونية المتواترة، وهو الأمر المتعارف عليه بين جميع علماء الحضارة المصرية القديمة في الخارج والداخل.

لهذا نجد أن ذكر لفظ (فرعون) في 67 آية بالقرآن الكريم وليس أي رقم آخر يعد إشارة على أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني؛ ولهذه الإشارات وغيرها كان رأيي – الذي يحتمل الخطأ - أن الفرعون الذي مات غريقاً بعد مطاردته لموسى وهارون وبني إسرائيل كعقاب أخير من الله هو رمسيس الثاني[1].

مسرح الأحداث

تدور أولى حلقات هذه القصة في مصر التي كانت تمثل الحضارة والرقي مقارنة بجيرانها في الأماكن الأخرى على الخريطة؛ وهذا ما أشار إليه القرآن على لسان يوسف u عندما قال لإخوته: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يوسف:100 فحياة الناس في أي مكان بعيداً عن مصر كانت لا تعدو عن كونها حياة بدوية قاحلة، في حين أن مصر كانت تعيش في أزهى عصور الحضارة والريادة.

---

[1] يوجد بحث رائع مكون من 6 فصول بعنوان "من هو فرعون موسى ؟"، للباحث المهندس/ محمد عبد الرازق جويلي، يمكنك الرجوع إليه على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة إذا أردت الاستزادة من الأدلة، وإن كانت كلها إشارات ودلائل ظنية، ليست بقطعية الدلالة وليس في ذلك كبير أهمية، غير أن النفس تتطلّع لما غاب عنها بشيء من الاهتمام.

ففي الوقت الذي كان العالم يعيش في الكهوف وفى بقع أخرى يهيم البشر فيها على وجهوهم عرايا, كان المصريون القدماء يقيمون الدولة المركزية بنظم وتقاليد وأسس الدولة المدنية الحديثة, ويبنون الأهرامات كبناء معمارى رائع مدهش مازال حتى الآن يخبئ أسرار بنائه؛ ليظهر مدى التقدم المعمارى الهندسى الذي عاش فيه المصريون وقت كان الجيران يعيشون في خيام من شعر الإبل؛ بلد برع أهلها في الصناعة والزراعة وبنوا السدود والقناطر وشقوا الترع ونقبوا في الجبال والمناجم وتحت الأرض، حتى تبوح لهم الأرض بسرها وتخرج لهم كل خيراتها!
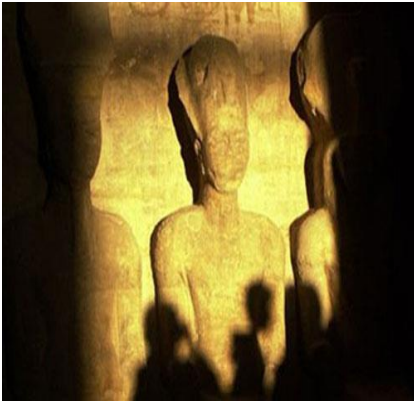
تعامد أشعة الشمس على وجه رمسيس

برعوا في ميدان الطب والصيدلة براعة تكللت بسر التحنيط الذى لم يفلح العالم حتى الآن للوصول لسره .. كما تقدموا تقدما مدهشاً في علم الفلك والرياضيات أتاح لهم أن يظهروا تفوقهم ونبوغهم عندما حققوا توافق تعامد أشعة الشمس على وجه رمسيس لتأتى في يوم عيد ميلاده[1]!!

لهذا كله تربعت مصر بجدارة على عرش التقدم والحضارة والرقي؛ واستخدم اسمها ليدلل على المكان المتحضر، لذا تجد سيدنا موسى عليه السلام يقول لقومه:﴿ **اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾ البقرة:61 فكلمة"مصر" هنا لا تدل على"مصر" الوطن وإنما تعني المدينة المتحضرة في أي مكان؛ ونفهم ذلك أيضاً من قولهم عن عمر بن الخطاب أنه الذي "مصّر الأمصار" أي "أنشأ الأمصار" أو أنه بعث العمال أو الولاة على "الأمصار" -أي الولايات- ليجعلها مدناً ذات حضارة كمصر؛ فالعرب حين عرفوا النطق باللغة العربية استعاروا كلمة "مصر" لتدل على المدينة والحضارة؛ لنخرج بصورة ذهنية صافية مرسوم فيها الحضارة المصرية القديمة، بتقدمها ورقيها الذي كان ينعم فيه أهل مصر في هذا التوقيت.

---

[1] تتعامد الشمس على وجه تمثال رمسيس الثاني مرتان في العام هما يوم مولده 22 أكتوبر، ويوم تتويجه ملكاً في 22 فبراير، وبمجرد أن تتسلل أشعة الشمس يضاء هذا المكان العميق الذي يبعد عن المدخل الرئيسي لمعبد أبو سمبل بحوالي ستين مترًا؛ وهذه الظاهرة اكتشفت في عام 1874 م، حيث قامت المستكشفة «إميليا إدوارذ» والفريق المرافق لها برصد هذه الظاهرة وتسجيلها في كتابها (ألف ميل فوق النيل).المنشور عام 1899م.

وقد كانت مصر آنذاك إحدى كُبريات الممالك القديمة, بدلالة قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي** ﴾ يوسف:54, وعلى لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾ غافر:29, ووقول فرعون ﴿ **يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ الزخرف:51 وهذه إشارات أن نظام الحكم فيها كان "ملكي وراثي".

أساليب فرعون في إدارة مصر

نشأ رمسيس الثاني في أسرة حاكمة لمصر، وقد ورث الحكم من بعد وفاة أبيه "سيتي الأول" وحكم مصر داخلياً وخارجياً وعمل على توطيد حكمه وتثبيته بخطة خماسية هي أساس عمل كل مستبد قال عنها القرآن:﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين** ﴾ [القصص : 4].

1- حكومة الفرد

كان فرعون موسى يتميز بين الحكام المستبدين بصفته العسكرية، لذا وصفه رب العزة بالجندي فقال: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ** ﴾ البروج:18، وقد نصب نفسه – بقوة سلاحه - فوق كل سلطة من سلطات الدولة فهو يأمر وينهى والكل حوله خدم ينفذون أوامره التي لا يشوبها الخطأ أبداً؛ فجمع بذلك كل الصلاحيات والسلطات في قبضة يده؛ ففي يديه تتركز السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية بالإضافة إلى السلطة الدينية، فالفرعون هو الرئيس الأعلى للدولة وقاضي قضاتها، وكاهنها الأعظم، وقائد جيوشها، ومُشَرِّعُ قوانينها.

"وحكومة الفرد المطلق الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية، من أشدّ مراتب الاستبداد التي يُتعوَّذ منها "[1]، لذا تجد فرعون في حواره لا يطيق المعارضة أبداً ولا يتصور وجودها في دائرة حكمه، ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ**

(1) بتصرف يسير من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد – عبدالرحمن الكواكبي – ص19.

الرَّشَادِ ﴾ غافر: 29، فهو "**يريد جوًا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خبأه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه** ..."[2] وهو إن كان قال للملأ مرة واحدة ﴿ **قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ الشعراء: 34

فلا يعني ذلك أنه يقبل مبدأ المشورة أو أنه يحكم بالديمقراطية ويقبل الاختلاف في الرأي، بل قالها ليعطيهم الفرصة لكي يقولوا له ما يريد أن يسمعه منهم، ولذلك فإن آراءهم في النهاية هي نفس آرائه، فالظلمة يستعينون دومًا ببطانة تصفق ولا تحقق، تؤيد ولا تندد، قال الله حكاية عن حاشية فرعون: ﴿ **وَقَالَ الملأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآَلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾ الأعراف:127

أما إذا اشتم رائحة معارضة لآرائه فإنه سرعان ما يعود إلى طبيعته الدكتاتورية؛ وقد حدث ذلك حينما قام واحد من الملأ يحاور فرعون محاولاً إثناءه عن قرار قتل موسى، فعندما قال الرجل:﴿ **يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ اليوم ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا**﴾ غافر:28 قاطعه فرعون لينهى كلامه الذي لا يتوافق مع رأيه وهو يصرخ فيهم ويقول: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ غافر:29

فأفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، ومن خالفني فهو على باطل.

وبذرة التفرعن والاستعلاء هذه موجودة في كل نفس، فإن واتتها الظروف أنبتت نبتها الخبيث ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ سورة العلق:7.

---

(2) الإسلام والاستبداد السياسي – محمد الغزالي – ص 146.

2- سياسة فرق تسُد (أسياد وعبيد).

كانت سياسة "فرق تَسُد" من أبرز سياسات فرعون في حكمه، فعمل على تمزيق نسيج الشعب وتفريقه وتأجيج صراعاته، والعبث بوحدته؛ فقسّم الشعب شيعاً وأحزاباً، ﴿**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ القصص:4، رغم أنهم أمة واحدة، من طينة واحدة.

كما صنف الناس أصنافاً ورتبهم طبقات واستعان ببعضهم على البعض الآخر؛ وساعده في ذلك وجود طبقات من الأغنياء وطبقات من الفقراء، فاستمال الأغنياء وجعلهم أصحاب الحظوة والمكانة والمناصب الرفيعة ﴿ **وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ الأعراف: 114، وجعل بقية الشعب عبيداً يخدمون هؤلاء الأسياد؛ وثمن تلك الإمتيازات مزيد مزيد من التملُّق والنفاق أو الانبطاح والسكوت عن الظلم حتى لا تزول عنهم امتيازاتهم ويضمون إلى قوافل المستضعفين.

ولقد كانت نكبة بني إسرائيل وما حل بهم من الذلة والصغار، بسبب انحلال الروابط القلبية فيما بينهم وتفكك عرى الوحدة الدينية، وتشتت كلمتهم، فقد كان كل واحد يعمل لنفسه ولنفسه فقط، وإن كان طعامه بلحم أخيه، يبتغي به الرضا والوجاهة والمنزلة عند الطاغية فرعون وشيعته.

وهنا درس يجب أن نفهمه من شريعة القرآن العظيم في أن المساواة التامة والكاملة هى أساس المواطنة، وأن المواطنة تتحقق بمجرد العيش في وطن واحد، وأن التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ضد شريعة الله الذي ذم فرعون لأنه مزق الشعب ﴿ **وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ** ﴾ القصص :4 فهذه الطائفة المستضعفة هم من أهل مصر، وإن كان أجدادهم الذين قدموا إلى مصر - منذ زمن - ولدوا على غير أرضها؛ وعليه فإن الجنسية المصرية — طبقا للقرآن الكريم — يجب أن تكون حقاً لكل من عاش في أرض مصر سواء انتمى إليها بالجنس أو العرق أو الدين أو

كان مختلفاً عن معظم أهلها، فالفيصل هو أن يعيش على أرض مصر، ويكون مُرحباً به من المصريين ليكون مصرياً.

وهكذا يرفض رب العزة في تلك الأية الكريمة أى تفرقة بين البشر الذين يعيشون في مصر منذ مجيء أسرة يوسف عليه السلام لأن هذه التفرقة العنصرية أسست للاستبداد السياسى والدينى.

وبهذا التفتيت الطبقي العنصري أمن فرعون على كرسيه من أي زحف جماهيري حاشد لانتزاعه من تحته؛ ونجحت سياسة "فرق تسد" التي ذمها القرآن الكريم، وعرفنا أنها فخ ينصبه كل حاكم مستبد ليحافظ به على كرسيه، ولكننا وللأسف إلى الآن لم نفهم الدرس فشتتنا العصبيات والعائلات والأفكار والأحزاب والمذاهب، وعدونا تتجمع ولاياته تحت علم واحد؛ وكأنه هو الذي نزل فيه قول ربنا:﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ آل عمران: 103

3- إهدار الحقوق والحريات

استضعف فرعون فصيل من الشعب؛ فسلب حريته وامتهن كرامته، عن طريق البطش والتهديد والوعيد والضرب بيد من حديد، على طريقة "ابطش بواحد تُرعب مئة" ﴿ **فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ** ﴾ سورة الأنفال: 57، ومن هنا كثر في قصة فرعون ذكر القتل وتقطيع الأطراف والسجن والذبح حتى للأطفال ﴿ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ سورة القصص:4، ﴿ **يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ** ﴾ سورة إبراهيم:6وفي سورة الأعراف:141﴿ **يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ** ﴾ وعندما قال له قومه: ﴿ **أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ سورة الأعراف:127، فرسخ قاعدة من الخوف لا سقف لها، فهو بذلك يرسل رسالة ضمنية أنه قادر على الأسوأ فإن الأطفال والنساء لم ينجوا من قبضته الباطشة وتنكيله البغيض فما بالك بغيرهم.

ولم يقتصر القتل والتعذيب على بني إسرائيل فحسب بل طال أبناء الشعب المصري الذي خالفوا دينه وشريعته، فعندما آمن السحرة، انطلق الوعيد والتهديد من فم فرعون قائلاً لهم ﴿ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ سورة الأعراف:124، وفي سورة طه:71

قال ﴿ **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى** ﴾ مهدراً حرية الاعتقاد والفكر.

كما بالغ في استضعاف بني إسرائيل مبالغة شديدة؛ فلو توقفت مع مصطلح "يستضعف" فالسين والتاء إذا جاءت في أول الفعل الماضى أفادت طلب الشىء[1]، فحين يقال: "استضعف" أى اتخذ من الوسائل ما يجعلهم ضِعافاً.

وفي داخل كلمة "استضعف" تكثيف لسياسات اتبعها فرعون مع تلك الطائفة "المعارضة" من الإرهاب والقهر والتخويف وتلك هي سياسة كل فرعون مستبد إذ يلجأ إلى توقيع أقصى العقوبة مع المخالفين له ويجعلها علنية يشهدها الجميع لكي يرعبهم، لذا هدد السحرة بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم يعلقهم مصلوبين على جذور النخل ليجعلهم عبرة لغيرهم.

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (123) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ الأعراف:142، وفي سورة طه:71، ﴿ **قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**﴾.

إذن هو إستخدام القوة المفرطة لإحداث رعب داخل النفوس يجعل البشر يختارون الإستسلام والخنوع والرضا بالذل، وهو باختصار" قهر الرجال" الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم فقال:" **وأعوذ بك من قهر الرجال**"[2].

كما دبر من الوسائل ما جعل بها بني إسرائيل في أضعف مكانة، فأخذهم بالبأساء والضراء واستخدمهم في الأعمال الشاقة من بناء وحفر ونقل للحجارة، وكان يعطيهم أجراً زهيداً لا يكفي

---

[1] على سبيل المثال تقول "استقتل" أي قاتل بشجاعة طلبا للقتل، و"استمات" أي قاتل بشجاعة طلبا للموت، و"استكتب" أي طلب أن يكتبوا له وهكذا.

[2] لفظة "قهر" وردت في حديث رواه أبو داود (1555)، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في "صحيح وضعيف سنن أبي داود"، ومعنى (قهر الرجال) أو (وغلبة الرجال) كما في الرواية الأخرى التي رواها البخاري ومسلم أي: قهرهم وشدة تسلطهم عليه، والمراد بالرجال الظَّلَمة، أو الدائنون، وقد استعاذ عليه الصلاة والسلام من أن يغلبه الرجال؛ لما في ذلك من الوهن في النفس". انظر عون المعبود في شرح سنن أبي داود (281/4).

قوت أبنائهم، فيجعلهم يدورون في دوامة الحياة لا يخرجون منها ولو لمجرد التفكير في الخلاص مما هم فيه، والتطلع إلى واقع أفضل.

"من لم يمت في السجن قهراً

مات في صخب الزحام

حتى الصغار تشردوا بين الأزقة

يبحثون عن الطعام

من لم يمت بالجوع منهم

مات في بؤس الفطام[1]".

4- تجفيف المنابع

كان فرعون يخشى من تكتل أي معارضة ضده، وكان التكتل البشري لبني إسرائيل أكثر ما يقلقه؛ فأعدادهم في ازدياد مستمر، حتى أنه ذات ليلة – من كثرة تفكيره فيهم وخوفه منهم – رأى رؤيا فيها نار تخرج من بيوت وأكواخ بني إسرائيل تأتي إلى قصره لتحرقه؛ وبسبب هذه الرؤيا ابتدع نهجا شيطانياً، وفرض سياسةً عجيبةً ورهيبةً، تلك السياسةُ التي ينتهجها في عصرنا وكلاءُ إبليس من شياطين الإنسِ، لا لمواجهة التطرف كما يدَّعون، ولا للتصدي للإرهاب كما يُروِّجون، ولكن لمحاصرة الصحوة الإسلامية والسعي إلى إخماد جذوتِها ووأدِ نبتَتِها؛ ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ الصف:8، إنها سياسةُ تجفيف المنابعِ التي تتفاوت فيها وسائل البطش من عصر إلى عصر، ومن مستبدٍ لآخر، لكنهم يشتركون جميعاً في القتل والسجن واستباحة الأملاك والأعراض.

أمر فرعون الأول زبانيتَه بالتربصِ لكلِّ ذاتِ حملٍ من بني إسرائيل، فلا تضعُ حملَها إلا والسِّكينُ الحادُّ في استقبالِ ولدِها، وقد كان الذبح علنياً أمام الناس، من باب المبالغة في استضعافهم وتعذيبهم نفسياً[2].

---

[1] من قصيدة "سيدي الفرعون" للشاعر فاروق جويدة.

ولجوء الطغاة إلى الذبح أو القتل أو حتى السجن سببه أنهم لا يعرفون ولاءً إلا للكرسي وكل ما وراء ذلك من – إهدار لحقوق وحريات – لا قيمة له، فالمنصب الرفيع هو حياتهم وهدفهم وكل ما يفعلونه إنما هو في الحقيقة يدور في فلك الحفاظ عليه، وكل شيء يهدد هذا فلا بد من إزالته وقطع دابره حتى لو قُتل نصف الشعب، – لا والله – بل حتى ولو قتل الشعب كله، وما فعله ملك أصحاب الأخدود ليس منكم ببعيد.

5- هتك الأعراض

عدّ الله استحياء النساء من الجرائم التي فعلها فرعون أثناء فترة حكمه، رغم أنه بمفهوم المخالفة لقوله ﴿ **يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ القصص:4 أنه كان يستحي نساءهم؛ لكن عندما يذكر الله استحياء فرعون للنساء فتلك إشارة إلى أن فرعون كان يتعمد إبقاء نساء بني إسرائيل أحياء لعلل منها:

اذلالهن، وامتهانهن، وهتك أعراضهن، إذ كان لا يرعى لهن حرمة، ولا يُبقى لهن على حياء!.

واضافة إلى هذا تركهن أحياء بعدما قتّل الذكور لئلا تجد النساء كفايتهن من الأزواج، فيطلبن قضاء إربهن بالزنا، فكلما قل الرجال وكثر النساء على هذه القاعدة، كثر الزنا وشاعت الفاحشة، وكلما شاعت الفاحشة واتسعت دائرة الزنا، وفشت الدعوة إليه والمغريات به، كلما ماتت صفات الرجولة وانحلت الأخلاق وذل الرجال، وضعفت الأمة عن كل عمل جدي صالح، واندفعت في تيار الفجور تبذل كل جهدها المادي والمعنوي لإشباع الشهوات الحيوانية.

فإن لم تفلح هذه المحاولات عرّضهن لما يخدش حياءهن أو يجرحه، فتستدعي المرأة حياءها حين تُوَاجه بما تنكره الحرّة وتأباه العفيفة، فمن كانت جميلة اتُّخذت غصباً للمتعة، ومن كانت غير ذلك اتخذت للخدمة؛ لذا "**لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون "بناتكم" بدلا من قوله يستحيون نساءكم!، فهو يريد أن يلفتنا إلى أن الفكرة من هذا هو إبقاء عنصر الأنوثة يتمتع به آل فرعون؛ لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء، أي أنهم يريدونهن للمتعة وذلك**

---

[2] كل زيادة في المبنى تؤدي لزيادة في المعنى كما يقول أهل اللغة؛ وكلمة ﴿ يُذَبِّحُ ﴾ القصص:4، وردت بالمبالغة ولم تأتِ بالتخفيف لزيادة المعنى، وقد عبَّر القرآن عن الذبح بالفعل المضارع لأن المضارع يفيد حدوث هذا الذبح وتجدده مرة بعد مرة، كلما جاء موجبه، وهو: ولادة المولود الذكر من بني إسرائيل.

للتنكيل ببني إسرائيل، ولا يقتل رجولة الرجل إلا أنه يرى الفاحشة تصنع في نسائه"[1]، ولأن مفهوم ﴿ **وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ** ﴾ واسع فضفاض؛ فمن الممكن أن يكون استبقاؤهنّ أحياء – أيضا – للضغط على الآباء والأبناء والأزواج والإخوة من خلال النسوة، فالمرأة نقطة ضعف لأهلها، وما يخشى الناس شيئاً قدر ما يخشون على أعراضهم أن تُنتهك، لذا يستجيبون لأي أمر مقابل حفظ أعراضهم.

إنها فكرة شيطانية ابتدعها فرعون الأول وصار عليها الفراعنة من بعده، فسمعنا ورأينا من هُدِد باغتصاب بناته أو زوجته إن لم يسلم نفسه للجهات الأمنية أو أن يقر بما جاء في التحقيقات الملفقة أو يعترف في فيديوهات بما لم يفعله.

أبرز معاوني فرعون على تنفيذ سياساته

لقد وصف الله فرعون في القرأن الكريم قائلاً:﴿ **إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ القصص:4، لاحظ لم يأت التعبير القرآني بلفظ فاسد – وهو فاسد بلا مراء – ولكن جاء التعبير القرآني بلفظ (مفسد) وهذا من دقة اللفظ القرآني، لقد اختار هذا الطاغية منهجية الإفساد في الأرض لتكون دستور حكمه، فمثل هذه الشخصية المريضة بداء الفساد لا تستطيع أن تعيش في جو صحي أبداً، فلابد من إفساد البلاد، وإفساد العباد.

---

(1) تفسير الشعراوي ج1/ ص326 سورة البقرة.

إن دقة التعبير القرآني المبهر تغوص بك من بلاغة التركيب إلى بلاغة الدلالة اللفظية، فجملة ﴿**مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ تضيف لنا معنىً جديداً ألا وهو تمكن الفساد وتجذرة في أعماق هذا الطاغية؛ ولم أجد في كتاب الله فرداً واحداً وصفه الله بهذا الوصف، واتهمه بهذا الاتهام إلا فرعون؛ والفاسد إذا اعتلى منصباً في دولة، فإن الفساد يتجذر فيها، لأنه سيسلك مبدأ تطهير المؤسسات من المصلحين! فالإصلاح والإفساد، ضدان كالحق والباطل، لا يجتمعان حتى يتصارعا، وفرعون لا يريد صراعاً مع أحد، فانتقى كل من حوله على شاكلته، يفكرون كما يفكر، وينطقون بما يريد، فهو إمامهم وقائدهم وملهمهم، وقد رصد لنا القرآن بعض أسماء وصفات معاونيه؛ وهؤلاء هم حُماته، ومثبتي عرشه من الاهتزاز، وهم دوماً قلة ولكنهم يساعدون الطاغية على البقاء في مكانه ويسيطرون على البلد كلها ويجعلونها رهن إشارته، هؤلاء القلة ينتفع في كنفهم المئات يفسدونهم مثلما أفسدهم الطاغية، ثم هؤلاء المئات يتبعهم بضعة آلاف تابع يوكل إليهم مناصب الدولة؛ وما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك!

فهم تماما كالبرك والمستنقعات، تتداعى عليها الهوامّ والحشرات، وتتوالد وتتكاثر في أعداد لا تعدّ ولا تحصى، فمن أراد التسلي بأن يتقصى هذه الشبكة لوسعه أن يرى لا أقول آلاف، ولا مئات الألاف بل يرى الملايين، ربطهم فرعون بحبل واحد يسوقهم به حيث شاء، وهم من باتوا يعرفون الآن بـ "**الدولة العميقة**" ورموزها على النحو الآتي:

1- "الملأ" كبار رجال الدولة.

إن من الثابت لدينا أن هناك طبقة كانت مميزة تحيط بفرعون، وتلعب دور البطانة الخاصة، تلك الطبقة التي عبر عنها القرآن بوصف الملأ...

والملأ هم الموظفون "الملكِيون" – قادة المؤسسات الكبرى – في العاصمة والأقاليم الذين وصلوا إلى قمة النظام الإداري والعسكري والديني والإعلامي؛ وأهمّ ما يميز هذه الطبقة السيادية هو

إخلاصهم الشديد لفرعون وتفانيهم في إرضائه وطاعتهم لأمره واتباعهم له، ويقال لهم: «ملأ»؛ لأنهم هم الذين يملؤون العيون، أي: لا ترى العيون غيرهم لكثرة ظهورهم على الفضائيات والصحف والمجلات، وترديد كلامهم بين الشعب، لذا كانت الرسالة موجهة إلى فرعون وملئه

﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ الاعراف:103

فلولا الملأ ما كان فرعون، ولكل فرعون ملأ يصنعونه، ولن يجد فيهم من يقول له: تَعقَّلْ؛ ولو وجد من يقول له ما تركهم في مناصبهم طرفة عين.

ويعمل تحت إمرة الملأ– رجال الصف الثاني – قائمة لا تنتهي من المنتفعين وأصحاب المصالح الذين لا يبحثون إلا عن منفعتهم فقط ﴿ **وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** ﴾ الأعراف:113

وطبقة الملأ الفاسد متواجدة في كل زمان ومكان، انظر ماذا قالوا لسيدنا نوح عليه السلام ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ الأعراف:60.

وفي قصة قوم هود عليه السلام ستراهم يصدون وهم مستكبرون ﴿ **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (65) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ الأعراف:66.

وستجدهم حاضرين بقوة في قصة صالح عليه السلام:﴿ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (75) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ الأعراف:76.

وهاهم ينهون الناس عن اتباع نبي الله شعيب عليه السلام:﴿ **وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾ الأعراف:90، وما فعلوه مع آخر الأنبياء محمد – صلى الله عليه وسلم –: ﴿**وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**

(6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ص:8.

ولما كان فرعون ليس كأي طاغية آخر، كان ملأوه أيضاً ليسوا كأي ملأ ! فقد أرسل إليهم موسى كما أرسل لفرعون سواء بسواء ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**﴾ المؤمنون:46، "**وإنما جعل الإرسال إليهم دون بقية أمة القبط لأن دعوة موسى وأخيه إنما كانت خطاباً لفرعون وأهل دولته الذين بيدهم تصريف أمور الأمة لتحرير بني إسرائيل من استعبادهم إياهم**"[1].

لقد كانوا أسوأ بطانة لأسوأ حاكم عرفته البشرية، هم الذين صنعوا لفرعون بطانة من خليط واسع يضم سحرة وشعراء، وأغنياء وأغبياء على حدٍّ سواء؛ صنعوا هذه البطانة لـ "تملّق وتزمّر" لفرعون، وتمدح وتمجّد فيه، حتى غرته نفسه وأخذ جنون العظمة منه مأخذاً، فنصب نفسه إلهاً للناس ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ القصص: 38، كما سَخروا في سبيل تلميع صورته الألسن والأقلام وجعلوا ذكره على كل لسان ﴿ **وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾الشعراء:44.

كما عيّنوا له على رأس أولئك المؤلّهين له – فعلا أو قولاً – علماء الدّين وشيوخ المعابد، ممّن يبيعون دينهم بعرضٍ من الدّنيا قليل، أو ممّن أعماهم هواهم، وأضلّهم عنادهم فباعوا دينهم بدنيا غيرهم[2].

كما كان ملأ فرعون أول من شنع بموسى عليه السلام فاتهموه بأنه ساحر ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ الأعراف:109، وأنه جاء ينفذ مخطط الأعداء لأخراج أهل مصر من أرضهم ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ** ﴾ الأعراف:110، فاستعْدَوا عليه فرعون

---

[1] انظر تفسير التحرير والتنوير ج 18، ص 63، وتدبر دقة اللفظ القرآني ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ ! فعطف فاء التعقيب يفيد أنهم لم يتأملوا الدعوة والآيات والحجة ولكنهم أفرطوا في الكبرياء، فالسين والتاء للتوكيد، أي تكبروا كبرياء شديدة بحيث لم يعيروا آيات موسى وحجته أذنا صاغية.

[2] يوجد حتى الآن من يتبع الباطل لا لأدلته، وإنما لمواقف نفسية من أهل الحق؛ ألم تتبع بعض قبائل العرب مسيلمة مدعي النبوة – رغم يقينهم بكذبه – ورفضوا إتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم بحجة أن النبي من قبيلة "مُضر" ومسيلمة الكذاب من قبيلتهم "ربيعة" وقالوا مقولتهم الشهيرة " كذاب ربيعة خير من صادق مُضر"!، بمثل هؤلاء المعاندين والغيورين يتجمل الباطل حتى يومنا هذا.

﴿ **وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** ﴾ الأعراف:127، وهم أشاروا عليه بكيفية مواجهة دعوة موسى ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾ الأعراف: 112، ثم وصل بهم الأمر إلى حد الإقدام على تصفية موسى جسدياً !! ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ القصص: 20.

ولا تعجب إن رأيت هناك تشابهاً بين أخلاق ملأ فرعون وأخلاق فرعون؛ فماذا يتوقع ممن عاش مع هذا المستكبر الذي وصفه ربه بقوله ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ** ﴾؟! بالطبع أصابتهم العدوى ﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ** ﴾ المؤمنون:46، وماذا يتوقع ممن عاشوا في كنف من يقول: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ النازعات: 24 ومن قال ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ القصص:38 ؟! بالطبع أصابتهم العدوى الكبر والغرور فقالوا: ﴿ **أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾[1]المؤمنون: 47.

بل لا تعجب أيضاً إن رأيت هناك تشابهاً بين ملأ عصرنا وملأ سلفهم الغابر؛ فلكل عصر ملؤه، وملأ هذا العصر أكثر قوة، وأوسع انتشاراً وتغلغلاً، وأكثر نفوذاً وتحكماً، وما أمر حاشية السوء لفراعنة هذا العصر منا ببعيد ..

فالدولة كلها مسخرة لأهواء وأطماع وشهوات ونزوات هذه الفئة، والفارق بينهم وبين الملأ الأول، أن السابقين كان إلاههم هو فرعون نفسه، أما اليوم فإلاههم هو المنصب والمال، وفرعون عصرنا ما هو إلا وسيلة للتقرب لهذا الإله !

فإذا هلك فرعون العصر فلن يهلك معه ملؤه، لأنهم سيغيرون جلودهم وأقنعتهم، ويتحولون إلى أتباع الحاكم الجديد! وسيكونون أتباعه المخلصين، وسيهتفون حينها: مات الملك.. عاش الملك !

---

[1] يعنون: أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون لأمرهم، ويدينون لهم، والعرب تسمي كل من دان لملك: عابداً له". قال الآلوسي رحمه الله:"ومن العجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضي أكثرهم للإلهية بحجر فقاتلهم الله تعالى ما أجهلهم" انظر تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج17،ص51، وتفسير روح المعاني ج18، ص36.

ولا عجب، فقد أخبرنا رسولنا – صلى الله عليه وسلم – عن هؤلاء الذين عبدوا المنصب وعبدوا المال فقال:((**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**))[2]

2- هامان "الإرادة السياسية".

هامان كانت له سلطة حربية إلى جانب سلطته المدنية نفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾ القصص:8، فكما كان لفرعون جنوده، فقد كان لهامان جنوده أيضاً؛ وبوضوح أكثر فإن فرعون كان هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، بينما كان هامان هو القائد العام لها.

أما عن سلطته المدنية فتتضح من تكليف فرعون له بأن يبني له صرحاً ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعلى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**﴾ غافر:36 وقوله أيضاً: ﴿ **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعلى أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**﴾ القصص:38، فرتبته العسكرية تخّول له القيام بالمشروعات المعمارية الهندسية، وهذا هو نظام الحكم في الدول العسكرية حتى الآن، إذ يقوم فيها الجيش بمعظم المهام، التي هي من الأساس خارج مهامه.

إذاً "هامان" هو تجسيد للإرادة السياسية لفرعون، وذراعه الأيمن، كما أنه رمز للحكومات المستبدة الفاسدة التي تسخر كل ثروات الوطن ومقدراته لخدمة رغبات الفرعون، ولا علاقة لها بآمال الشعب وتطلعاته[1].

---

[2] حديث رواه البخاري عن أبي هريرة: 2887، قال الحافظ بن حجر: قوله "عبد الدينار" أي طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده، قال الطيبي: قيل: خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار، لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة" ثم قال رحمه الله:" وإذا شيك فلا انتقش: أي إذا أصابته شوكة فلا وجد من يخرجها، والانتقاش إخراج الشوكة من الرجل، وأصله من المنقاش الذي يستخرج به "(فتح الباري:11/254-255).

[1]) تُخَالِف صورة هامان في القرآن الكريم الصورة التي ظهر بها في سِفْر "أستير" في كُتب العهد القديم؛ حيث ظهر كمساعد لملك بابل (في العراق)، وأوقع الضرر الكبير بالإسرائيليين، وقد حدث هذا بعد سيدنا موسى بحوالي ألف ومائة سنة !! وقد أثبتت الاكتشافات الفرعونية صحَّة ما جاء به القرآن الكريم؛ فمن خلال الكتابات والنقوش الهيروغليفيَّة تمَّ التعرُّف على معلومة مهمَّة جدًّا، وهي أنَّ اسم هامان ورد فعلاً في الكتابات المصريَّة القديمة؛ حيث يوجد اسمه على حجر موجود حاليًا في متحف هوف بفيينا، كما ورد اسمه كذلك في (معجم أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة Dictionary of Personal names of the New Empire) الذي تمت كتابته اعتمادًا على المعلومات الواردة في جميع الألواح والأحجار المصرية. انظر كتاب القرآن والعلم المعاصر ص90، 91 للبروفيسور موريس بوكاي.

3- قارون "طبقة الرأسمالية".

وكان من أكبر معاوني فرعون على تنفيذ سياسته الظالمة الفاسدة، "طبقة الرأسمالية" من رجال أعمال، ومستثمرين كبار، وكان على رأسهم بالطبع قارون.

ورد ذكر قارون في موضعين من القرآن مرتبطاً بفرعون وهامان، لنفهم أنه من كبار أتباع فرعون الذين كذبوا بموسي عليه السلام، رغم أن القرآن ذاته قد ذكر أنه من بني إسرائيل، بل وكان من أتباع موسى لفترة من الفترات !

فقد قال الله عنه:﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ** ﴾ القصص:76، ولكنه "**كَانَ**" لنفهم أنه تمرد وانتكس، ورمى نفسه في أحضان نظام فرعون، وتقرب منهم شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى طبقة الملأ الفاسدة، بل وصار ثاني اثنين فيها، لذا جاء اسمه ملاصقاً أحياناً إلى اسم هامان ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ غافر:24، فقد استخدم أمواله في الصد عن سبيل الله، وعرقلة دعوة موسى، ونشر الفساد في المجتمع، وسنتعرض لهذه الأحداث بالتفصيل ضمن أحداث الكتاب إن شاء الله.

إذاً "قارون" هو رمز لطبقة نسيت كافة الأخلاق وبغت على الناس بأموالها، وتسلطت عليهم بقربها من مركز الحكم، فكنزت الأموال وجمعتها بأعمال تبدو أنها شرعية.

4- جنود فرعون "الدولة البوليسية".

استطاع فرعون بدولته البوليسية أن يزرع الخوف والفزع في الشعب، ولقد تعجبت كثيراً من تسليط القرآن الضوء على جنود فرعون في كل تحركاته، وبعد تأمل ومدارسة وجدت أن المولى سبحانه وتعالى يلفت الأنظار إلى إحدى السنن الحضارية الخطيرة التي تؤثر في شخصية المجتمعات وتبني

مفاهيمها، إذ لولا الجنود لما استطاع الظلمة أن يتجبروا في الأرض، وأن يبنوا عالمهم الدميم المزدحم بكل ما يحط من كرامة الإنسان ويحارب الرحمن.

فالجنود هم الأذرع الطولى التي تقيم أركان الظلم وتبطش بالمعارضين؛ فسياسة الأنظمة الظالمة الفاسدة - طيلة العصور - في توطيد وترسيخ دعائمها تعتمد على العسكر لإرهاب المواطنين واستذلالهم؛ فقد كان التدخل العسكري في حل كل مشكلة من مشاكل الدولة؛ والسيطرة على أية معارضة قد تنشأ من فصيل داخل الشعب هو أبرز ما في نظام فرعون، مما أدى لانتفاش الجنود واستكبارهم على الشعب المسكين كاستكبار فرعون سواء بسواء فقد قال الله عنهم:

﴿ **وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إلينا لَا يُرْجَعُونَ** ﴾ القصص:39.

ولقد كانت تحركات فرعون وهامان دائما بهذه الترسانة العسكرية لفرض الهيبة ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ** ﴾ القصص:8

ولذلك فإن عسكر فرعون قد صحبوه إلى نهايته ﴿ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى** ﴾ طه: 79.

5- آل فرعون "مؤسسات الدولة".

سمى الله النظام الحاكم بجميع مؤسساته وسلطاته المتنوعة بـ "**آل فرعون**" فقال: ﴿ **كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ سورة الأنفال :54.

لذا كان هذا النظام واضحًا لدى موسى - عليه السلام - عندما توجه بالدعاء، فلم تشغله شخصية فرعون وحده برغم مالها من مركزية بل دعى عليه وعلى جميع أفراد نظام حكمه وقادة مؤسسات دولته ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴾ يونس:88.

ذلك أن فرعون لا يفعل كل الجرائم بيديه وإنما عبر مؤسسات دولته ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ **آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ** ﴾ إبراهيم:6.

ومؤسسات أي دولة ظالمة تُسبح بحمد قائدها، فترى أخطاؤه تخطيطاً لمستقبل الشعب، وعثراته دفعة للأمام، وهم مختارون بعناية فإن "**الجهة المستبدة تكون مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الفرّاش وكنّاس الشوارع، ولايكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً؛ حتى يكون أسفلهم طبعاً أعلاهم وظيفة وقرباً، لأن الأسافل لايهمهم جلب محبة الناس وإنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد**"[1]، ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ**﴾. الفجر:11

إذا فليعلم من يريد إصلاح أمر البلاد والعباد – موسى كل عصر - أن عليه مواجهة جنود فرعون، ودولة هامان، وأموال قارون، ومؤسسات الدولة متجذرة الفساد، فلا إصلاح إلابمواجهتهم ولامناص من المواجهة، لأن العداء بينهم وبين المصلحين أبدي مهما تغيرت الأحوال، ومهما تبدلت الأماكن ومهما ادعوا أنهم يريدون الخير للناس، سيظلوا هم أصل الباطل وأبواقه، كما عليه أن يعلم أنه لا بقاء لفساد، ولا بقاء لباطل مهما اجتمعت لنصرته الجيوش وساندته الكتب والنشرات.

وتبدأ الملحمة

وتبدأ ملحمة الصراع بين الحق والباطل، ورمز الباطل هنا فرعون الذي يدير به إبليس معركته الأزلية مع الحق مستخدماً منصبه وقوته ونفوذه؛ وواقع الحال الآن هو أن فرعون يفعل خمسة أشياء:

1- ﴿ **عَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾ ويريد أن يستمر في علوه ومكانته.

2- ﴿**وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا**﴾ حتى لا تقوى شوكتهم.

3- ﴿**يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ**﴾ وهي بني إسرائيل.

---

(1) بتصرف يسير من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد / عبد الرحمن الكواكبي ص69.

4- ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ حتى لا يولد النبي المنقذ.

5- ﴿ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ حتى تفسد أخلاقهم وينحرفوا.

وكل سلطات الدولة تخدم أهدافه الخمسة؛ فالسلطة التنفيذية هو رأسها، والسلطة الدينية هو ربها، والسلطة العسكرية هو قائدها، والمنتفعون هو وجهتهم، ولم يتخيل أحد أبداً أن هذا الطاغية سيزول ويهلك كغيره من الطغاة، فهذا الأمر لم يطرح أبداً للمناقشة ولم يسمح به حتى في الخيال...

وفي هذا الجو الكابوسي الخانق... وبين ظلامات اليأس...

ولما بدأ الوهن يدب في القلوب... واقتربت النفوس من هاوية القنوط...

أتى نصر الله ليستنقذ الناس من هاوية الكفر...

إنها سنة إلهية غفل عنها كثير من الناس، قال تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ يوسف:110، وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ البقرة: 214، هذا النصر لم يكن لغير الله فيه فضل فموسى – الطفل الرضيع- سيكون خصماً في المعركة التي سيديرها الله عز وجل ليقضي به على فرعون وينهي به خطته، وسيفرض الله به إرادته الخماسية أيضاً فيقول:

1- ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ بالحق الذى معهم

2- ﴿ **وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً** ﴾ بالثبات على الحق

3- ﴿ **وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ للعرش والملك

4- ﴿ **وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾ في كل مكان

5- ﴿ **وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ**[1] **وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ فتكون نهايتهم على أيديهم.

ولا زالت دوائر التشابه والتشابك تتداخل وتتلاقى في أحداث هذه القصة قديمًا وحديثًا ففرعون كان يخاف ويحذر من الطفل الذي سيخرج من بني إسرائيل ويزيل ملكه؛ ففعل ما فعل حتى يتجنب ذلك، فما أغنى عنه حذره، ولو نظرت الآن لوجدت أن كل فرعون حتى يومنا هذا ليس عنده كابوس مقلق سوى الشباب، لأن هذه الفئة هي الأمل، وعلى أكتافها سيكون التغيير، لذا قرروا أن يذبحوهم .. ولكن بسكين جديد لا يسيل دماً

فلو كانوا قديماً يذبحونهم بالسكين، فاليوم يذبحونهم بإلاهاء التضليل ..

فتحوا لهم كل سبيل للشر، وأوصدوا دونهم طرق الخير..

كبَّلوا الدعاة إلى الله .. وأطلقوا السفلة والمجرمين، ينسفون كل فضيلة، ويغرسون كل رذيلة... وآلات الإفساد والإلهاء تدور ليل نهار، بلا كلل ولا ملل لتحقيق هذا الغرض ..

﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ التوبة:32، وهكذا يعلن الله إرادته؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأنه سيحققها رغم أنوفهم؛ لا بحرب عسكرية، ولا بإبادة جماعية؛ وإنما بطفل حملت أمه في نفس العام الذي رأى فيه فرعون الرؤيا، وسيولد في نفس العام الذي يقتل فيه الآلاف من الأطفال الذكور ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ يوسف:21

وها نحن نرى القوتين مصطفتين أمام أعيننا وجها لوجه، قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على فعل أي شيء؛ وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الهزيلة التي ترهب الناس !

---

(1) في الفعل (نُري) من قوله تعالى: ﴿ **وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ قراءتان: (نُري) و(يَرى)، ومؤدى المعنيين في القراءتين واحد، فهو سبحانه يريهم فيرون، فالفعل من الله ابتداء تقدير، ومنهم تحقق وحدوث. انظر بحث بعنوان "لطائف قرآنية في سورة القصص" للدكتور مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار.

ويرسم بهذا المشهد مسرح القصة قبل أن يبدأ القرآن في عرضها، لتبقى والقلوب معلقة بأحداثها ومجرياتها من واقع الحال، وما ستنتهي إليه من وعود ربانية ستحدث في المآل, وكيف ستصل الأحداث إلى تلك النهاية التي أعلنها ربنا قبل البدء في أحداث القصة ؟.

ومن ثم تنبض القصة بالحياة; وكأنها تُعرض لأول مرة ..

تبدأ الأحداث بمشهد أم بسيطة من عوام بني إسرائيل ترى رؤيا، أنها ستلد طفلاً حياته – فور ولادته – محفوفة بالمخاطر والأزمات، وما عليها سوى أن تلقيه في اليم عندما تشعر عليه بالخوف!

فما الذي سيحدث ؟

وما هي التدابير الأمنية التي ستتخذها هذه الأم العظيمة للمحافظة على ولدها ؟

وما قصة أخته الفدائية صاحبة الحس الأمني العالي ؟

وما هو دور آسية زوجة فرعون في تلك الأحداث ؟

ومن هم شيعة موسى الذين كان يلتقي بهم سراً في المدينة ؟

ولماذا اختار موسى مدّين دون بقية البلدان للهروب إليها ؟

ولماذا قرر موسى العودة إلى مصر بعد سنوات من الغياب ؟

هذا ما سنتابعه عن قرب — إن شاء الله – في ضوء أحداث الفصل الثاني من هذا الكتاب.

عائلة موسى
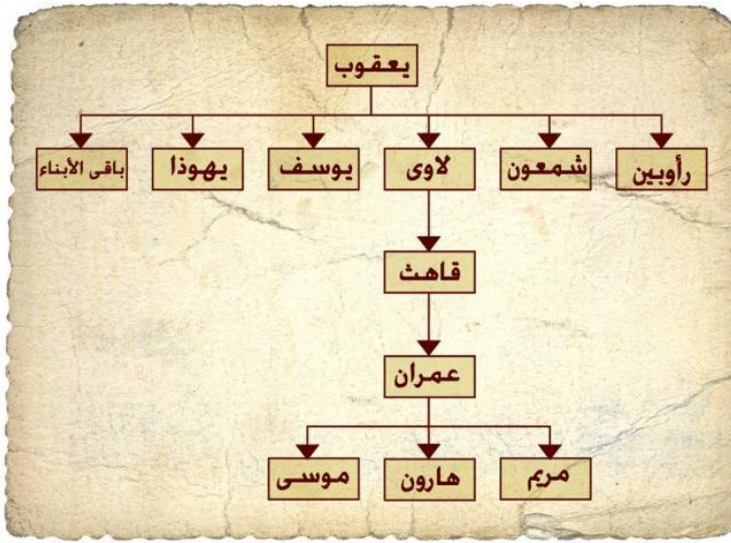
في كوخ من أكواخ بني إسرائيل المبنية في مكان أشبه ما يكون بالمناطق العشوائية الفقيرة الموجودة في بلادنا العربية الآن، كانت تعيش أسرة نبي الله موسى ‌u، تلمح داخل هذا البيت الصغير الفقير المتواضع وفتاة اسمها "مريم"، وطفلاً صغيراً عمره دون العامين اسمه"هارون"، وأم اسمها يوكابد[1]، وأب اسمه "عمران" بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام".

حادث مروع

وفي ليلة من الليالى تأكدت زوجة عمران أنها حامل في مولود جديد؛ من إرهاصات الحمل التي بدأت تظهر عليها، فبشرت زوجها "عمران" بهذا الخبر السعيد، وفرح فرحاً شديداً، وعلا صوت ضحكاتهما ومزاحهما مع أولادهما في تلك الليلة، إلى أن سمعوا أصوات صراخ وبكاء تخرج من بيت مجاور لهم من بيوتات أقاربهم من "بني إسرائيل" !!

فخرجوا من بيوتهم، فإذا بقوات الأمن من جنود فرعون تطوق المكان وتمنع الناس من الاقتراب منه؛ وبعد أن انتهت مهمتهم، وابتعدت أقدامهم، واختفت ملامحهم الوحشية، إذا بأم ملقاة على الأرض فاقدة للوعي، هي أقرب للموت منها إلى الحياة..

إنها المرأة التي ولدت منذ ساعات طفلاً .. وهاهو الطفل الذي أنجبته مذبوحاً بجوارها يفيض دمه الطاهر في الشارع !!

---

[1] يوكابد بنت لاوي الملقبة بـ (المتوكلة) (بالعبرية: יוכבד) وهو اسم مصري قديم؛ وهذا الاسم لم يذكر في كتاب الله أو سنة رسول صلى الله عليه وسلم، وإنما ورد في كتب أهل الكتاب (عمرام)؛ وقد ورد في السنة الصحيحة ما يدل على أن اسم والد موسى اسمه "عمران" (بالعبرية: עמרם) ، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **مررت ليلة أسري بي على موسى بن عمران..** " والحديث رواه مسلم برقم 165 من حديث عبدالله بن عباس.

ذهبت "يوكابد" إليها مسرعة تخفف عنها آلام فقدها لولدها، وتواسيها في حزنها، وهي تتساءل مالذي حدث، وأي جريمة فعلتم ؟!.

فإذا بالمفاجأة.. هذا قرار سيادي بدأ تنفيذُه منذ الليلة على كل مولود ذكر سيولد من بني إسرائيل خلال المرحلة المقبلة، نتيجة لما رآه فرعون في منامه من رؤيا أفزعته جمع من أجلها أعلم أهل مصر ليفسروها له ..

وبعد أيام من خوفهم من الإفصاح والتصريح له بالتأويل الحقيقى لهذه الرؤيا حسموا أمرهم وقرروا إخباره بهذه الحقيقة التى قلبت حياته إلى كابوس مفزع ..

لقد أخبروه أن طفلاً سيولد من بني إسرائيل يسلبه مُلكه، ويغلبه على سلطانه، ويبدل دينه إلى دين جديد، وقد أطل زمانه؛ لذا أرسل فرعون جنوده في كل مكان لقتل كل غلام يولد لبني إسرائيل..

فنزلت هذه الأخبار على "يوكابد" كالصواعق، فما لبث فرحها بحملها الجديد أن تحول إلى هم وغم، فماذا ستفعل إن ولدت ذكراً، هل ستتركه لفرعون وجنوده ليذبحوه !

وعادت إلى بيتها لا تفكر في شيء سوى في الطفل الذي لم يولد بعد؛ ومرت الأسابيع والشهور وما تكاد ليلة منهما تمر حتى تقع حادثة ذبح لمولود جديد من بني إسرائيل.

قرارات جديدة لفرعون

وصلت إلى الدولة أخبار – عن طريق جواسيسهم – أن بعض نساء بني إسرائيل يخفين ما يلدن من أطفال ذكور؛ فقام فرعون بإصدار قرار بحظر عمل قوابل(1) بني إسرائيل، على أن تقوم الطبيبات المصريات بمتابعة حمل نساء بني إسرائيل وإبلاغ الجنود بالمواليد الذكور لينفذ فيهم حكم الذبح علناً وفوراً أمام الناس؛ كما أصدر قراراً بمكافأة كل رجل أو امرأة تبلغ عن أي طفل ذكر ولد ولم ينفذ فيه حكم الذبح، ومعاقبة أسرته وعائلته إذ تستروا على طفل هارب من العدالة !

وعلى الفور قام هامان وجنوده بالتنفيذ.

---

(1) قابِلة -: مفرد قابِلات وقوابِلُ : وهي امرأة تُساعد الحامِل عند الولادة، أو المعروفة الآن بطبيبة النساء والتوليد (انظر قاموس المعاني– الانترنت).

وأوحينا إلى أم موسى

وتحت غيوم البطش السوداء، ورياح الفزع العاتية، وتحركات الشرطة السرية الذين يتابعون نساء بني إسرائيل اللاتي أوشكن على الولادة، وصرخات الأمهات وهن يندبن أطفالهن الذين قُتِلوا ظلمًا، كان الرعب يسيطر على كيان زوجة عمران، ويستولى الخوف على قلبها، فقد آن وضع جنينها الذي سعت وبكل طاقتها خلال الأشهر الماضية أن تخفي خبر حملها به عن أقرب الناس إليها من عائلاتها وجيرانها، واحتاطت قدر استطاعها من باب الأخذ بالأسباب ألا يبدو عليها آثار الحمل الجديد، فارتدت ملابس واسعة فضافضة أمام القريب[1] والغريب، وقللت خروجها من بيتها إلا للضرورة القصوى؛ لقد فعلت ما في وسعها .. ولكن ياترى هل هذا يكفي ؟!

استغرقت في تفكير عميق، يتنازع أطرافه يقين الإيمان ولهفة الأم على وليدها، ووسوسة الشيطان الذي يريد أن يزلزل فيها ثبات الإيمان، ولكنها كانت تلوذ بربها الذي إرادته فوق إرادة البشر، وتستعيذ به من تلك الوساوس الشريرة.

فإذا بالله مؤنس كل وحيد، وصاحب كل فريد، يرسل إليها بعض الرؤى والخواطر والإلهامات يؤنسها ويسليها بها ذكرها الله في القرآن فقال: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**[2]﴾. القصص:7

وخلاصة هذه الرؤى والإشارات التي عبر عنها القرآن بأنها "وحي" ألا تخاف على الطفل الذي في بطنها عندما تلده، وما عليها سوى الأخذ بالمزيد من الأسباب في الحفاظ عليه، فإنه محفوف بعناية الله ورعايته لأنه يوماً ما سيكون نبياً رسولاً.

ويبدو – والله أعلم– أن هذه الرؤى والإشارات كانت تأتيها متقطعة وعلى مراحل فمثلا:

---

(1) أقصد من محارمها.

(2) اشتملت الآية على لطائف من تنويع الخطاب، ففيها أمران (أرضعيه، فألقيه)، وفيها نهيان (لا تخافي، ولا تحزني)، وفيها بشارتان (رادوه، وجاعلوه) اشتمل النهيان على الماضي والمستقبل، فقوله: (لا تخافي) أي عليه فيما يستقبله من قدر، وقوله (ولا تحزني) على فقده إن افتقدتيه؛ ثم تأمَّل البشارتين كيف جاءتا مؤكَّدتين تأكيداً بليغاً، يتناسبان مع موقف تلك الأم المفطورة في ولدها ﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ فإن للتوكيد، ومجيء (رادوه، وجاعلوه) على اسم الفاعل بدلاً من الفعل لتكون الجملة اسمية، فتدل على الثبوت.

تأتيها رؤيا مفادها أن ترضع ولدها فإذا خافت عليه من عيون فرعون التي تتلصص على أكواخ بني إسرائيل وتبحث عن المواليد الجدد من الذكور؛ فلتصنع له تابوتاً وتضعه فيه وتتركه في اليم.

ثم تأتيها رؤيا أخرى ترى فيها أن وليدها أخذه جنود فرعون ولم يقتلوه! بل عاش هناك في قصره وتربى في كنفه وصار يلبس ملابس الأمراء !!

ثم ترى رؤى أخرى يظهر وليدها فيها نبياً ورسولاً يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد على خطى من سبقوه من أجداده يوسف ويعقوب وإبراهيم.

وكل هذه الرؤى والإشارات والإلهامات المتفرقة باتت تطمئنها، وإن كانت لا تعدو عن كونها رؤى تصح أو لا تصح، ولكنها أخذت بالأسباب مستعينة بهذه الرؤى والإشارات في حل مشكلتها[1]، فصنعت لولدها تابوتاً من البردي لكي يكون خفيفاً فيطفو، ثم طلته بالزفت لكيلا يدخله الماء، ثم هيأت مكاناً بين البوص والحشائش النابتة في اليم خلف بيتها لتخبأ فيه التابوت إن شعرت على ولدها بالخطر، ونسقت مع إحدى قوابل بني إسرائيل ممن تثق فيهن ثقة كبيرة لكي تساعدها في لحظات الولادة خاصة أن ابنتها مريم ما زالت فتاة صغيرة لا تفقه كثيراً من هذه الأمور، وزوجها عمران قد بلغ من الكبر عتياً.

مولد موسى

وفي اليوم الذي أراده الله بدأت "يوكابد" تشعر بآلام الولادة، فأرسلت ابنتها "مريم" في طلب صديقتها "الثقة" لكي تساعدها في لحظات ولادة هذا الطفل؛ وبالفعل جاءت المرأة ولم يقعدها الخوف من تهديدات فرعون وجنوده أن تغيث من استغاثت بها، فقامت بمهمتها على الوجه الأكمل، وها هو المولود ملفوف بلفافة متواضعة بين يديها ..

---

(1) الإلهامَ والرؤى والخواطرَ أمورٌ لها وجودٌ ثابتٌ في حياة الصالحين والصالحات، وهي مع وجودها ليست من أدلة الأحكام المستقلة؛ لأن الظنَّ يتطرق إليها والأوهام تختلط بها كثيراً، وما هي إلا للاستئناس بها عند عدم معارضتها للكتاب والسنة، كما أنها سلوى المؤمنين عند الشدائد، فعن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن قولهِ تعالى : ﴿ **لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا** ﴾ قال: "**هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له**" رواه الترمذي في سننه برقم 2275.

انظر إليه .. إنه خمري اللون، واسع العينين لا يراه أحد من الخلق إلا ألقى الله محبته في قلبه ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي** ﴾ طه:39، وبهذا تحققت النبوءة الأولى التي رأتها أمه قبل مولده .. إنه "ذكر"، لذا ما لبثت حتى تملكها الخوف الشديد من بطش فرعون وجنوده، واستبد بها القلق على ابنها الرضيع، فضمته إليها وعيناها تذرفان دموع الخوف على مصيره؛ فألقى الله في قلبها نداءه ﴿ **وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي** ﴾ القصص:7.

ومضت الأيام تباعاً والأم متعلقة بولدها كتعلق أي أم بولدها الرضيع، زيادة أنه الطفل الذي ما تراه حتى تحبه، وسعت جاهدة ألا يسمع صوت بكائه أحد أحد الجيران، ومستعينة بالأعشاب المهدئة، وخيمة محكمة تسجيه فيها داخل غرفتها التي تطل على فرع النهر، مستعينة بصوت مياه النيل المتدفقة لتطغى على صوت صراخه إن قرصه الجوع.

كما كانت تحاول جاهدة أن تدرب نفسها على وضع وليدها في التابوت وتتركه عائماً فيه بين البوص والحشائش النابتة في اليم كما خططت، ولكن قلبها-كأم- لم يطعها في ذلك، فإنه إن نجى من الغرق فقد لا يسلم من فكوك التماسيح.

وظلت على حالتها هذه، تقضى الأيام وهي شاردة ذاهلة، ينقبض صدرها مع كل صيحة تصدر من أم ذُبح ولدها، يحدوها الأمل وهي تتسمع الأخبار، عسى أن يكتفي الفرعون بدماء المواليد التي سالت ويصدر عفواً تنتهي به تلك المحنة العصيبة، أو تُطوى الأيام طياً فيكبر ولدها بسرعة بين إخوته ولا يعرف الناس عام مولده فينجو من السكين التي تنتظره.

رفع حالة الطوارئ

وفى يوم من الأيام بوغت هامان بثورة سيده الفرعون الذي استيقظ من نومه غاضباً وأطاح بكل ما أمامه من أثاث وتماثيل ولما رآه صرخ فيه قائلاً : لقد رأيت هذه الرؤيا مجدداً ! وسيخرج من بني إسرائيل من سيسلب ملكي !

فاستجمع هامان بعض الكلمات التي حاول إرضائه بها، وانصرف من أمامه بعدما أطلعه أنه سيعطي تعليماته للجنود برفع حالة الطوارئ القصوى وتوسيع دائرة الاشتباه لتشمل تمشيط جميع

خرائب وأكواخ بني إسرائيل بلا استثناء كإجراء احترازى، فلعل الطفل "المشؤوم" وُلد وتم تخبئته في مكان ما.

هدأت نفس فرعون المضطربة .. ووافق على اقتراح هامان، وأمره بالتنفيذ.

ومع مطلع الفجر فوجئت أم موسى بعربات جنود فرعون تقتحم بيوت بني إسرائيل بكل همجية .. وقد بدى لها أن البحث عشوائي هذه المرة !

فذهلت من هول المفاجأة ولم تعد تدري ماذا تفعل .. كاد عقلها يطيش !!

ولسانها يلهج بكلمة واحدة يارب..يارب..يارب ..

أطلت مرة أخرى من شرفة بيتها .. فإذا بهم قادمون نحوها ..

وهنا يبلغ المشهد حداً بالغاً من التأزم، تُحبس فيه الأنفاس وتضطرب معه القلوب وتذهب النفوس عن الحاضر الذى تعيش فيه، لتقف وراء أم موسى تستحثها وتصرخ فيها أن تسرع لإلقاء ابنها الرضيع في التابوب العائم في اليم ..

فأسرعت الأم وأخذت ولدها الرضيع وبسرعة "قذفته" في التابوت، ثم قذفت التابوت في اليم[1]، وأصوات قرع الجنود لباب بيتها تزداد، ونداءات كسر الباب تتعالى ..

اقتحموا بيتها وقلبوه رأساً على عقب – دون مراعاة لحرمته – بحثاً عن أي مولود لها أو لغيرها تمت تخبئته في البيت .. وقفت الأم وقلبها مضطرب يحتمي بها طفلها الصغير "هارون" وتختبئ خلف ظهرها ابنتها "مريم"، والفزع يسود الموقف، إلى أن انتهى الجنود من التفتيش وانصرفوا !

فوقعت الأم على الأرض ساجدة لله الذي نجى ولدها الرضيع من هؤلاء الذباحين إذ لم يعثروا عليه؛ ثم قامت تجري نحو اليم تتعثر خطاها المضطربة من هول ما رأت، لتطمئن على ولدها ..

وإذا بالمفاجأة ! لقد نسيت أن تربط التابوت !!

فظلت تلتفت يميناً ويساراً بحثاً عنه ..

---

[1] رُسم لنا هذا المشهد التلقائي في حركاته، السريع في عرضه، المشوق في أحداثه عندما قصه الله لموسى عند جبل الطور:﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** ﴾طه:38، فحرف الفاء يفيد السرعة والتعاقب بلا فاصل زمني.

فإذا بالتابوت قد سحبه الموج بعيداً ..

فانفطر فؤادها الذي امتلأ حباً لموسى وخوفاً عليه، وكاد قلبها يتوقف، وهى ترى ابنها عائمًا في صندوق وسط النهر، يأخذه الموج يمنة ويسرة صعوداً وهبوطاً نحو مصيره المحتوم الذى حاولت كثيراً أن تبعده عنه!

وربطنا على قلبها

﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا** ﴾ القصص:10، فضياع ابنها من يدها ترك فراغاً كبيراً في مشاعرها، وأحاسيسها.. فقد تعطلت بذهابه عنها كل العواطف التي تغذى بها الأم طفلها، من سهر عليه، ومناغاة له، واشتغال به في نومه ويقظته، وفي بكائه وصمته، وفي حركته وسكونه.

إن جوارحها كلها التي ترصدها الأم لطفلها، قد أصبحت أدواتٍ معطلةٍ لا تعمل، وهذا بدوره قد جعل فؤادها– وهو مركز العواطف والمشاعر– كياناً فارغاً، لا تملؤه إلا العواطف السلبية من قلق، وأسى، ولوعة وهذا هو السر في هذا التعبير.

فكادت تصرخ في شوارع بني إسرائيل وتفشي سرها وتقول: ضاع ولدي.. ضاع ولدي – وليكن بعد ذلك ما يكون – لولا أن ربط الله على قلبها فتحكمت في مشاعرها وعواطفها وسيطرت على انفعالاتها الطبيعية التي تصدر من أي أم ضاع ولدها المحبب إلى قلبها ﴿ **إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ القصص:10

وبعدما ربط الله على قلبها بدأت الأم تنظر إلى مصيبتها بعين الحكمة والروية، فخروجها في الشارع لتصرخ وتندب ضياع ابنها لن يحل مشكلتها؛ فأمرت الأم ابنتها أن تتعقب الطفل دون أن تُشعِر بها أحداً ..

فأم موسى وإن عرفت أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله برد ولدها إليها نافذ لا محالة؛ إلا أن عليها استفراغ وسعها في الأخذ بالأسباب، فالأخذ بالأسباب من قدر الله أيضاً.

فخرجت مريم تتعقب التابوت وتنظر إلى أين ذهب، وهل ما زال الطفل موجوداً فيه أم غدر به الماء فقلب التابوت ومات غريقاً ؟

فلما سارت في اتجاه الماء خلف التابوت .. وجدت الأزمة قد ازدادت تفاقماً ! فقد حمل الماء التابوت – بأمر من الله – وسار به حتى وصل بالقرب من أسوار قصر فرعون الساحلي[1] من ناحية المرفأ الملكي !

فتوقفت مريم بالقرب من هناك تتسمع –دون أن يراها أحد– ما سيحدث!

موسى في حفظ الله ورعايته

اقترب التابوت ببطءٍ من ناحية المكان الذي تسبح فيه آسية كل صباح؛ فرأته آسية فأمرت الجواري اللائي يحطن بها أن يأتوها به، فأسرعن نحوه وأحضرنه إليها.

فلما فتحته وكشفت عن وجهه، داعبتها غريزة الأمومة، وألقى الله محبته في قلبها، فجعلت تطوف به وهي فرحة مسرورة، مع أنها امرأةُ مَن تجرَّد مِن كلِّ مشاعرِ الرحمةِ ومعانِي الإشفاقِ!

ثم اصطحبته معها إلى جناحها الملكي، ودست سبابتها في فمه وهي تداعبه وتناغيه، إلى أن يأتوا له بمرضعة .. فذاع الخبر في القصر، وانتشر نبأ الرضيع حتى وصل إلى فرعون ..

فأسرع فرعون — وحوله بعض حرسه — إلى غرفة آسية، لينظر ما يحدث !

وهنا تتحرك أحداث القدر إلى غاياتها، ولسان حال القدر يقول: هذا هو الطفل الذي تبحث عنه يا فرعون قد جئنا به إليك، فأرنا قدرتك على العبث به، وسنريك قدرتنا في الحفاظ عليه.

أخذ فرعون الطفل من يد آسية .. ونظر إليه بامتعاض .. ثم نظر لزوجته وقال:

أهذا هو الطفل الذي جلبه الماء إلى مرسىَ القصر ؟

فقالت له: نعم .. إنه هو

فأمر فرعون حرسه أن يستدعوا الذباحين ليقتلوه ..

---

[1] كان لفرعون مصر أكثر من قصر، أحدهم كان يطل على (بحر مويس) وهو فرع من فروع نهر النيل، يخترق أراضي محافظة الشرقية وعاصمتها الزقازيق ويمر على قريتي (كفر هربيط)، ويتجه إلى (كفر صقر)، ويصل حتى (صان الحجر) عاصمة مصر أيام الفراعنة وبها معبد رمسيس الثاني، وقيل إن (بحر مويس) هو النهر أو اليم الذي ألقت فيه أم موسى لذلك سمي بحر مويس نسبة إلى سيدنا موسى.

فصرخت آسية من أعماق قلبها الذي امتلأ بحب الطفل وكأنه ولدها فقالت:

لا لا .. إنه ولدي .. ولدي وكبدي وقرة عيني ﴿ **لَا تَقْتُلُوهُ** ﴾ وجذبت الطفل من يده وضمته إليها.

فتطلع فرعون إلى امرأته في عجب ودهشة..!!

فلم تمهله حتى ينطق بالأمر القاطع، فقالت متوددة ومستعطفة ومسترحمة لنفسها التي تعلقت بهذا الطفل: ﴿ **لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**[1] ﴾ القصص:10، فإن ولداً واحداً تدعه لي، من بين المئات الذين أرقت دماءهم، وأزهقت أرواحهم؛ لا يقدم ولا يؤخر في الأمر الذي تبتغيه.

فوقعت هذه الكلمات من قلب فرعون موقعاً لما لها من مكانة عنده، فمثل آسية لا يرد لها طلب فهي أحب زوجات فرعون إلى قلبه؛ لذا نزل على رأيها وترك لها الطفل تشبع به جوع أمومتها، ثم تركها وانصرف ..

فجلست تلاعبه وتناغيه وأعلنت أنها ستسميه موسى[1]، كما أمرت بالإسراع في جلب مرضعة له؛ ومن هذه اللحظة أصبح لهذه الصِّديقة دورٌ هام في حياة موسى عليه السلام، فلقد أحاطته برعايتها وشملَتْه بعطفِهَا وحنانِها، فسبحان من رقق قلبَ زوجة فرعون على موسى لتكون له أماً بعد أمه ! وجعل النهر ساعي بريد يحمل إلى فرعون طرداً فيه الطفل الذي يبحث عنه، لكي يربيه في قصره.

أخت موسى والحس والأمني

كانت أخت موسى في هذه الأثناء قد تسللت في خفّة ولطف تحوم حول قصر فرعون تلتقط الأخبار المتناثرة من أفواه القوم ولا تستخبرهم عنها، تستقرأ الحركات والإشارات، وتتأول الرموز

---

(1) قوله تعالى: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» أي تركوا الوليد، واستثنوه من الذبح، وهم لا يشعرون بما سيأتيهم من ورائه، وفى هذا تطمين لتلك النفوس المشفقة على موسى الرضيع والتي لم تشهد عن بعد ما يكون صنع الله به.

(1) موسى اسم علم أعجمي، وقد ورد في اشتقاق كلمة موسى أنها اسمٌ مركب من كلمتين هما " مو: شا"؛ و"مو" اسمٌ للماء في اللغة المصرية القديمة، و"شا" بمعنى الشجر، وقيل أنه سُميَّ بهذا الاسم لأنه وجد حيث ألقته أُمه في النهر بين ماء وشجر، فسمي بابن الماء أو الملتقط من الماء.

والألغاز في حيطة وحذر حتى لا يفتضح أمرها وأمر الوليد معها، كل هذا يحدث ﴿ **عَنْ جُنُبٍ**﴾، فهي لم تكن تتلقى أخباره لقاء مواجها، وإنما كانت تتلقاها عرضاً، كأنه من غير قصد! ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ القصص:11، فأي شجاعة كانت تمتلكها، وأي عقل راجح كان عقلها !

وقد "**كان من الممكن أن يرى القوم أخت موسى وهى ترقبهم فيتم القبض عليها وينتهى الأمر، ولكن كيف لهم أن يروها بأبصارهم، وتلك الأبصار لا تتحرك ولاترى إلا بأمر الله وقدرته ؟!!**"[(2)].

وحرمنا عليه المراضع !

دب الجوع في معدة موسى، وانهمرت عيناه في البكاء وعلا صراخه حتى عكر هدوء القصر، فخافت آسية أن يجن جنون فرعون بسبب انزعاجه من صراخ موسى، فذهبت إلى المرضعة ونهرتها قائلة: لماذا لا ترضعينه ؟!

فأجابتها متعجبة من الطفل وهي تقول: إنه يرفض الرضاعة رغم أنه جائع !

فاتهمتها آسية أنها امرأة سيئة اللبن، وأخذت موسى منها محاولة أن تهدئ من روعه، وتسكن من هلعه، ثم أرسلت جواري القصر وخدمه يلتمسن له المراضع، في صور وأشكال شتّى.. إنه ابن فرعون.. وإن الدولة كلّها في خدمته وأجهزة الدولة كلها تعمل لتحقيق سعادته.

وعندئذ تدخلت أخت موسى بعدما كانت ترقب الأوضاع ﴿ **عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ القصص:11، إذ لا بأس من أن تعرض ما عندها من أفكار لعلها تروق لأعين القوم، ولعلها تحقق لهم ما يريدون ﴿ **فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**﴾ القصص:12

فلم يترددوا في قبول هذا العرض.. وأرسلوا إلى المرضعة الجديدة – أم موسى– يطلبون منها أن تأتي لترضعه، فلبت النداء وانطلقت معهم وقلبها يسبق قدميها شوقاً إليه وفرحاً برؤيته، ولكنها كانت تذكر نفسها بضرورة ضبط مشاعرها وانفعالاتها عندما تراه حتى لايُشك في أمرها ..

---

(2) نقلا من كتاب الوعد الحق، د. مجدي الهلالي ص18.

فلما وصلت القصر رحب بها الجميع وأبصارهم ترقبها .. هل ستنجح في إرضاعه أم سيأبى الرضاعة كما فعل مع السابقات ؟

ولكن المفاجأة .. أنه ما إن شعر موسى بدفء أمه، واشتم رائحتها حتى أقبل على ثديها والتقمه بنهم؛ فلقد كان للرضعات التى أرضعتها له أمه أثراً مهماً في معرفته لها وتمييزه لرائحتها من بين كل المرضعات، ولما شبع من الرضاعة عاد وجهه مشرقاً، وعلت ثغره اللطيف ابتسامة أشرق لها القصر الذي قد عكر صفو هدوئه بصراخه المتواصل، ثم نام في يسر!

ففرحت الجواري بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى امرأة فرعون، فاستدعت أم موسى، وقالت لها: من أنت ؟! فقد أبى موسى كل ثدي إلا ثديك ؟!

فقالت أم موسى: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا يؤت لي برضيع إلا قبلني.

فأحسنت آسية إليها، وأعطتها مالاً كثيراً – وهي لا تعرف أنها أمه– وأمرت أحد رجال الملأ أن يهيئ المكان الذي تعيش فيه مع موسى لترضعه وتربيه لها؛ كما تكفلت آسية بنفقاته إضافة إلى أجر كبير تأخذه "يوكابد" نظير عملها كمرضعة، على أن تأتيها به يومياً لتطمئن عليه وتجلس معه بعض الوقت.

وبذلك رجعت أم موسى بابنها راضية مرضية، وعاش موسى مع أمه في حماية فرعون وجنوده، تحت رعاية الله وعنايته، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا يوم وليلة، فسبحانه – عز وجل – وعد فأوفى؛ وعد الله أم موسى بأنه سيرده إليها، وأوفى بوعده ﴿ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ** ﴾ التوبة:111.

فقد أجرى الله الأحداث بهذا الشكل العجيب لكى يرده إليها كما أخذه منها ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ القصص:13

فما الصندوق والنيل وامرأة فرعون والمرضعات ومشاهد القصة كلها إلا جنود لله يتحركون بأمره وينفذون مشيئته سبحانه وتعالى.

ثم يغلق الستار على هذا المشهد بعدما أوفى الله بوعده الأول لأم موسى وهو ﴿ **إِنَّا رَادُّوهُ إِليكِ**﴾ لتبدأ أحداث أخرى جديدة تدفع بموسى نحو صناعة ربانية فريدة ليتحقق لها الوعد الثاني ﴿ **وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ فيكون من الرسل والنبيين.

موسى بين تربيتين !

كبر موسى بين ظهراني القوم فصار طفلاً ثم صبياً؛ وكان من ذكاء أمه أنها أسقته جرعات مضاعفة من الحنان فتعلق بها وبالجلوس معها أكثر من تعلقه بقصر فرعون وما فيه !

فلقد كان من تدبير الله أن يبتعد موسى عليه السلام عن بيئة بني إسرائيل الذليلة المريضة المهينة؛ فقد بلغوا من الذل والخضوع حدَّ أن يأتي الشرطي من جنود فرعون وينتزع الرضيع من يدي أمه ويقتله ذبحاً أمام عائلته، دون مقاومة !

لذلك لم يتركه الله ينشأ في هذه البيئة الذليلة؛ فيُذَل مثلهم في سجن، أو يقهره تحكم أصحاب الملك والسلطان، فالحياة في ظل الطغيان ضارة بالنفس، دافعة لقبول الضيم والذل والخضوع.

وقدّر الله له أن يشِب في قصر فرعون ليذوق طعم العزة والكرامة، ولينشأ قوي القلب شجاعًا، ثابت الجنان، لما يصطبغ به مما حوله من عظمة وشموخ وكبرياء وعلم وشجاعة ..

كما كان من تقدير الله أن يشِب موسى في قصر فرعون ليُزيل الله من قلبه مهابة الملوك والأمراء، فقد أراه بعينيه فرعون بشراً –لا إلهاً، ولا أسطورة، ولا شيئا رهيباً– رآه كسائر البشر، يفرح ويحزن، يفزع ويغتم، يتألم ويمرض، يقوى ويضعف !

فلم يعتقد فيه ما يعتقده أولئك الأذلاء من سطوة وجبروت وسلطان وصولجان!!

كما نشأ موسى بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان كما ينشأ أبناء الملوك، فتعلم كيف يتكلم كأمير، وكيف ويمشى كأمير، وكيف يأكل كأمير، فهو يدعى الأمير موسى بن فرعون.

ولئلا تكون تلك العظمة هي الأغلب عليه، فيكون مستكبراً طاغياً، حرم الله عليه المراضع فلم يقبل إلا ثدي أمه؛ ليرضع منها العطف على بني إسرائيل والرحمة بأمته وشعبه، وليتعلم منها البساطة والتواضع وأهمية الشعور بالآخرين، ومساعدة المحتاجين واغاثة الملهوفين، وعدم الرضى

بالظلم والسعى بكل قوة لمقاومته ورفعه عمن وقع عليه، ولعلها كانت تُسمعه قصصاً من بينها قصة يوسف النبي الصديق الذي ما زال المصريون يحمدون صنيعه بهم بعدما أنقذهم من أزمة اقتصادية طاحنة، وأن هذا النبي هو جد أولادها ..

وبذلك نجحت أم موسى بإمكانياتها المتواضعة أن تربط ابنها بها، حتى لا تلهيه مظاهر الترف التي في قصر فرعون عنها؛ كما نجحت في أن تنتقل من كونها مجرد "مرضعة موسى" إلى حاضنته ومربيته، بعدما كادت مهمتها تنتهي بعد فطامه، وكلما شب موسى غرست فيه أمه قيمة جديدة، وجعلته يتعلق بها أكثر وأكثر ..

موسى يعرف الحقيقة

أتى اليوم الذي تسآل فيه موسى بإلحاح عن سر تسميته بهذا الإسم تحديداً ؟

فأجابته آسية بما تعرفه

تلك الإجابة التي لم تروي فضوله الذي جعله شارد الذهن دائما يفكر في أهله الذين لا يعرفهم حتى الآن، حتى قطعت "يوكابد" تفكيره بلمسة يدها اليابسة على خده، قبل أن تحتضنه.

- ما بك يا موسى ؟
- أريد أن أعرف من أنا، ما هو أصلي وفصلي، لماذا ألقاني أهلى في الماء وتخلو عني ؟

قالت: والله ما ألقوك برضاهم ولا تخلوا عنك.

- أتقسمين على غيب لا تدركيه ؟

سكت لسانها عن الجواب، فضاقت عينا موسى ومال رأسه:

- أنت تعرفين من أنا؟ أليس كذلك ؟

غاصت عيناها الدامعة في التراب ولم تجبه .. فأمسك كتفيها برفق قائلاً:

- لقد عشت في هذا القصر سنين قبل أن أدرك أنني غريب عن أهله، الذين انتشلوني من الماء الذين ألقاني أهلي فيه، وعطفت عليّ سيدة القصر "آسية" واتخذتني ابناً لها على غير رغبة من فرعون، فمن أنا ؟

إزداد بكاء أم موسى قائلة له:

سامحني يا بني، فالأمر لم يكن يوماً بيدي، لك أن تعرف يا بني أنك لست لقيطاً لا أهل له، بل أنت من أحفاد يوسف عليه السلام، أنت سليل بيت النبوة، جدك خليل الله إبراهيم.

تعرق وجه موسى، وتلاحقت أنفاسه ..

- فمن هو أبي ؟

فقالت: هو عمران زوجي ..

ضم موسى جسدها الهزيل إلى صدره ضمة حانية، وأجلسها بجواره لتقص عليه القصة بتفاصيلها، فلما قصت عليه القَصص .. سألها: هل أبقى في قصر فرعون؟

فأجابته: نعم؛ ابق كما أنت، لأن فرعون لو علم بالخبر سيلحقك بإخوانك الذين ذُبِحوا من ذكور بني إسرائيل، وارفع الظلم ما استطعت عن بني إسرائيل، إلى أن يأذن الله بزوال الغمة، ويجمع شملنا جميعاً خارج مصر.

موسى المربي والمُعلم

ولما بلغ موسى سن الرشد واشتد عوده، واستوى واكتمل بنيانه، كُلف بالعمل رئيساً للعمال من بني إسرائيل، ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ القصص:14، فكان يحسن إليهم ولا يشق عليهم كغيره من أمراء القصر، وكان لا يجرأوا أحد من المصريين أن يستعبد بني إسرائيل أو يستذلهم في حضوره؛ لذا أحبوه حباً شديداً، وتطلعت آمالهم فيه خيراً.

وتكشف الأحداث القادمة أنه اصطفى منهم صفوة يعلمهم دين أجدادهم يوسف ويعقوب وابراهيم، ليعود بهم إلى المعين الصافي لينهلوا سوياً منه – بعدما أفسد فطرتهم فرعون ونظامه – ويُكَوِّن بهم ظهيراً شعبياً يقف به أمام فرعون في الوقت المناسب مطالباً بحريتهم.

فلا عز للأمة إلا بأن تكون كل قواها مجتمعة ومتضافرة ومتناصرة تسعى إلى غاية واحدة تحت قيادة واحدة تقيم الحق فيها، وتؤلف بين أفرادها بالأخوة في الله، وتوجهها وجهة العمل لإعزاز دين الله، وإعلاء كلمة الله.

وبدأت هذه الجلسات السرية التي كان يعقدها موسى عليه السلام مع أقرانه من بني إسرائيل بمساعدة شقيقه الأكبر "هارون" تؤتي ثمارها، فقد ربى موسى هذه الصفوة على الحرية التي هي الترجمة الحركية لقولهم لا إله إلا الله، والتي تلزم المسلم ألا يُخضع رقبته لأحد سوى الله، كما رباهم على الوقوف ضد الظلم فهم أحفاد إبراهيم عليه السلام الذى تصدى وحده لجبروت النمرود ..

فالشعوب إذا استمرأت الظلم ورضيت بالهوان وغلب عليها الخوف؛ أعطت الطاغية فرصة وشجعته على الاستمرار والزيادة في البغي و"**إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب الله لها الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة**"[1].

فالناس من خوف الموت في موت، ومن خوف الذلة في ذلة، فإن أحبوا الموت في سبيل عزتهم وحريتهم، وإن باعوا أنفسهم وبذلوها في سبيل الحق وحماية الديار، وعرضوها لكل مهانة – يتوهمونها– في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحياهم الله أقوى الحياة وأعزها ، "**فأعدوا أنفسكم ليوم عظيم، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة، واعلموا أن الموت لا بد منه، ولا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة**"[2]﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ البقرة:243.

وقد استطاع موسى عليه السلام خلال هذه الجلسات التربوية أن يضع يده على موضع المرض عندهم؛ ليعالجه فالعلاج يبدأ من النفس، ولأن المرض هو في النفس ذاتها، فإن الله تعالى جعل إرادة التغيير مرتبطة بالإنسان نفسه، فإذا أراد الشعب أن يتحرر فلابد من أن يقهر الخوف في داخله، وبالتالي تأتى إرادة الله تعالى تالية ومؤكدة لإرادة الشعب ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى**

---

(1) كتاب الرسائل – رسالة الجهاد – حسن البنا.

(2) المرجع السابق.

﴿ **يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ الرعد:11، فالشعب إذا قام بتغيير نفسه من الخوف والخنوع؛ إلى الشجاعة والمواجهة والصبر، فإنه لابد أن يقهر الحاكم ويحوله إلى خادم له، فتلك هي وظيفته الحقيقية.

ومن هنا يحرص الحاكم المستبد على مطاردة الأفكار التي تنتج وعياً بالحقوق، والتي تشجع الشعب على أن "يغيّر" الخنوع إلى شجاعة وإقدام واستهانة بالموت في سبيل حياة كريمة.

عالج موسى عليه السلام خلال هذه الجلسات ما اعترى نفوسهم من الجبن وخور العزيمة، وفقدان الشجاعة والشهامة، جمع قلوبهم المتنافرة، وقوى أخّوتهم الضعيفة؛ فحياة الأمم بقوة الحيوية في نفوس أفرادها، وبما يتأجج في قلوبهم من الحماسة والغيرة على دينهم وأوطانهم، وبما يجري في دمائهم من أخوة وشهامة.

ولكن كشأن أي عمل سري يعمل لنصرة الدين وإحياء مبادئه في النفوس، أن يعتريه الخطأ أو يُختار فيه من لا يستحق هذا الشرف؛ فذات يوم -كعادة موسى— تخير وقت غفلة فرعون وعيونه ﴿ **وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا** ﴾ القصص:15، متخفياً إلى المكان الذي يلتقي فيه أشياعه وأنصاره الذين اختارهم بعناية من بني إسرائيل ليعلمهم ويربيهم؛ وإذا به في الطريق يجد ﴿ **رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ** ﴾.

المفاجأة أن أحدهما من المجموعة التي يربيها ﴿ **مِنْ شِيعَتِهِ** ﴾ مناصري فكره وأخلاقه ومبادئه؛ وكان يتشاجر مع أحد رجال دولة فرعون من أصحاب القوة والسلطان ﴿ **وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ وظاهر الأمر أن المصري كان صاحب حيثية تعطيه الحق في دولة فرعون العسكرية أن يضرب من يشاء وأن يقتل من يريد؛ فقد كان من طوائف الملأ الفرعوني في حواري العاصمة جماعات تحترف الاستطالة على الناس، وقد أعطاها الفرعون تلك السلطات ليفعلوا ما يشاءون خاصة مع بني اسرائيل دون حساب أو معاقبة.

فاقترب موسى منهما وسياط الضرب تنهال كالسيل على تلميذه الذي من شيعته، فلما رآه صاح مستغيثاً به طالباً منه أن ينجيه من العذاب الذي ينزل عليه من المصري ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ القصص:15.

موسى يقتل المصري

فدخل موسى بين الرجلين، ليدفع عن الإسرائيلي هذه اليد التي تسومه سوء العذاب، وطبيعي أن يتصدى المصري لموسى، وأن يعدّ ذلك فضولاً منه بالتدخل فيما لا يعنيه، فكان بين الرجلين- موسى والمصري- شدّ وجذب، بل ربما مد المصري يده إلى موسى !

﴿ **فَوَكَزَهُ مُوسَى** ﴾ بقبضة يده في صدره ..

تلقى المصري الضربة فترنح قبل أن يسقط على الأرض بلا حركة !

اندهش موسى عليه السلام، فالضربة لم تكن قوية لدرجة قتله ! فانحنى على صدر الرجل، ووضع يده على أنفه فلم يستشعر الأنفاس ! فقلبه يمنة ويسرة .. فإذا بالرجل قد مات !

فهرب موسى إلى حيث لا يراه الناس، وجلس يستغفر الله من ذنبه وخطيئته ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** ﴾ القصص:16، فإنه وإن كان قتل «خطأ»، فهو على كل حال ذنب، وذنب عظيم في حق من يُعد للنبوة؛ ولكن مغفرة الله فوق كل ذنب وإن عظم، لمن تاب وأخلص التوبة وطلب المغفرة ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ النساء:110

ثم نظر موسى إلى جسده ويديه التي وجد منهما قوة لم يكن يتوقعها فقال: ﴿ **رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ على فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ** ﴾ القصص:17

فهو بهذه النعمة التي أنعم الله بها عليه يملك قوة جسدية خارقة، وإنه ينبغي- لكي يرعى هذه النعمة، ويؤدي حق شكرها لله- ألا يستخدمها إلا في الخير، وألا يظاهر بها الأشرار المعتدين، فمن كمال شكر الله على نعمه ومن تمام التوبة على التقصير – أن يعزم المرء على التغيير للأفضل،

وأن يتقرَّب إلى مولاه بنيةٍ صالحة، وهِمَّةٌ عالية، وعزمٌ جديد، فيقرِّر أن يتبع تلك التوبة ويجمل ذلك الشكر بمعالي الأمور وعظائم الطاعات..

لذا قطع موسى على نفسه عهدًا راقيًا..

فهو لن يكون ظهيرًا للمجرمين، ولن يكون عونًا للظالمين، ولن يركن للمفسدين..

اتهام موسى بجريمة القتل

وظل موسى طوال الليل بعيداً عن أعين الناس حتى أشرق النهار ﴿ **فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ**﴾ القصص:18، فخرج يسير في طرقات المدينة يتحسس أخبار الفعلة التي فعلها، ويتسمع حديث الناس عنها وعمن فعلها، وذلك ليستوثق أنه غير مطالب بما حدث؛ وتلك غريزة بشرية تدفع بمرتكب الجريمة أن يحوم حولها، وإلا فماذا كان يحمل موسى على البقاء في المدينة؟

وفي أثناء سيره وجد ﴿ **الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ** ﴾ القصص:18، طالباً منه العون والنجدة، فهو في مشاجرة جديدة مع مصري آخر؛ فنظر إليه موسى نظرة غيظ وغضب، وصرخ فيه بحدةٍ قائلاً: ﴿ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ** ﴾ القصص:18.

فكثيراً ما أكد عليهم موسى في جلساته السرية التي عقدها معهم أن المعارك الجانبية ضد من يظلمونهم، ستثير الثائرة على بني إسرائيل وهم عن الثورة الكاملة في هذا التوقيت عاجزون، وعن حركة التغيير المثمرة ضعفاء؛ وما عليهم في هذا التوقيت إلا أن يعمقوا إيمانهم، ويوحدوا صفهم ويجمعوا قوتهم لساعة الصفر التى سيعلو فيها نجم الإيمان ويرفع للعدل علماً يخفق في البلاد.

لذا تردد موسى في أن يفض هذا النزاع ويتركه ويمضي إلى سبيله، فهو يخشى من وقوع قتيل جديد بسبب يديه القويتين[1].

فما لبث إلا أن اندفع نحوهما متحفزاً رافعاً قبضة يده ﴿ **فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما** ﴾ القصص:19، ترك الإسرائيلي المصري خوفاً من موسى وانزوى بعيداً يخبئ وجهه بين

[1] يظهر هذا التردد في وصف الله له قائلاً: ﴿ **فَلَمَّا أَنْ أَرادَ** ﴾، فكان من الممكن أن يقال "فلما أراد" لكن وضع كلمة "أَنْ" هنا لتدل على مدى تردده..

ذراعيه ظاناً أن موسى قادم لضربه، ثم قال: ﴿ **أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ** ﴾ ؟! القصص:19.

فتوقف موسى مكانه، وأحنى هامته، وشحب لونه، ودارت الدنيا به ..

فقد أفشى هذا الغبي ما كان من أمره بالأمس أمام هذا الجمع من الناس!

الأمر الذي لم يتوقف عند هذا الحد المتأزم، فقد رماه الإسرائيلي الثرثار بالتي هي أشد فقال: ﴿ **إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ القصص:19، فأفشى السر الثاني وهو الأخطر؛ سر جلساته التي كان يعقدها مع بعض أقرانه من بني إسرائيل يعظهم فيها ويقول: إنه يريد إصلاح أوضاعهم، وأنه واحد منهم !!

اكتشاف حقيقة موسى

سمع المتجمهرون في منطقة الإشتباك هذه الأخبار الخطيرة، فتناقلوا الخبر وأحاط بموسى الخطر، وتعالت همهماتهم وهم يحملقون في موسى مندهشين ! أأنت من قتل المصرى بالأمس نصرة ومحاباة لبني إسرائيل ؟!

تركهم موسى وانزوى بعيداً عن أعينهم المصوبة نحوه ..

أما الرجل المصري فقد أسرع الخطى بهذه الأسرار الخطيرة نحو قصر فرعون الذي ما زال في حالة انعقاد دائم منذ أمس بسبب غياب موسى بن الفرعون، ولمقتل "أحد رجال القصر" في ظروف غامضة!

ولما وصل إلى قصر فرعون وأدلى بما سمعه من كلام الإسرائيلي عن موسى؛ تشاور الملأ من رجال القصر في هذه المصيبة التي نزلت عليهم، فالطفل الذي قتلوا في طلبه الآلاف هو موسى الذي تربى بينهم، والمصيبة الأكبر أنه كان يتردد على بني إسرائيل سراً في بيوتهم يعظهم ويحدثهم في الإصلاح والتغيير ليقودهم لثورة ضد الفرعون ونظامه ؟!!.

نصيحة من فاعل خير

وفي أثناء هذا الاجتماع الذي سيسفر لا محالة عن تدبير مذبحة جديدة لبني إسرائيل عامة ولموسى خاصة؛ علم أحد جنود فرعون بما يدبر لموسى عليه السلام فخرج بهذه الأخبار يمشي مسرعاً ﴿ **وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى** ﴾ القصص:20، دون أن يلفت الأنظار، لتسبق خطاه تدابير الملأ وتحركات جحافل الجنود، محذراً موسى مما يُكاد ضده.

وهنا ينبغي أن نقر بأن المصريين في كل العصور لم يفتقروا إلى وجود رجال شرفاء يناصرون الحق وأهله حتى في أحلك عصور الطغيان؛ فهذا البطل المصري عرض نفسه للخطر كي يُنجي موسى، وهو ليس على دينه؛ إذ إن الرجولة لا يشترط لها إسلام ولا إيمان ولا حتى توافق في الأفكار، فالقاسم المشترك بينهما أنهما يرفضان الظلم! وقد قدم الله صفة الرجولة عندما قص علينا قصته على صفة السير – بخلاف مؤمن ياسين- لأن رجولته في نصرة الحق سجية فيه كررها مراراً.

فلما وصل "الرجل" إلى المكان الذى علم أن موسى مختبأً فيه ﴿ **قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ** ﴾، بعدما اكتشفوا حقيقة أمرك وما كنت تسعى وتخطط له؛ ﴿ **فَاخْرُجْ** ﴾ من مصر ﴿ **إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ القصص:20.

هيا .. قم بسرعة .. فالوقت يمر .. اسلك طريق الصحراء، واتجه إلى أي بلد تضعف فيها قبضة فرعون لكيلا يلاحقوك هناك ..

الشرطة تبحث عن موسى

أخذ موسى بنصيحته؛ فخرج نحو الصحراء مسرعاً ..

لم يستطع أن يودع أمه وإخوته، ولم يستطع حتى أن يأخذ دابة يركبها أو زاداً يتقوت به، فشوارع المدينة وأزقة بني إسرائيل عجت بجنود فرعون الذين يبحثون عنه ويطلبونه حياً أو ميتاً إرضاء لفرعون وملئه، فموسى من اليوم لم يعد ابناً لفرعون[1]، بل صار أكبر عدو له.

---

[1] كان من عادة الفراعنة أن يدوِّنوا تاريخ ملوكهم وقصص انتصاراتهم وهزائمهم على جدران المعابد، إلا أن علماء الآثار الأوروبيون لاحظوا حديثًا أن هناك نقوشًا قد أزيلت من جدران بعض المعابد الفرعونية بشكل يبدو عليه أنه متعمد، الغريب في الأمر أن علماء الآثار لاحظوا أيضا أن الفراعنة حاولوا إخفاء تلك التشويهات على جدران معابدهم بإضافة نقوشٍ جديدة، فلم يحتج هؤلاء العلماء حتى لاستخدام "الكربون المشع" لاكتشاف زيف هذا التحريف، فلقد كانت النقوش الجديدة التي حلت محل النقوش القديمة بارزة بشكل فاضح للعيان، فلا سياق التاريخ ولا نوعية اللغة ولا مادة البناء كانت متناسقة مع بقية الهيكل البنائي، فلما راقب علماء الآثار سياق النقوش، استنتجوا أن هذه النقوش المحرفة استخدمها الفراعنة القدماء لإزالة نقش محدد لاسم معناه بالهيروغليفية القديمة "ابن الماء"،

على طريق الابتلاءات

فخرج منها خائفاً يترقب كلما مر بقافلة أو ركبان في طريقه غطى وجهه وانحرف بعيداً عنهم، خشية أن يكونوا من أجناد فرعون أو حلفاؤه الذين يبحثون عنه بعدما أصبح على رأس قائمة المطلوبين، ولسانه يلهج بالدعاء قائلاً: ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ القصص:21

خرج موسى من مصر فاراً من موت محقق على يد جنود فرعون إلى موت محتمل في صحراء مصر الواسعة، إذ ليس معه مايدفع به دوابها المفترسة، ولا ماءً كافياً يروي به ظمأ شمسها المحرقة، ولا أنيس ولا جليس يستأنس به في هذا الطريق الموحش !

إنه في حيرة من أمره، فهذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها من مصر، ولا يدرى إلى أين تسوقه قدماه في هذه الصحراء الشاسعة، ولا ما سيلقاه في هذه الغربة الموحشة من أحداث؛ والأمور تزداد تعقداً، ولكن عزاءه الوحيد هو غنيمته بالبعد عن فرعون وبطشه !

ظل يجري ويجري حتى ابتعد تماماً عن المدينة التي خرج منها، ثم ألقى بجسده على الرمال من فرط الإجهاد، وشخصَ بعيناه إلى السماء يفكر في سر هذا الإبتلاء المفاجئ !

ولكنها طبيعة طريق الأنبياء والمرسلين والمصلحين ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ البقرة:214.

ثم بدأ يفكر ويستعيد بذاكرته ما تعلمه في قصر فرعون عن حدود مصر الجغرافية، فهو يريد الآن أن يذهب إلى مدين؛ لأنها أقرب بلد لمصر من خارج حدودها، وليس لفرعون وملئه سلطان على من فيها، ولكنه في ذات الوقت لا يعرف كيف سيهتدي إلى طريقها في هذه الصحراء الواسعة ؟.

فكلمة "ماء" بالهيروغليفي تعني "مووء"، وكلمة ابن تعني عندهم "سي"، فكان اسم ابن الماء هو الاسم الذي أطلِق على طفلٍ التقطه الفراعنة من ماء النيل، هذا الطفل هو نفسه ابن الماء "موسى"! فالفراعنة أمروا بإزالة كل نقش كان قد نُقش عن (موسى بن فرعون)، بعدما تحول في نظرهم إلى (موسى عدو فرعون).

وهنا كان دعاؤه إلى ربه أن يهديه سواء السبيل، ويقيم خطوه على طريق الأمن، ويدفع به إلى شاطئ السلامة، ﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ القصص:22، فاستجاب الله دعاءه ورحم كسرة قلبه، وهداه إلى أقرب الطرق إليها.

موسى يلجأ إلى مدين
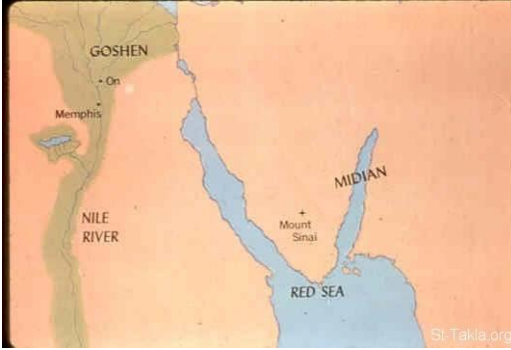
وبعد ثمانِ ليالٍ قضى موسى بعض ساعاتهن نوماً في المغارات والكهوف، وقطع في باقي الوقت كل هذه المسافات الشاسعة سعياً وجرياً ومشياً على رمال الصحراء، يقتات من بعض النبات والعُشب سداً لجوعه حتى بدأت معالم مدينة "مدين" تلوح له من بعيد [1].

وها هو الآن وصل إليها منهكاً متعباً، قد أعياه الجوع وغُبِرَ وجهه بتراب الصحراء، وتقطع نعله من كثرة المشي، ليبدأ رحلة جديدة في بلد مجهولة المعالم بالنسبة له، لا يعرف فيها أحداً يؤيه أو يطعمه ويسقيه .. فهو كالراكب الذي قفز من سفينة غرقت، وألقت براكبها في الماء، فكان أسعدهم حظاً من وضع رجله على اليابسة، ولو كان في مورد الوحوش!

لذا تجده يرقب الأحداث في هذه البلد بتأنٍ شديد غير معهود على شخصيته الانفعالية المندفعة[1]، فقد تعلم من أخطائه السابقة؛ إذ أدى اندفاعه مرة إلى أن قتل، وفي المرة الثانية ظن تلميذه الغبي أنه يريده فأفشى كل الأسرار!!

أما الآن فهو يرقب الأحداث بتأنٍ ورويةٍ شديدةٍ رغم ما يراه على بئر مدين من غرائب وأمور تنكرها الفطرة السليمة.

موسى وماء مدين

---

(1) تقع مدين شرقيّ نهر الأردن, في السفح المطل على فلسطين قبالة أريحا, حيث المكان المسمى بوادي شعيب حاليا.

(1) ولم تكن انفعالية موسى عليه السلام صفة سلبية فيه، بل على العكس من ذلك؛ لقد كانت ضرورية وحتمية يتوجب وجودها لأداء مهمة الإصلاح في قومه لِما فسد من فطرتهم وطباعهم، ولمواجهة بطش فرعون وتألهه على الخلق، ليهز بقوته النفسية وانفعاليته وحدته، كبرياء فرعون وثقته في نفسه.

تمشّى موسى حتى وصل إلى بئر واسعة الفُوّهة يتزاحم حولها الرعاة بإبلهم وغنمهم ويحملون الماء منها إلى خيامهم، ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليه أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ** ﴾ القصص:23، وقد كانوا قرابة الأربعين رجالاً غلاظ شداد تفتقر وجوههم إلى الرحمة، يتدافعون على البئر لكي يسقي كل منهم قبل أن يعكر صفو الماء الأوائل الذين قال في مثلهم **عمرو بن كلثوم** شاعر تغلب:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ولكن ما أثار دهشة موسى أنه وجد بعيداً عن هذا الزحام امرأتين تدفعان وتحوطان على غنمهما لكي لا يدخلا على غنم الرجال ﴿ **وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾القصص:23، فاستوقفه خروجهن في مثل هذا المكان المزدحم بالرجال، رغم ما عليهما من سمات العفة والشرف!

فتقدم نحوهما يمشي حتى وصل إليهما وسألهما مستغرباً: أي حدث جلل جعلكما تخرجان من بيتكما في هذا المكان المزدحم بالرجال ؟!﴿ **ما خَطْبُكُمَا** ﴾.

فأجابتا عن السبب بكل أدب فقالتا: إن لدينا من الأدب والحياء ما يجعلنا لا نزاحم الرجال في السقيا، فنصبر حتى ينتهوا ثم نسقي نحن ﴿ **لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾، وما دفعنا لذلك إلا كبر سن والدنا فهو شيخ كبير، وليس في بيتنا من يعولنا.

فلما علم سبب خروجهما وحاجتهما لرجل يقوى على مزاحمة الرجال، ثارت نخوته ومروءته – التي ماتت عند الأخرين– فقلد كان من الأجدرَ بالالتفات لهاتين المرأتين ذوو القرابة والعشيرة من غريب لا يعرفهما ولا تلحقه بتركهما ملامة !

ولكنه على كل حال ندب نفسه ليسقي لهما، فمن كان في حاجة الناس كان الله في حاجته ومن فرج عن أحدهم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة[2].

موسى يرفض الصدام

---

(2) هذا مجمل حديث نصه " **من نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا ، نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ . ومن يسّرَ على معسرٍ ، يسّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ . ومن سترَ مسلمًا ، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ . واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه**" رواه مسلم برقم 2699 من حديث أبي هريرة.

ولكنّ موسى عليه السلام وجد نفسه قد يقع في مأزق صدامي جديد في بلد لا يعرفه فيها أحد، فهو لايريد مزاحمة الرجال عند البئر تجنباً لأي شجار قد يحدث معهم –كعادة أي طابور وزحام- بعدما أيقن أن ضربته قاتله!

فسألهما: هل توجد عين ماء أخرى غير هذه في هذا المكان؟

فقالتا: توجد عين ماء في مكان كذا، ولكن وقعت عليها صخرة عظيمة من الجبل فلم يقو من يومها الرجال على رفعها.

فذهب موسى إلى تلك الصخرة، واستجمع قواه التي خارت أثناء سيره في الصحراء، وتمكن بقدرة الله من إزاحتها عن البئر[1] وسقى لهما.

﴿ **فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ** ﴾ القصص:24، دون أن ينتظر مديحاً منهما على قوته، ولا شكراً على صنيعه، ولا مكافأة بطعام سداً لجوعه، بل ﴿ **تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ** ﴾ القصص:24.

ويالها من صورة تستحق من الشعراء والروائيين الوقوف عندها طويلاً؛ فما كان أحوج موسى – في نظر قومٍ – إلى استغلال هذا الموقف وهو الجائع المطارد الهارب من بلد إلى بلد – بل من قارة إلى قارة[2] أخرى – إلى شيء من طعام يسد جوعه، لكن أخلاق المصلحين ومن قبلهم النبيين تأبى ذلك كله وتجنح بأربابها من بهر الأضواء إلى سكون الظل وخفائه حيث روعة الاستكانة، وجمال السكينة، ولذة المناجاة ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾.

ما أحوج الذين أصبحت حياتهم بأدق تفاصيلها من أسفار وتنقلات وعبادات ودعوات ودمعات، وأكلهم وشربهم وصحوهم ونومهم ولقاءاتهم وزياراتهم –أصبح ذلك كله في العراء

---

[1] قال عمر بن الخطاب وشريح وغيرهما إن موسى عليه السلام ذهب إلى بئر أُخرى عليها صخرة لا يقتلعها إلا جماعة من الناس، فاقتلعها وسقى لهما"، انظر تفسير (زاد المسير ج3/ ص380) أو (تفسير المحرر الوجيز = بن عطية ج4/ ص283).

(2) تقع (مدْين) الأردن في قارة آسيا، بينما تقع مصر في الركن الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، ولدى مصر امتداد آسيوي أيضاً، حيث تقع شبه جزيرة سيناء داخل قارة آسيا.

وأصبحت حياتهم (إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس)، ويوشك أن تلج معهم كاميراتهم غرف نومهم ودورات خلائهم !

موسى يناديكم .. افعلوا المعروف وتولوا بكل ما أوتيتم حتى ذلك القلب الذي ينبض بداخلكم لا تجعلوه يتمنى الشكر والجزاء يكفيكم أن يجازيكم الكريم سبحانه وتعالى، إذا أحسنت لأي شخص فابتعد عنه، لا تحرج ضعفه، ولا تلزمه شكرك ، واصرف عنه وجهك لئلا ترى حياءه عاريًا أمام عينيك، لم يقل الله سبحانه وتعالى عن موسى ثم "ذهب" بدلاً من "تولى" لأنه تولى بكامل ما فيه.

موسى والحياة الربانية

﴿ **فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ** ﴾ يدعو ربه ويقول: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾
وهنا تجد قلب موسى متعلق بربه يناديه ويناجيه بطلب جديد للمرة الرابعة، فلقد نادى موسى ربه عندما قتل الرجل المصري فقال:﴿ **رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي** ﴾ وقد استجاب الله دعاءه ﴿ **فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ القصص:16
ثم دعاه للمرة الثانية عندما خرج من مصر خائفاً من ملاحقة جنود فرعون له فقال: ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ القصص:21، فنجا منهم ولم يمسك به أحد منهم.
ثم دعى ربه للمرة الثالثة عندما سار في صحراء مصر الواسعة لا يعرف كيف يسلك منها طريقاً سهلاً إلى مدين، فرفع يديه مناجياً ربه قائلاً: ﴿ **عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ القصص:22، فهداه ربه للطريق الصحيح وها هو الآن داخل مدين آمنا مطمئناً.
والآن يريد أي خير من طعام لأنه لم يأكل منذ عدة أيام إلا ورق الشجر؛ فرفع يديه يسبقه حسن ظنه بربه الذي استجاب له ما مضى من دعوات وأنزل عليه كل هذه الخيرات ﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إلى مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ القصص:24، فأنا فقير إلى نزول المزيد من خيراتك التي قسمتها

لي يارب؛ فاستجاب الله دعاءه، ﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى**[1] **اسْتِحْيَاءٍ** ﴾ حتى وصلت إلى حيث يجلس تحت الشجرة، فلما رآها قام ونفض عن ثيابه التراب ..

فقالت له بكلمات واضحة دون تكسر ولا خضوع: ﴿ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾ القصص:25.

إنها رسالة واضحة لا تحمل أي تساؤل أو نقاش أو ريبة، وقد سبق وعرف موسى من أمر أبيها أنه «شيخ كبير» ولو كان في استطاعته أن يسعى إلى موسى لما بعث بابنته إليه، ولجاء إليه بنفسه يدعوه إلى النزول عنده.

فأجاب موسى الدعوة وسار مع الفتاة بمحاذاتها يتقدمهما بخطوة أو خطوتين حتى وصلا إلى بيت أبيها.

موسى في ضيافة الشيخ الكبير

"فلما دخل موسى على الشيخ إذا بالطعام مهيأ لضيافته، فسلم الشيخ على موسى وقال له اجلس فتعشَّ، فقال موسى: أعوذ بالله !
فقال الشيخ: ولم ذاك ! ألست بجائع ؟!
فقال موسى: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت، وإنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضا من الدنيا
فقال له الشيخ: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام؛ فجلس موسى وأكل"[1].

---

(1) كان من الممكن أن يصف الله مشيتها بأنها "تمشي بحياء" ولكن عندما يقول الله أنها كانت تمشي على استحياء، فكأني بربي يقول لنا: انظروا فإن حياءها قد غذى بدنها فتشبع به، وغذى ملابسها فكسيت به، وغذى لسانها فنطقت به، ثم فاض على الأرض حتى مشيت عليه! إنها لا تمشى على الأرض، ولكنها تمشى على حياء، تتعثر فيه قدماها، وتقصر به خطاها، ويضطرب له كيانها!

[1] تفسير البغوي 202/6.

وظل موسى في ضيافته ثلاثة أيام –كعادتهم – أفضى فيهن موسى بمكنون سره وقص خلالها قصة حياته منذ ولادته حتى وصل إلى ماء مدين.

﴿ **فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عليهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ القصص:25،

وما نطق الشيخ بهذه الكلمات المبشرة من باب طمأنة موسى وإنما من باب الجزم لما وصله عن موسى من أخبار متواترة، فقد كان الشيخ خلال هذه الأيام التي قضاها موسى عنده يتسمع أخبار مصر وحاكمها من قوافل التجار، وقد علم الشيخ منهم خبر موسى الذي سعى لقيادة بني إسرائيل نحو ثورة تحرير من قبضة فرعون المستبد، ولكن سرعان ما انكشف أمره فهرب إلى الصحراء فراراً من ملاحقة جنود فرعون له، وأن فرعون قد يئس من طلب موسى "نصير بني إسرائيل" ظناً منه أنه هلك في صحراء مصر الشاسعة، إذ لا يعقل أن يعيش إنسان بلا دابة يركبها ولا زاد يتزود به، ولا سلاح يدفع به دواب الصحراء ووحوشها هذه الفترة داخل الصحراء حتى يخرج منها !

فتأكد الرجل من صدق ما قصه موسى عليه فساق إليه هذه البشرى ليطمئن.

فارس أحلامها

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم وسكنت إلى صحبته، ولِمَ لا ونور الإيمان يتلألأ في كلا القلبين، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين وكما قالوا: "شبيه الشيء منجذب إليه".

وقبل أن تنقضي الأيام الثلاث التي سيرحل موسى بعدها عن بيت الشيخ، عرضت إحدى بنات الرجل على أبيها عرضاً، يقرأ الأب الكيّس الفطن في ثناياه إعجاب هذه الفتاة بموسى، وتمنيها أن يكون زوجاً لها؛ فحلم أي فتاة بزوج لا يتخطى موسى بحال من الأحوال.

فلقد كان موسى كريماً فتياً أثار في نفس الشيخ وابنتيه عوامل الإكبار والإعجاب، لما زانه الله به من طبع قويم وخلق كريم، فتحرك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته والإبقاء عليه لطهارته وأمانته، أوليس هو الذي أَقَلّ الغطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حمله على ما كان به من

تعب وإرهاق ؟!، أوليس هو العفيف الطاهر الذي أطرق رأسه حينما بلّغته رسالة أبيها ولم تمتد عينيه إليها طيلة الطريق ؟!.

لذا قالت الفتاة ﴿ **يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ** ﴾ ولا تدعه يمشي ويتركنا، بل اطلب منه أن يعمل عندنا بأجر؛ وبهذا الأجر نكون قد كفينا مشقة سقي الغنم كل يوم، فإنك لن تجد أبداً أفضل من موسى أجيراً تستأجره ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾ القصص:26

فأطرق الأب رأسه وهو يقلب كلامها، ثم ذهب إلى موسى يعرض عليه هذا العرض الذهبي.

الزواج السعيد

جلس الشيخ إلى جوار موسى وقال له: يا موسى إني وجدتك قوياً على العمل، أميناً عفيفاً في تعاملك مع بناتي، وإني ﴿ **أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ** ﴾ اللتين رأيتهما عن قرب وعلمت ما كان من أدبهما وحيائهما، ﴿ **عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ**﴾، وهذا هو المهر الذي أطلبه إن قبلت زواج إحداهن، فما قولك ؟

فتبسم موسى وهو يهز رأسه بالموافقة، فمن ذا الذي تعرض عليه امرأة عفيفة مثل التي جاءته تمشي على استحياء، ويرفض! وزد على الزواج منها وظيفة مستقرة، وسكناً في بيت الشيخ الكبير!

أيُّ فتح هذا وأيُّ فضل..!

منذ عدة ساعات كان خائفًا يترقَّب يأوي إلى الظل مفتقرًا، الآن قد أُجر وأمِن ونجا، وزُوج ووظف! إنه فتحُ الفتاح جل جلاله..

الفتاح الذي يفتح مهما بلغت المغاليق، ويُفرِج مهما ضاقت واستحكمت حلقاتها.. يفتح حتى لو ظن كل الخلق أنه لا يفتح أبدًا.. حتى ولو بلغ الاستيئاس مبلغه !

ولقد بدا من كلام الشيخ أنه يود أن يكون المهر عشر سنوات لكنّه طلب ثمانية لأنه يعلم أن القوانين في مصر – آن ذاك – كانت تنص أن الجاني الذي يهرب خارج سيطرة الحاكم ثماني سنوات يسقط الحكم عنه بسبب التقادم فإن عاد فهو حرّ[1] ؛ وبما أن حب الوطن كبير، والمرء حين يمكن له العودة إلى وطنه ثم يجد عائقاً يتألم، ويضعف عمله تبعاً لحالته النفسية؛ حرص الشيخ أن يعود موسى إلى وطنه وأهله في الوقت المناسب، فالغربة قاتلة، والغريب سجين في غربته وإن كان حراً.

لذا حسم موسى هذه النقطة الفضفاضة في اتفاق زواجه فقال:﴿ **قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ** ﴾ فإن أتممتُ الثمانية فقط فلا تلومني، وإن استطعت إتمام العشر سنوات فهذا سيكون هدية مني ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ** ﴾ القصص:28.

وتم الزواج وكان الله خير شاهد ووكيل، ولله در هذا الشيخ الذي زوج موسى لا بنته رغم أنه بلا مال، ولا سكن، ولا عمل !

ولكنه اكتفى لابنته أن يزوجها لصاحب خُلقٍ ودين، فلو أحبها سيكرمها، وإن كرهها فلن يظلمها.

سنوات الإعداد والتجهيز

تزوج موسى من ابنة الرجل الصالح ومكث في مدين يرعى الغنم كعادة كل نبي قبل إرساله برسالة هداية البشر وإصلاح دنياهم، فما من نبي إلا ورعى الغنم[2] ثم اشتغل بعد ذلك بأيّة مهنة أخرى، لأن في رعي الغنم تدريب على الصبر، وتعلم لجمع الشتات؛ لأن الغنم من أكثر الأنعام شروداً

---

(1) مازال قانون الإجراءات الجنائية المصري ينص على أن تنقضي الدعوى الجنائية في مواد الجنايات بمضي عشر سنين من يوم وقوع الجريمة، وفى مواد الجنح ثلاث سنين، وفى مواد المخالفات بمضي سنة ما لم ينص القانون على خلاف ذلك. المادة رقم (15) من القانون رقم 150 لسنة 1950.

(2) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**" . رواه البخاري برقم 2262 من حديث أبي هريرة؛ وقد تنوعت مهن الأنبياء بعد رعي الغنم فنبي الله إدريس عمل خياطاً، ونبي الله نوح عمل نجاراً، ونبي الله داوود عمل حداداً، ونبينا محمد عمل تاجراً صلوات الله عليهم أجمعين.

عن القطيع، وتحتاج إلى قائدٍ صبورٍ يسوسها، كما هو حال البشر مع أنبيائهم وقادتهم، يحتاجون إلى من يسوسهم ويصبر على أذاهم، فالداعية لابد أن يتحلى بسمو السماء، وذلة الأرض، وثبات الجبال، وصبر الإبل، وإلا انفضّ الناس من حوله.

وهكذا نرى القدرة الإلهية تنقل موسى من مكان إلى آخر، ومن طبيعة إلى أخرى، ومن عادات قوم إلى عادات آخرين؛ ليزداد في كل يوم حنكة وعلماً وحكمة، فتجارب الحياة تصنع الرجال وقد خاض موسى عدة تجارب ساهمت في تكوين شخصيته وصناعته على عين الله؛ فمن تجربة الرعاية والحب والتدليل من أمه ومن آسية امرأة فرعون، إلى تجربة الاندفاع والتهور تحت ضغط الغيظ الحبيس مما يشاهده من ظلم لبني إسرائيل، إلى تجربة الندم والتحرج والاستغفار بعد قتله للمصري، إلى تجربة الخوف والمطاردة والفزع عندما لاحقه جنود فرعون، إلى تجربة الغربة والوحدة والجوع في صحراء مصر حتى وصل إلى مدين، إلى تجربة الخدمة ورعي الغنم لمدة عشر سنوات بعد حياة القصور والترف الذي عاشه في قصر فرعون

خاض كل هذه التجارب – دون إرادة منه – ليستطيع قيادة بني إسرائيل ويستطيع مواجهة فرعون، فلو لم يخرج موسى من قصر فرعون ولاقى ما لاقاه من خشونة العيش ومشقة السفر وعذاب الغربة، كيف كان سيشعر بمعاناة بني إسرائيل؟!

وإن لم يتعلم موسى الصبر من رعيه للغنم التي هي من أكثر الأنعام شروداً، كيف كان سيتعامل مع بني إسرائيل ويسوسهم وهو بكل هذه الحدة التي كانت ومازالت رواسبها متعلقة به ؟!

لقد سار موسى عليه السلام دون أن يشعر على خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقي والتدريب، قبل النداء وقبل التكليف وصدق القائل: **إذا أرادك الله لأمر هيأك له وهيأ لك أسبابه؛** وتكليف الله لموسى بحمل الرسالة تكليف ضخم وشاق متعدد الجوانب والتبعات، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير.

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر- عدا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم- فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم استذلالاً للخلق واستعلاء في الأرض.

كما أنه مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرءوا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً، واستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير كان يحتاج لكل هذه التجارب التي خاضها موسى عليه السلام في حياته قبل نزول الرسالة.

الحنين إلى مصر

عشر سنوات من الغربة قضاها موسى في صحراء مدين الواسعة بين جبالها ورمالها وخشونة عيشها، يعتني بأسرته الصغيرة وماشيته طوال النهار، وفي الليل يختلي بنفسه ليقف متفكراً في بديع خلق الله، متعبداً له على دين وشريعة جده الأكبر إبراهيم عليه السلام.

مرَّت الآن عشرة أعوام بحلوها ومرها، أتم بهن العقد الرابع من عمره، وقد قضى بذلك حِجَج حَميه بالزيادة، وها هو الآن يفكر في الاستجابة لمشاعر الشوق التي تدفعه منذ فترة لأخذ قرار العودة إلى مصر، بعدما وفى ما عليه.

ولست أُقَدِر كيف يجعله مثل هذا الخاطر يغامر تلك المغامرة، ويخوض هذه المخاطرة، متناسياً ولو للحظات النفس التي قتلها هناك، بل ومتناسياً فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه؟! لعله ظن أن تلك السنوات العشر قادرة على تبديل الناس وطمس الوجوه، وبالتالي لن يعرفه أحد من الملأ إن عاد إلى مصر؟!، أو لعل ازدياد الميل الفطري لمجاورة الأهل والعشيرة، والحنين الزائد لبلد المنشأ والمولد – حتى وإن كان أهلها ظالمون – جعله لا يطيق المقام في الغربة ؟!

كل هذه الاحتمالات واردة .. وقد صدق الشاعر إذ يقول:

بلاد ألفناها على كل حالة

وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

وتستعذب الأرض التي لا هوى بها

ولا ماؤها عذب ولكنها وطن !

المهم أن الحنين إلى مصر زاد في قلبه، وحلم العودة إلى حضن أسرته وإخوته يزداد يوماً بعد يوم، فحسم أمره واستأذن من صهره –والد زوجته– في أن يعود لمصر بزوجته وولده[1]، ليستقر فيها.

فأذن لهم الشيخ الكبير على مضض؛ لما لمسه من موسى من تصميم وعزم جاد على العودة إلى مصر.

جمع موسى أشتات متاعه مع زوجته وهيأ رحله، وعندما تحيّن وقت صفاء ووضوح نجوم السماء، ودّعوا الشيخ .. فبارك ترحالهم ودعا لهم بخير .. وانصرفوا..

الطريق إلى مصر

ها هو ذا عائد إلى مصر وقد سار بأهله نحو الجنوب على هَدي النجوم، حتى وصلوا عند طور سيناء، فلما حل عليهم الليل بظلامه، تلبدت السماء بالغمام، واستترت نجومها خلف السحاب الداكن !

فضل موسى الطريق لعدم رؤية النجوم التي كان يهتدي بها في طريقه[2]، ثم بدأت السماء تمطر مطراً شديداً، واشتد البرد القارص !

---

[1] "تقول التوراة إن الله وهب لموسى ولداً سماه "جرشوم" وهو اسم يدل على معنى الغربة أي أنه غريب المولد (انظر قصص الأنبياء للدكتور عبدالوهاب النجار ص 173).

[2] مواقع النجوم هي علامات لاهتداء السائرين ليلاً، فمن خلالهاُ يعرف الشرق من الغرب، والشمال من الجنوب؛ قال الله: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ الأنعام:97، وأخصّ من يهتدي بها البحّارة ومن يسيرون في الصحراء وقد اشتهر المصريون القدماء ببراعتهم في هذا العلم.

فتوقف موسى عن السير، وأناخ النوق بجانب صخرة بوادي طوى، وجلس بمن معه ليستريحوا هناك إلى أن تصفو السماء، أو يبيتوا في أماكنهم إلى أن يشرق النهار ويبصر طريقه فيرتحل؛ لذا حاول أن يشعل لهم ناراً يستدفئون بها إلى أن يتخذ القرار المناسب بالرحيل أو المبيت، فظل يحاول أن يشعل النار فلم تشتعل !!

فألم به الهم –كحال أي إنسان حل عليه الظلام وليس معه ما يستضيء به – ولكن عناية الله أدركته ..

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان !

فبينما هو يحاول أن يشعل النار، إذا به يرى ناراً مشتعلة بجانب جبل الطور، فقرر أن ينطلق إليها وحده، وأن يدع أهله حيث هم، ﴿ **فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا** ﴾ طه:10

وفي قوله المتكرر لأهله: «**امْكُثُوا**»، «**امْكُثُوا**»[1] – هو تأكيد لهم بأن يظلوا مكانهم، وألا يتحولوا عنه، لأنه لا يدرى من يكون عند النار، فلربما كانوا ركباً مسافراً، أو قطّاع طريق؛ إذاً فمن الحكمة أن يذهب وحده، ويتحسس أمرهم وخبرهم، من غير أن يقحم أهله ويدفع بهم إلى هذا المصير المجهول، ثم أشرك زوجته بأدبه العالي فيم يفكر ويخطط له فقال:

﴿ **سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ النمل:7

﴿ **لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى** ﴾ طه:10

فهو يريد أن يأتي بقبس مشتعل من هذه النار ليستدفئوا به إن قررا المبيت، أو يهتدوا به في طريقهم إن قررا الارتحال ..

اتكأ موسى على عصاه، وذهب إلى حيث يرى النار ..

---

[1] كلمة (امكثوا) تكررت على لسان موسى في سورة طه الآية رقم10، وفي سورة القصص الآية رقم29.

ولكن العجيب أن موسى عليه السلام عندما اقترب من النار لم يجد عندها أحداً من الناس،، ووجد النار تزداد اشتعالاً رغم هبوب الرياح ونزول الأمطار!

فأبطأ خُطواته واتجه نحوها وهو يدقِّق النظر ..

فلما صار قاب قوسين أو أدنى أدرك أن توهجها ليس ناراً، بل وميض فسفوري مُشِع يَسير بداخل أفرعها سير الدماء في الشرايين !

- ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ النمل:7

فاستوقفته هذه الكلمات التي زادت المكان هيبة وخشوعاً وتلفَّت حَوله مضطرباً، فلم يرى شيئاً !

نداء الله لموسى

فبدأ موسى يمشى بتأنٍ شديد.. رويداً.. رويداً حتى اقترب أكثر وأكثر من مكان النار ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ** ﴾ نودي نداء جديداً .. بالتحديد ﴿ **مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ** ﴾ القصص:29

- ﴿.. **يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى** ﴾ طه:13

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي، وبوركت البقعة التي تجلى عليها ربنا ذو الجلال والإكرام، وتميز الوادي الذي كُرّم بهذا التجلي، ووقف موسى عليه السلام في أكرم موقف يلقاه إنسان، يردد بين نفسه: (ربي !! اختارني ؟! .. أنا ؟).

ثم قاوم رَعشّته، واعتدل في وجل، وسَلت نعليه من قدميه وجثا على رُكبتيه مُحنياً رأسه يستمع إلى الصوت؛ فإذا بنداء ثالث يُعرّف الله فيه نفسه لموسى قائلاً:

- ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ النمل:9 ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ القصص:30، ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ..﴾ طه:14

فبدأ الله لقاءه مع موسى عليه السلام بالتعارف، فعرفه بنفسه على نفسه، فهو العزيز الحكيم رب العالمين الذي لا إلاه غيره ولا رب سواه، ثم يقول له بعد هذا التعارف؛ إذا عرفتني يا موسى حقاً﴿ **فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ طه:14، فمن عرفني أحبني، ومن أحبني عبدني بالصلاة التي هي أم العبادات، ثم قال الله له محذراً ومنبهاً ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى**[1]﴾.

معجزة العصا

فازداد موسى اضطراباً وخضوعاً وذلة بين يدي الله عز وجل، واستحى أن يرفع عينه من التراب إجلالاً وهيبة لله، فهدّأ الله من روع موسى وسأله سؤالاً الغرض منه أن يلاطفه، ويؤانسه ..

- فقال:﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ؟! طه: 17.

ففهم موسى المغزى، فلم يقل: هي عصاً وسكت، وإنما لما لذّ له الخطاب زاد في الجواب؛ ليستمر الحوار بينه وبين رب العزة[1]

- فقال: ﴿ **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** ﴾ طه: 18، ثم سكت من باب التأدب مع الله، فهو بعلمه غني عن كل هذه التفاصيل.

- فقال له ربه: ﴿ **أَلْقِهَا يَا مُوسَى**﴾ طه:19

(1) فتردى: تهلك.

(1) قال ابن عباس رضي الله عنهما : رحم الله موسى، إنما كان يكفيه أن يقول عصاً، ولكن ارتاح لخطاب ربه فزاد في الكلام.

فرمى موسى بعصاه على الأرض، فما إن لامَسَت الأرض حتى اهتزَّت، ثم بدأت تتحرك وتتلوى !! وكلما تحركت انتفخت وانتفشت ونمى حجمها وطولها !

﴿**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ** ﴾ النمل :10، تركها وهرول يجري مسرعاً من شدة الفزع ﴿ **وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ** ﴾، ولم ينظر خلفه ولم يفكر حتى في مجرد العودة إليها ليتبين ماذا سيحدث لها بعد هذا الانتفاخ والانتفاش والاهتزاز.

فناداه ربه قائلاً:

- ﴿**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ**﴾ القصص:31

فلبى موسى النداء وعاد إليها مرة أخرى .. فإذا بالمفاجأة ﴿ **فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى** ﴾ طه:20، وجدها حيَّةٌ تتلوى، لونها أسود تتوسط أوداجَها المنفوخة دائرتان صفراوان كالأعين، تنفث فحيحاً، فخاف من فظاعة هيئتها وصوت فحيحها وهم بالهروب منها مرة أخرى !

فطمأنه ربه قائلاً:

- ﴿ **يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ النمل:10، فأقبِل عليها وخذها ولا تخف منها فهي لن تؤذيك لنعيدها لك كما كانت؛ ﴿ **قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى** ﴾ طه:21.

بَعد تردد .. اتجه موسى لعَصَاه، ووقف أمامها لحظات قبل أن ينحني بحذر ويقبِض على ذيلها الذي يتلوى، فإذا بها تتيبس وتتصلب فتعود كما كانت !

معجزة اليد

- ثم قال له ربه: ﴿ **وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى** ﴾ طه:22.

فضم موسى ذراعه الأيمن تحت إبط ذراعه الأيسر.

- فقال له ربه: لا يا موسى أدخلها في جيبك ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ**﴾ النمل:12، أي في فتحة قميصك من المكان الذي ترتديه منه.

فارتاب موسى وتردد، خوفاً من أن يخرج من يديه شيء كالذي خرج من العصا !

فأمره ربه أن ينفذ الأمر فوراً فقال:

- ﴿ **اسْلُكْ يَدَكَ** ﴾ القصص:28 ﴿ **اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾.

فأطاع موسى الأمر، وأدخل يده في فتحة ثوبه من عند صدره ثم أخرجها؛ فإذا بالمفاجأة الثانية، إنها بيضاء لامعة مشعة كالشمس تتلألأ من الصفاء من غير مرض، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة.

فارتجف من جلال الله وهيبة المكان، وسجد على الأرض مقاوماً التلعثم والرعشة بسبب خوارق الموقف المتتابعة، فأدركته الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة، وذلك بأن يضم يده على قلبه، لتنخفض سرعة دقاته، وتهدأ خفقاته ..

- فقال له ربه: ﴿ **وَاضْمُمْ إليكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ**﴾ القصص:32.

فضم ذراعيه على صدره، ورفع وجهه برهبة ونظر للشجرة التي ازدادت خضرة وحُسناً، شرد فيها متأملاً، فَسَحر الوميض المتلألئ عَينَيه حتى سَكَن وهدأت روعته، فهمس مناجياً ربه:

- ما قد يرغب الرب مِن عبد فَقير ؟

التكليف بالرسالة

- فقال له ربه: ستكون رسولي ونبيي كما كان أجدادك؛ يوسف ومن قبله يعقوب وإسحاق وإبراهيم.
- فقال موسى: رسولك ! إلى مَن ؟
- فقال له ربه: ﴿ **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ القصص:32، ثم أكد الله عليه بوضوح جوهر رسالته فقال:﴿ **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** ﴾ طه:18.

وهذا هو الشق الأول من رسالته: مواجهة الطاغية فرعون ودعوته للعودة إلى جادة الصواب قبل أن تحل به وبالناس من حوله القارعة الكبرى، فالظلم منذر بخراب العمران، أما الشق الثاني من رسالته فهو تحرير قومه المستَعبدين، ﴿ **وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ الأعراف:105، فرسالة كل الأنبياء هي تحرير البشر ليعبدوا الله وحده لا شريك له وينعكس هذا التوحيد على سلوكهم وحياتهم فلا يكون قولًا بالألسن يخالفه العمل والأنماط الاجتماعية السائدة.

عوائق في طريق الدعوة

شرد موسى للحظات قبل أن يشكو إلى الله بعض العقبات التي قد تكون عائقاً في طريق دعوته فقال: ﴿ **رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ على ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** ﴾ الشعراء:14

لقد كان شبح القتيل الذي قتله موسى ما زال يطارده، وإن لقاءه بفرعون بوجه سافر سيحرك هذا الحدث الذي كاد يُنسى من ذاكرة المجتمع، ولهذا أظهر موسى ما بنفسه من خوف، وأن لقاءه فرعون، وعرض ما يعرض عليه من آيات قد يقع عند فرعون أنه حيلة يريد أن يشغله بها عن فعلته

التي فعلها، ولهذا طلب أن يكون معه أخوه هارون، الذي لا تهمة له عند فرعون، ليكون بعيداً عن هذا الظن.

ولما كان اسم فرعون يقع من نفس موسى موقعاً يثير الرعب والفزع – إنه فرعون بجبروته، وعتوه!! — استرسل متضرعاً إلى الله أن يعينه على مواجهة هذا البلاء، وأن يذهب ما به من اضطراب وفزع!

– فقال: ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾ طه:25، حتى يتّسع لامتثال أمرك، فيتقبله قلبي قبولاً حسناً، فلا يضيق به، ولا يجد حرجاً منه؛ ﴿ **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** ﴾ فإن الموقف خطير، والأمر عظيم؛ فإذا لم يكن منك العون والتيسير، فلا طاقة لي به، ولا حيلة لي فيه، ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي** ﴾[1]، ليكون لدي البيان الفصيح والقدرة العالية على محاجّة فرعون، ومناظرته، فـ ﴿ **يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ ويعقلوه، ولا تأخذهم العزّة بالإثم، فيردوه على، ﴿ **وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي** ﴾ إن نسيت ذكرني، وإن نويت خيراً أعانني وحفزني، وليكن هذا المعين هو: ﴿ **هَارُونَ أَخِي** ﴾ طه:30، فهو بحكم عاطفة الأخوة حريص على سلامتي، وسيقف إلى جانبي في ساعة العسرة، كما أنه ﴿ **أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا** ﴾ القصص:34، فأرسله معي ﴿ **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ طه:31، الذي ندبتني إليه، وأكرمتني به ﴿ **كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا** ﴾ طه:35.

---

(1) مكث موسى في مدين عشر سنين تغير فيها لسانه ونسى لهجة المصريين–كعادة أي إنسان يغيب عن بلده سنوات – فطلب أن يكون معه هارون ليترجم له ويساعده على التفاهم، وكان لهارون عدة مميزات منها: أن لسانه مصرياً لمخالطته المصريين، وعبرياً لأنه إسرائيلي فيمكنه التفاهم مع موسى بطلاقة، ومع المصريين كذلك.

ولقد كان موسى نبيلاً إلى الحد الذي لم يتحرج فيه أن يعترف أن أخاه أفصحُ منه لساناً!، وبخلاف تواضع موسى وتجرُّده المبهر فإن في هذا المشهد إشاراتٌ وضيئة اعتقد أن من أهمها حرص موسى عليه السلام على تمام الأمر، وتفانيه وصدق رغبته في بلوغ الرسالة إلى القلوب والعقول والأفهام به أو بغيره ! فمن هنا آثر أن يتقدَّم الأكفأ في هذا المجال والأقدر على البيان والتبليغ بجميل اللفظ وجلي المعنى وراسخ المبنى؛ لذا قالها بتجرُّده الرائع: ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا**﴾ [القصص:34].

ومن الإشارات الهامة أيضًا قيمة الفصاحة وحُسن البيان وأهمية ذلك في شأن الدعوة والبلاغ عن الله، فلا ينبغي لأحد التقليل من تلك القيمة، ولا التهوين من شأنها؛ بل ينبغي تطويرها والحرص على أدواتها ومناسبتها لحال المخاطب وقدرتها على تحريك قلبه وبلوغ عقله بما يواكب المكان والزمان ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ إبراهيم:4.

واستجيب الطلب

فأجابه المجيب القريب سبحانه وتعالى فقال: ﴿ **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** ﴾ طه:36، فكل ما سألتني إياه – من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وقوة في الحُجة والفصاحة - أعطيتهم لك ولا أبالي.

كأن الله عز وجل يقول لموسى عليه السلام: "**يا موسى من راعى مصلحتك وأعطاك من قبل أن تسأل، أيمنع عنك خيره وأنت تسأل ؟! يا موسى من صعد بك إلى مراتب المعالي، وسما بك إلى درجات الرفعة، أيحجب عنك ما تؤمله ؟!** "[1].

- يا موسى ! كل ما سألتني إياه قد أجيب، وأبشر ﴿ **سَنَشُدُّ عَضُدَكَ**[2] **بِأَخِيكَ** ﴾ هارون، علاوة على ما طلبت، وتلك منة جديدة سبقتها منا منن كثيرة ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى** ﴾ طه:37، ثم عدد عليه ربه بعض هذه المنن وتلك الحفاوات فقال:

المنة الأولى: حين ألهمنا أمك أنّ أفضل الطرق لخلاصك من فرعون وجبروته، أن تضعك في تابوت- صندوق- ثم تطرح هذا التابوت في النهر ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ** ﴾ طه:38

المنة الثانية: زرعت حبك في قلب كل من رآك ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**﴾ فعندما تعرضت لخطر الذبح في قصر فرعون، قالت زوجة فرعون – التي أحبتك - لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.

المنة الثالثة: أنك تربيت وفق إرادتي، ونشأت كما اقتضت مشيئتي ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ حتى تأتي وفق ما أحبّ وأبغي.

---

(1) منقول بتصرف من تفسير سورة طه ج16، ص107 للعالم الجليل أحمد مصطفى المراغي.

(2) العضد، أعلى الذراع من المرفق إلى الكتف، وهو مركز القوة في اليد، واليد هي مظهر القوة في الإنسان.

المنة الرابعة: ﴿ **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ**﴾ بعدما حرمنا عليك المراضع ﴿ **فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ** ﴾.

المنة الخامسة: عندما دخلت المدينة على حين غفلة من أهلها﴿ **وَقَتَلْتَ نَفْسًا** ﴾ دفاعاً عن رجل من قومك ﴿ **فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ** ﴾ الذي كان قد نالك بقتله خوفاً من عقابنا، فقبلنا توبتك وغفرنا لك ذنبك، ونجيناك من جنود فرعون الذين كانوا يتربصون بك.

المنة السادسة: ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾ عندما أعنّاك على تحمل ما ابتليناك به من مشقة السفر، ومرارة الغربة، وخشونة عيش الصحراء، لتتعلم الخشونة بعد حياة الترف والرفاهية فتشعر بالمحتاج، وتتعلم الصبر بعد ما كان منك من اندفاع وحِدّة فتتصدر للدعوة.

﴿ **فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى** ﴾ فاصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾ طه:41.

لا أدري بأي قلب استقبل موسى سماع هذه الحفاوة الربانية به، كفاه فخراً فقط أن يستمع إلى قول ربه: ﴿ **وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي** ﴾ !

وصايا ربانية

وفي نهاية هذا اللقاء النوراني الفريد، وبعد أن عرّف الله موسى عليه السلام بألوهيته الواحدة، وبين له الهدف الأساسي من دعوته وهو عبادة الله عز وجل وإقامة شرائعه في الأرض، وزرع الإيمان الغيبي بقيام الساعة في قلبه، وبين له أن كل إنسان سوف يجزى بحسب عمله، ووجهه بعدم الاكتراث بأقوال المعرضين عنها لأن في نسيان الساعة هلاك للمؤمن، وعرفه بأعدائه الحقيقيين وحذرّه منهم، وأمره بالبدء بدعوتهم لأنهم أفسدوا البلاد وادّعوا الألوهية، واستمع إلى مشاكله وحلها له.

الآن يُختم هذا اللقاء بعدد من الوصايا الربانية كان أولها هو الحرص على ذكر الله: ﴿ **اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي** ﴾ طه:42، فذكر الله قوة تدفع بصاحبها نحو تحقيق هدفه، وهو حصن حصين من دخله أمن على نفسه من جميع المخاطر؛ فمن يَعِش في كنف الله وحصنه من ذا الذي يجرؤ على إيذائه ؟!.

وفي طيات "**الوصية الأولى**" هذه درراً فريدة، ووصايا محفزة ..

ففي قوله تعالى: ﴿ **اذْهَبْ** ﴾ تحطيم للسلبية وبناء للإيجابية؛ فأنت قائد التغيير ولو كنت وحدك فإياك أن تستقل، أو تستصغر نفسك.

﴿ **أَنتَ وَأَخُوكَ** ﴾ إشارة إلى أهمية العمل الجماعي المنظم، في مواجهة الظلم والظالمين، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

﴿ **بِآيَاتِي** ﴾ فيها كسر للجهل والعشوائية في العمل وتأكيد على أهمية العلم والتخطيط.

﴿ **ولا تَنِيَا** ﴾ فيها تحذير من الكسل أو التواكل.

﴿ **فِي ذِكْرِي** ﴾ فيها تحطيم للمادية وبناء للربانية.

ثم تأتي "**الوصية الثانية**" بالرفق بالمدعو حتى ولو كان فرعون ﴿ **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ طه:44، فاللين واللطف هما سمة الحكماء مع الجهلاء، والأطباء مع المرضى؛ أما رد السفاهة بالسفاهة، والجهل بالجهل، هو نفخ في النار الموقدة، وإمداد لها بالوقود، الذي يزيدها اشتعالاً وتأججاً.

ثم تأتي "**الوصية الثالثة**" بعدم اليأس؛ فبالرغم أنه قد سبق في علم الله أن فرعون سيموت على الكفر غارقاً، ولكنه يقول لهما: اذهبا إليه غير يائسين من هدايته ﴿ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾، طه:44.

فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها إليه بحرارة، والله يريد أن يوقع الحجة على الناس عامة — وفرعون خاصة – بما وقع منهم في حياتهم؛ وليس بما سبق في علمه هو حتى وإن كان علمه بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر والماضي في درجة سواء؛ حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

موسى الكليم

وينتهي هذا اللقاء النوراني التاريخي الفاصل بهذه الوصايا الثلاثة:

"**المداومة على ذكر الله، والرفق في الدعوة، والتفاؤل وعدم اليأس**".

ويحظى موسى عليه السلام بلقب "**كليم الله**" فهو الوحيد الذي كلمه الله مباشرة بغير واسطة – جبريل – ولعل ذلك يعود إلى مشقة المهمة المنوط بها وصعوبتها، فهو سيبدأ أول ما يبدأ بالجهر بالدعوة ومن داخل قصر أعتى ملوك الأرض وأطغاهم؛ لذا استحق موسى هذا الشرف[1].

سجد موسى لله شكراً على استجابته لكل دعائه، وعلى مننه المتتالية، سجود طال هذه المرة بعدما شعر بسبات مُريح، إلى أن داعبت الرياح وجهه فرفع رأسه ونظر للشجرة التي انطفأ وميضها، ونظر للقمر في سماء صَفَت، ثم التقط عصاه الملقاة بجانبه واتجه نحو "أهله" الذين تركهم بالقرب من الوادي المقدس، وحكا لهم ما كان من أمر النار والشجرة، ثم ما دار بينه وبين رب السماوات والأرض.

فاقشعر جلدها إجلالاً لله، وبكت شوقاً إليه، فكم شرفها أن كانت زوجة نبي ورسول وكليم لله، كما تشرفت بأن كانت أول من آمن به من البشر.

سر الابتلاء

[1] عندما جهر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام بالدعوة في مكة ولقي من الإيذاء بعض الذي بلغنا عنه، شرفه ربه بمقابلة هي أشرف وأرقى من التي حظي بها موسى عليه السلام، فقد وصل النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج إلى مكانة لم يصل إليها نبي مرسل ولا ملك مقرب.

وفي طريق عودة موسى لمصر تذكر سر ابتلائه في تلك اللحظات الخوالي، عندما خرج منها خائفاً يترقب، الآن فهم السر، وعرف لماذا ابتلي هذا البلاء، فالله لم يكشف مخططه الذي سعى به لقيادة ثورة إصلاحية لأوضاع بني إسرائيل بغضاً فيه، ولا لخطأٍ في طريق التغيير الذي أراد أن يتبناه، ولكن لأن الله دبر أمراً آخر فيه الخير له ولمن بعده، فلقد كان هذا "الابتلاء" في صالحه وإن بدا له في وقتها غير ذلك، وهذا من تمام تدبير الله وحكمته، وصدق بن عطاء الله السكندري عندما قال"**ربما منعك ليعطيك**"[2]، ففوض أمرك للذي يدبر الأمور، وللذي من حكمته أن ربما يمنع الإنسان من خير صغير ليجلب له الخير الأكبر.

عاد موسى إلى مصر، ودخل نحو خرائب وأكواخ بني إسرائيل، فوجد أهلها ازدادوا فقراً وتهميشاً، نَحلت الوجوه، وهزلت الأجساد، وغُلّقت المتاجر وتناثر المرابون والعاهرات، كثر الذباب وفاح العرق والمرض والشقاء من كل رُكن، لم يندهش موسى كثيراً من أوضاعهم التي تزداد كل يومٍ سوءاً على سوء، فتلك نتيجة السكوت على ظلم الظالم وفساده.

طرق موسى باب بيت أمه والشوق يسبقه لرؤياها ..

فتح هارون الباب واحتاج للحظات حتى تعرف على وجه أخيه، الذي أخفى ملامحه تحت قلنسوة، وتناثر الشيب في لحيته، وغبرت ملابسه بتراب السفر في الصحراء !

ولكن سرعان ما تذكره واحتضنه بفرحة حتَّى بكيا، ثم أدخله ومن معه بسرعة وأحكم غلق الباب.

فلما دخل وجد أمه قد أعياها المرض وجعلها طريحة الفراش، لا تقوى على النهوض لاستقباله، وكأن الله أطال في عمرها حتى ترى بعينيها موسى بعدما أكرمه الله بالرسالة، ليتحقق وعد الله الثاني عندما بشرها فقال: ﴿ **وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ القصص:7.

---

[2] جزء من الحكمة الحادية والثمانون وهي من أشهر حكم الشيخ أحمد بن عطاء الله السكندري التي قال فيها: "**ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء**" انظر كتاب (الحكم العطائية شرح وتحليل – د. محمد سعيد البوطي) ج3، ص33، طبعة دار الفكر المعاصر – بيروت.

فضمها إلي صدره ضمة نسي بعدها آلام الغربة والفراق ..

وبعد أن زال عن موسى عنت السفر، وارتاح من مشقة الطريق، حكى لهم ما كان من أمر سنواته العشر في مدين، وعرفهم بزوجته الشريفة العفيفة التي ارتضته زوجاً لها رغم أنه وقتها كان بلا مال ولا سكن ولا عمل، إضافة إلى أنه أحد المطلوبين لدى الطاغية فرعون، ثم قطع حديثه عند رحلة العودة وما حدث عند الشجرة العجيبة، ليسأل هارون عن حال أبيهما "عمران" ؟!

– فأخبره هارون أنه قد مات بعد مرض لم يمهله، وأن مريم قد تزوجت برجل صالح من بني إسرائيل وتعيش معه بجوارهم.

فسأله موسى عن فرعون ..

فأخبره أنه ما زال يعيث في الأرض فساداً، ولا يزال يزداد ظلماً على ظلمه وجبروتاً على جبروته؛ يُوتِد الأطراف ويُقطِّع الرقاب، ويُصلِّب الناس على جذوع النخل لأتفه الأسباب، ولا زال يأخذ فتيات بني إسرائيل ليُبعن أو يخدمن أو يحترفن البغاء، والشعب لا يحرك ساكناً، يبدد قواهم كل يوم في حفر الخنادق وبناء القصور والمعابد، وصناعة الطوب في موقد ضخم لا تخبو ناره.

طلب هارون من موسى أن يكمل ما بدأه من حديث خاصة ما حدث لهم عند الشجرة في صحراء سيناء ..

فأكمل موسى حديثه إلى أن أخبره أنه دعا الله أن يكلفه معه بالرسالة، وقد استجاب الله دعاءه وأصبح مكلفاً مثله تماماً – من الله – بتوصيل الرسالة إلى فرعون، وإقامة الحجة عليه وعلى قيادات الدولة من الملأ، حتى يؤمنوا بالله الواحد الأحد ويرفعوا العبودية عن بني إسرائيل ويتركوهم يخرجون من مصر إلى أرض الله الواسعة.

فتدلّى فكُ هارون وانقطعت أنفاسه وزاغت عيناه شروداً فيما قاله أخوه، ولم يفق هارون من صدمته إلا حين أخرج موسى يده من جيبه بيضاء مضيئة، وألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، قائلاً له: تلك آيات ربي التي أرسلني بها إلى فرعون وملئه.

دمعت عينا هارون ثم جثا على ركبتيه شاكراً الله على أن اختصه مع أخيه بالرسالة، ودعاه أن يوفقهما في إقامة الحجة على القوم الظالمين.

الاجتماع الأول لشيوخ بني إسرائيل

استدعى هارون سِراً رءوس العائلات من بني إسرائيل في بيت رجل منهم، تذمروا من الانتظار حتى دخل عليهم موسى، كشف وجهه فقطبوا جبينهم في اندهاش وتشاؤم، جلس بينهم فساد الصمت قبل أن يتساءلوا عن سبب عودته، حكى لهم عن رحلته إلى مدين ثم عن الرسالة التي حُمِّل بظهره بها، عبست الوجوه وتمشَّى في ملامحها الاستهزاء والاستنكار والوجل.

ثم قال كبيرهم: كلماتك لا تحمل إلا الهلاك لنا يا ربيب القصور، أتريد أن نخرج معك من ديارنا – التي تربيت بعيداً عنها – إلى الصحراء فنعود بدواً رُحلاً لا أرض لنا ولا زرع ؟.

فرد موسى بلسان الحال:

وعَبْدُ النَّفْسِ – مَهْمَا عاشَ– عَبْدٌ ... ويَأَبى العَبْدُ يَوْماً أنْ يَسودَا

يُحِبُّ القَيْدَ يُدْمي مِعْصَمَيْهِ ... وَيَكْرَهُ أَنْ تَفُكَّ لَهُ القُيودا

ثم قال لهم: إن الله ابتعثني لأخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن المهانة والعبودية إلى السعادة والحرية.

ثم نظر إليهم مستنكراً فقال: مالكم تتكلمون كأنكم تعيشون في مصر أسياد مكرمون ؟!

فقال أحدهم: وهل يصدِّق عقلك أن فرعون سيتركنا نخرج مصر أحياء ؟

فقال موسى: عليَّ وأخي إقناعه، تلك مهمّتنا.

فقالوا: إن طلبت منه هذا الطلب سيُنكّل بنا ويصلبنا في جذوع النخل.

فرد عليهم هارون: وكأن هذا لا يحدث لكم من قبل مجيء موسى لأتفه الأسباب !

فتأهب القوم للقيام وقالوا: سنؤيدكما فيما تقولان إن عدتما من عند فرعون على قيد الحياة، ثم تركوهما وانصرفوا بلا سلام !..

الخوف يدب في قلبيهما !

ولما أرادا – موسى وهارون – أن يذهبا إلى قصر فرعون ليطلبان موعداً للقائه، دب الخوف في قلبيهما – فهما بشر والمكان له هيبة – حتى وإن كانت مصطنعة، وحياتهما بعد هذا اللقاء ستكون مهددة بالخطر، فقالا: ﴿ **رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ علينا أَوْ أَنْ يَطْغى** ﴾ طه:45.

ولا تعجب من خوفهما ..

فلكم كان فرعون باغياً متسلطاً، وجباراً عنيداً، وكم أوقع في قلوب الناس – لهيبته المصطنعة – من فزع ورعب، حتى كاد يكون ذلك طبيعة متمكنة فيهم يصعب علاجها، وإلّا فما بال موسى، وقد رأى من آيات ربّه ما رأى، في كل مرحلة من مراحل حياته، ثم أُمدّ من السماء بهذه الأسلحة من المعجزات القاهرة المتحدية، ثم كان إلى جانبه أخوه هارون، ما باله لا يزال مع هذا كلّه يخشى فرعون، ويرهبه ويخاف من لقائه؟

إن ذلك ليس إلا لما كان عليه فرعون من جبروت أوقع به في قلوب الناس هذا الخوف الرهيب، الذي اندسّ في كيان موسى[1] القوي صاحب المعجزات، فما بالكم بالضعفاء ؟!

نجدة السماء

[1] لقد رضع موسى في طفولته لبن الخوف حيث تنكرت أمه في وظيفة مرضعة لترعاه خوفاً على حياته، وعاش في القصر الفرعوني وهو يخشى لو انكشف سر لقاءه بالمستضعفين من بني إسرائيل لأجهزة الأمن الفرعونية، لذا تكرر تعبير (الخوف) الذي يصاحبه في تصرفاته وتقلباته.

فقال الله لهما: ﴿ **لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى** ﴾ فنزل هذا الوعد الرباني على قلبيهما فهدئ من روعهما، وسكّن من خوفهما، فمن فوت على فرعون فرصتين سانحتين لقتل موسى إحداهما حين كان فرعون يطلبه وليداً، والأخرى حين كان يطلبه قاتلاً؛ قادر على أن يحميهما منه.

ثم لقنهما الله عز وجل وصيتين جديدتين

الأولى: أن يؤكد موسى لمن سيلتقي به من فرعون وآله، أن هارون مرسل أيضا من لدن الله بنفس الرسالة ﴿ **إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ** ﴾ سورة طه: 47، ولعل السبب في ذلك التأكيد هو أن فرعون كان متعالياً سَمْجاً رَذْل الخُلُق، فإن تكلم هارون ليشد أزر أخيه، فقد يقول له فرعون: وما دخلك أنت؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان، ويعلنان أنهما رسولان من عند رب العالمين، ويَرُد فرعون هارون، فكأنه يرد موسى أيضاً.

أما الوصية الثانية فهي إيجاز الرسالة واختصارها في العرض على هذا النحو ﴿ **إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إسرائيل وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى** ﴾ طه:47، فإن فرعون لا يصبر على الاستماع، وإنّ أحداً لا يجرؤ على أن يجري معه حديثا أو حواراً ممتداً؛ فما اعتادت أذنه أن تسمع كلاماً من أحد، وإنما هو الذي يتكلم فقط – بل – وسرعان ما تتحول كلماته إلى أفعال، وأحلامه إلى أوامر !

إذاً فقولا له بإيجاز ووضوح: ﴿ **إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إسرائيل وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى** ﴾ طه:47.

فيا ترى ..

- لماذا لم يسعى فرعون لقتل موسى فور علمه بوصوله إلى مصر، وقَبِلَ باستقباله في القصر ؟

- كيف استطاع موسى أن يبهر الملأ ببراعة أسلوبه، وقوة منطقه ؟

– ما هي أحداث يوم الزينة، ولماذا اختار فرعون تلك القتلة الشنيعة لإنهاء حياة السحرة ؟

– كيف تناولت الأذرع الإعلامية لفرعون أحداث مذبحة السحرة، وما هو رد فعل الجماهير التي شاهدت المذبحة ؟

– ما هي القرارات الاستثنائية الجديدة التي أصدرها فرعون ضد كل من يؤمن بدين موسى نزولاً على رغبة الملأ ؟

هذا ما سنشاهده عن قرب في أحداث **الفصل الثالث** – بمشيئة الله – بالإضافة إلى جولة حصرية داخل سجون فرعون، سنشاهد خلالها كيف كان يعذب المعارضين.

هيا بنا نشاهد ..

موسى وهارون داخل القصر الفرعوني

وصل الرسولان إلى قصر فرعون ودخلا عليه عندما أُذن لهما بالدخول، في مراسم كلها هيبة وإجلال فهما سيدخلان على الفرعون الإله، وسيخوضان مواجهة عنيفة مع فرعون وملئه بهذه الحقيقة الواحدة، التي واجه بها كل نبي- قبله أو بعده- عقائد الجاهلية الفاسدة..

هذه المواجهة التي لا تعني – بالنسبة لهما– إلا التمرد على النظام، والثورة على فرعون وملئه؛ فإن ربوبية الله للعالمين التي جاءا بها تعني- أول ما تعني- إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره، وإعلان تحرير الإنسان من الخضوع والطاعة والتبعية والعبودية لغير الله؛ تعني تحرير الإنسان من شرع البشر، ومن هوى البشر، ومن تقاليد البشر، ومن حكم البشر للبشر؛ إلى حكم الله وحده.

مفاهيم استقاها الرجل العربي- بفطرته وسليقته- حين سمع رسول اللهρ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال: «**هذا أمر تكرهه الملوك!**»؛ بل وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: «**إذن تحاربك العرب والعجم**».

لقد كان هذا العربي وذاك يفهمان مدلولات لغتهم، كانا يفهمان أن شهادة أن لا إله إلا الله تعني ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً، فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أن لا إله إلا الله، مع الحكم بغير شرع الله! فيكون هناك آلهة مع الله! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم من يدعون أنفسهم «مسلمين» ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل!

ولأهمية هذا اللقاء وهذه المواجهة، قد سجلها القرآن في مواضع كثيرة اختلفت بسطاً وإيجازاً ولكنها لم تختلف من حيث المحتوى والمضمون والموضوع؛ فلقد حاول فرْعون بكلِّ وسيلةٍ أن يخرج

من حوار الفكْرة إلى اتِّهام الشخص، ولكن موسى – عليه السلام – استطاع في كلِّ مرَّة أن يُعيد الحوار إلى الفِكْرة، وأن يتجاوز محاولات "الشَّخصنة "حتى انتصر.

تعالوا بنا نشاهد ما حدث عن قرب ...

مناظرة موسى مع فرعون

دخل موسى وهارون إلى حيث يجلس فرعون وملؤه وحاشيته، وسط نظرات احتقار – متبادلة – من فرعون وملئه لموسى وهارون، نظرات رسمت على وجوه الحضور عدة أسئلة لعل أبرزها ما الذي جاءا في طلبه ؟!، وما الذي حدث لموسى طوال هذه الفترة من الزمن ؟!، ولماذا عاد وهو يعلم أننا سنقتله بالرجل الذي قتله ؟!، وما هذه الملابس الرديئة التي يلبسها موسى، وما هذه العصا التي يمسكها بيده ؟!!

نظرات قصدوا بها هزيمة موسى – عليه السلام – نفسياً قبل أن يبدأ بالكلام؛ وبعد لحظات الصمت المشحون بكل هذه الأسئلة، أشار فرعون بأصبعه لموسى كي يقترب، ثم بدأ بالكلام معه متجاهلاً هارون، وموجهاً كلامه لموسى فقط قائلاً: ما الذي جاء بك ؟!!

فقال موسى بكل ثبات وثقة: لم آتيك وحدي، بل جئتك أنا وأخي برسالة من السماء أمرنا الله بتبليغها لك: ﴿ **إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إسرائيل وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إلينا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ طه:48، فلتدع بني إسرائيل وشأنهم، لنمضي بهم إلى حيث يشاء الله، بعيداً عن محيط ملكك وسلطانك، والسلام ينتظر كل من اتبع الهدى الذي معنا، كما أن العذاب ينتظر كل من يرفضه.

ثم سأله موسى فقال:﴿ **... هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى** ﴾ النازعات:19.

الجولة الأولى

فرد فرعون تاركاً مضمون الفكرة – وكأنه لم يسمع شيئاً – بل وكأنه لا يرى هارون واقفاً أصلاً، مشيراً بسبابة الاتهام إلى موسى قائلاً: ومن أنت حتى تجيء إلينا اليوم في صورة مبعوث سماويّ تريد هدايتنا؟ ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**﴾ الشعراء:18، ألست ربيب نعمتنا، وغذيّ فضلنا وإحساننا؟ كيف تجئ إلينا من هذا العلوّ، وتطلب إلينا هذا الطلب، الذي هو من خاصة شئوننا، ومن بعض سلطاننا في رعيتنا؟

ثم كيف تتحدث معي بهذه الجرأة وقد سبق ﴿ **وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ**﴾ الشعراء:19 من الاعتداء بالقتل العمد على أحد رجال قصري الأبرياء ﴿ **وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ الشعراء:19 بنعمى وإحساني عليك !!

وظن فرعون بعلو صوته أن هذه الكلمات نزلت كالأسهم ترشق جنبات موسى لتغتاله نفسياً فموسى بالفعل ارتكَبَ هذه الأخْطاء في حياته السَّابقة، وقد وُضِع الآن في مأزق الفضل، كما وضع في مأزق "البدعة"؛ فلقد لبِث سنين من قبل في مصر ولم يجهر بمثل هذه "الأفكار الدخيلة" كما يسميها فرعون؛ وقد كانت هذه أولى مُحاولات فرعون لـ "شخصنة الموضوع".، ولكن هيهات.. هيهات .. فموسى يقف في معية الله الذي أطلق لسانه بكلمات قصيرة وبليغة جعلت اتهامات فرعون له تنقلب ضده وتشل لسانه عن فتح هذا الموضوع مرة أخرى.

فقال موسى معترفاً: ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِينَ**﴾ الشعراء:20، إذ كانت هذه الفعلة التي تستنكرها وتتحاشى أن يذكرها لسانك أثر من آثار تربيتي في قصرك ومجتمعك الذي لا ترعى للدماء فيه حرمة، وأنت من رباني على هذا، ومع ذلك أنا لما قتلته خطأ وبلغني أنكم تتآمرون عليّ، ما وجدت بُداً من الفرار ﴿ **فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ**﴾ الشعراء:21، طالباً النجاة لنفسي، هارباً من هذا الظلم الممنهج في دولتكم ﴿ **فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ**

الْمُرْسَلِينَ﴾ الشعراء:21، فرأيت الهدى وأبصرت النور الذي لو بقيت فيكم أبد الدهر ما نالني أبداً.

ثم عاد موسى بالحوار إلى موضوع الرسالة التي ترفض الاستعباد وتسعى لكسب الحرية فقال: وأي نعمة تمنها عليّ في بقائي عندك؟ ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا على أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إسرائيل**﴾ الشعراء:22؛ هل تربيتي عندك بعيداً عن أبويّ نعمة ؟!

لقد كانت تربيتي في بيتك وليداً من جراء استعبادك لبني إسرائيل، وقتلك لأبنائهم، مما اضطر أمي أن تلقيني في تابوت سحبه الماء إلى قصرك، فتربيت في بيتك بعيداً عن بيت أبويّ !

فهل تربيتي بعيداً عن أبويّ نعمةً تمنّ ؟! هل عطفك على فرد وإذلالك لشعب كامل نعمة تُمنّ ؟! هل هذا هو فضلك العظيم؟!

كلمات جاب صداها الرنان كل ركن من أركان قصر فرعون، قالها موسى بطريقة لبقة ذات اتزان في الصوت، وتناسق في الحركات والإشارات، فقلب الاتهامات الموجهة له إلى سكين ذبح بها غرور فرعون – من الجولة الأولى – فأصبح الطالب مطلوباً، والمدّعِي متّهماً.

الجولة الثانية

فاضطرَّ فرعون أن يعود إلى الفكرة ولكنَّه قفز على موضوع اضطِهاده لبني إسرائيل، متجاهلاً اتهامات موسى له، ناقلاً الحوار بعيداً عن هذا المجال الذي خسره، وسأل عمَّا ظنَّ أنَّه يُمكن أن يجادل فيه فقال منكراً ومتهكماً:﴿ **فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى**﴾ طه :49، الذي تصفه بأنه ﴿ **رَبُّ الْعَالَمِينَ !!**﴾ الشعراء:16

فأعطاه موسى جوابًا واضحًا وعمليًّا، ولم يحاول تقديم" تعريف نظري"، أو أن يصِف الله بما يمكن أن يدَّعيه فرعون؛ فقال موسى: إنه رب هذا الكون الهائل الذي لا يبلغ إليه سلطانك ولا علمك﴿ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ**﴾ الشعراء:24.

فنظر فرعون لمن حوله ساخراً من كلام موسى وقال:﴿ **أَلا تَسْتَمِعُونَ!!**﴾ الشعراء:25، إن موسى طريح الماء أصبح رسولاً ! ثم ضحك ضحكات متصاعدة، وضحك من حوله لضحكه سخرية من موسى عليه السلام ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾ الزخرف:47.

لم يعبأ موسى بضحكاتهم وسخريتهم منه وواصل حديثه الذي قطع ضحكاتهم وزلزل قلوب بعضهم فقال:﴿ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ الشعراء:26، الذي كان يرعاكم ويرعى آباءكم قبل أن يولد فرعون! فمن كان من قبله إلا الله رب للعالمين ؟!

وكانت هذه الكلمات قاصمة لفرعون فما طاق عليها صبراً؛ فقطع فرعون صمتهم الذي تحركت فيه عقولهم وقلوبهم، وعاد إلى"شخصنة" الحوار واتِّهام المتحدث فقال: مالكم تستمعون إلى كلامه وكأنه عاقل﴿ ... **إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إليكُمْ لَمَجْنُونٌ** ﴾ الشعراء:27.

ولكن يبدو أن اتهام فرعون لموسى بالجنون لم يرُق لبعضهم، فما هذا بكلام المجانين؛ فتوجهوا لموسى بأنظارهم كأنهم يقولون له: أكمل.. أكمل!

فقال موسى– عليه السلام – وهو يتصفح وجوههم ويهز عقولهم: إن ربي يملكُ فرعون وما ملك، فإن لربي مُلك ما أشرقت عليه الشمس وغربت ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ الشعراء:28، فخيم الصمت على الحضور حتى كاد دبيب النملة على الأرض أن يُسمع!

فاسترسل موسى في وصف ربه فقال: ربي الذي أوجد الوجود وخلق الخلائق، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، من حيث كبر الجسم وصغره وتوسطه ﴿ **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ طه:50، فبعد أن خلق ربنا المخلوقات هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، فتجدون الطفل يخرج – وهو لا علم له– فيرضع من أمه بفضل هداية الله له، وتجدون النحلة تطوف لتجمع

الرحيق من كل مكان ثم تعود به إلى خليتها ولا تخطئها، وتجدون الأسد الهصور رحيماً بأولاده، فهل فرعون هو الذي هدى هؤلاء إلى هذه الأعمال؟

فقطع فرعون إنصاتهم لموسى للمرة الثانية، ونقل الحديث إلى موضوع آخر، ليقطع على موسى ترتيب أفكاره ويشتت ذهنه ﴿**قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾ سورة طه:51، أين ذهبت، وما قصتها ؟.

ففهم موسى – عليه السلام – أن فرعون بخبثه ولؤمه يريد أن يبعده عن غايته التي جاء من أجلها، فكانت إجابته مختصرة جداً ﴿ **قَالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى**﴾ طه:50، ثم توجه بنظره مرة أخرى للملأ من قوم فرعون ليعرفهم بإلهه فقال أما إلهي فهو: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**﴾ طه:54.

لقد فطن موسى إلى ما يريده فرعون، فصمم على هدفه ولم يلتفت للفرعيات التي حاول أن يقحمه فيها.

الجولة الثالثة

نفذ صبر فرعون، وجن جنونه، فقد استطاع موسى بأدبه الجم، وبراعته في العرض أن يوقظ ضمائرهم وينشط عقولهم، وإن كل طاغية ظالم لا يخشى شيئا كما يخشى من يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينتقم من أحد كما ينتقم من هؤلاء الذين يهزون الضمائر ويزلزلون القلوب؛ فقرر أن ينهي الحوار، وينتقِل من قوَّة المنطق — التي فشل فيها – إلى منطق القوَّة؛ فقام من على عرشه واقفاً يصرخ في موسى صرخة تهديد ووعيد هزت أركان القصر، قائلاً:﴿ **لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ** ﴾ الشعراء:29.

فقال موسى – عليه السلام – مستخدماً أسلوب الإثارة والتشويق: ﴿ **قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ** ﴾ الشعراء:30، يدل على أنني رسول من عند رب العالمين ؟!

لقد تحسس موسى نقاط الضعف عند خصمه – فرعون– قبل أن يناظره ولمس منه فضولاً زائداً، بدا واضحاً عندما عاد إلى مصر وأرسل لقصر فرعون طلباً لمقابلته وقد حظي طلبه بالقبول السريع! ففرعون يريد بفضوله أن يعرف السبب الذي جاء من أجله موسى فأخفى موسى ورقته الأخيرة — سر العصا — ليثير بها فضول فرعون إذا أراد أن ينهى اللقاء، أو إذا تأزم الحوار، فلما جاءت تلك اللحظة قال ﴿ **أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ** ﴾.

لذا سال لعاب فرعون شوقاً لرؤية ما يخفيه موسى فقال بلهفة: ﴿ **إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ الشعراء:31.

فرفع موسى عصاه ليحشد نظر الحاضرين إليها – فنظر فرعون ساخراً– فألقى موسى العصا على بلاط القصر، فاضطربت العصا وخرج منها رأس ثعبان، وكسي خشبها بجلد، وتضخمت، وازداد طولها وعرضها ﴿ **فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** ﴾ الشعراء:32، نافخاً أوداجه، فاغراً فاه حتى بدا لسانه المشقوق، مصدراً فحيحاً مفزعاً ..

توقف الزمن لدقيقة قبل أن يشرع فرعون بالرجوع خطوة للوراء ..

فازداد الثعبان منه اقتراباً وعلواً حتى باتت عيناه المشقوقتان في مستوى رأس فرعون، ثم اهتز هزة عنيفة للأمام وصاح بفحيحه المفزع مرة أخرى ..

فما كان من فرعون إلا أنه هرول مسرعاً نحو عرشه يجلس عليه منكمشاً خائفاً، واضعاً رأسه بين رجليه يستنجد بموسى أن يبعد هذا الثعبان عنه؛ فانفضح أمر فرعون في نظر حاشيته لما بدا منه من خوف وذعر.

فلمس موسى – عيه السلام – ذيل الثعبان فانكمش وعادت عصاه كما كانت من فرع خشبي عتيق !

ومع نظرات انبهار ودهشة خرجت من أعين الحضور قال موسى: هذه هي معجزتي الأولى، أما الثانية فهذه يدي انظروا إليها!! – يرفعها أمامهم يستجمع بها نظرهم – ثم أدخلها في فتحة قميصه، ثم أخرجها ﴿ **فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ الشعراء:33، ترسل ضوءا مشرقاً كضوء الكوكب الدري في فحمة الليل، فازداد انبهار الحضور بموسى وإعجابهم به.

وهكذا ضُرب فرعون ضربة قاضية، ولم يدع له موسى – في الجولات الثلاثة - فرصة واحدة ليلتقط أنفاسه، فأصبح عاجزاً أمام براعة عرض موسى ومعجزتيه، ولكنه حفظاً لماء وجهه، مسح العرق المتصبب من جبينه واستجمع كلمتين يحاول بهما أن ينجو من المأزق الذي وقع فيه فقال:

ما لي أراكم لا تنطقون؟ سَحَرت أفاعيل هذا الساحر أعينكم ؟ ربيب القصر، ابن الخرائب يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ثم قال: ﴿ **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى**﴾ طه:58.

فنظر موسى إلى هارون، وتبسم ساخراً من حالة فرعون التي لا يرثى لها، ثم قال: ﴿ **مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ طه:59.

ثم تركهم وانصرف مع هارون وهم في حالة ذهول تام مما رأوا، فصرخ فيهم فرعون قائلاً:

اعلما، لقد بدأتما حَرباً، عليكما تحمُل عواقبها، ومن ورائكم كل من يؤيدكما من قبيلتكم.

فلم يكترثا لكلامه .. وأكملا سيرهما ..

في طريق الخروج رافق الحرَّاس الأخوين عن بعد، ينظرون إليهما بهيبة وللعصا برعب، حتى مر موسى بالقرب من مسكنه الذي تربى فيه، فوقف يتأمله، جناحاً ملحقاً باستراحة الملكة "آسية"، التي وقفت منذ علمت بدخوله القصر تنتظره كي تطمئن عليه عندما يخرج.

آثار النعيم الذي تحيا فيه لم تغير من ملامحها شيئاً رغم مرور الزمن ..

احتضنت ولدها موسى فقبلها بين عينيها ..

قالت له: حسبت أنني لن أراك ثانية، حتى هرعت إليَّ خادمتي وأخبرتني بخبر ظهورك المفاجئ، أنسيت أمك يا موسى ؟

فقال لها: عار عليَّ أن أنساكِ يوماً، وأنتِ كل ما بقي لي في ذلك المكان.

قالت له: أين كنت هذه السنوات، وما الذي جئت في طلبه من فرعون ؟

نظر موسى للحراس الذين حاصروه وبدئوا يدفعوه للأمام ليلحق بأخيه هارون، ثم التفت لها وهم يجروه للخارج قائلاً:

لا أظن أن الحراس سيصبرون على بقائي داخل الأسوار إلى أن أخبرك، ولكنك ستعلمين من الخدم والحشم كل ما دار بيني وبين فرعون قبل قليل فقد استمعوا لمقالتي وعاينوا ما معي، ولنا موعد ولقاء يوم الزينة.

اجتماعات الملأ لاحتواء الأزمة

اجتمع فرعون بالملأ من حاشيته ورجال دولته في اجتماع استشاري، ليتباحث معهم ما يجب عليهم فعله تجاه هذه الأزمة؛ وكانت الكلمة الأولى –كالعادة – لفرعون وقد بدا فيها تغيراً في طريقة إدارته للأزمات ﴿ **قَالَ لِلْملأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عليمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ الشعراء:35، فهو يُسلم أن الأرض أرضهم وليست ملكه كما

يدعِي؛ وبما أن الأرض أرضهم، وموسى يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره، فالأمر إذاً أمرهم فماذا يرون؟ وبم يأمرون؟!

ولا تعجب! فهذا هو دأب الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجئون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم جبابرة مستبدون ظالمون! .

فردد الملأ – بلا وعي– ما قاله فرعون بالحرف:﴿ **قَالَ الملأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عليمٌ** ﴾ الأعراف:110، يقوم سحره على علم ومعرفة لعله تعلمها خلال السنوات التي قضاها في مدين ثم جاء ﴿ **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ** ﴾ الأعراف:110، إذاً فقد أصبح مصدر خطر عظيم علينا وعلى مكانتنا ﴿**فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ ؟! الأعراف:110.

فعادوا إلى نقطة الصفر مرة أخرى؛ وذلك لأن فرعون لم يعودهم من قبل على اتخاذ أي قرار؛ فقد كان الأمر أمره والنهي نهيه وقوله لهم: ﴿ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ خروج على المألوف بينه وبينهم، فما اعتادوا أن يسمعوا منه غير كلمة واحدة: ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ غافر:29، ولكنها الصدمة التي قلبت حياته وحياة من حوله.

توصيات الاجتماع

فقال أحدهم: أنا أرى ألا نتصدى لهما، ولا نعتدي عليهما حتى لا يتعاطف الناس معهما، ولكن رأيي المتواضع لجناب الفرعون هو ألا تقتله و﴿ **أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** ﴾ الأعراف:111، اتركهما بحريتهما إلى يوم الزينة ﴿ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عليمٍ**﴾ الأعراف:111، وبهذا نكون أبطلنا سحراً بسحر مثله .

فهز فرعون رأسه بإبداء الموافقة على هذا الرأي، وكلف فريقاً مختاراً بعناية لمهمة جمع أمهر السحرة وحشرهم أمراً وجبراً إلى العاصمة ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عليمٍ** ﴾ يونس:79، كما كلف أذرعه الإعلامية بعمل الدعاية اللازمة لجمع أكبر عدد من المصريين لحضور هذه المباراة بين موسى والسحرة.

جمع السحرة

وبدأ رجال فرعون على الفور بجمع السحرة، وبعد فترة قليلة بدأت حشودهم تتوافد على المكان المخصص لاستقبالهم في العاصمة المصرية، وليس مذكورا فيما اطلعت عليه من مصادر ما إذا كان المواطن المصري اندهش من عدم التكافؤ العددي فتساءل: ما الداعي لجمع هذه الحشود من السحرة المتخصصين لمواجهة رجليْن فحسب ؟!

المهم أن المكان عج بكثرة السحرة الذين قدروا بالآلاف[1]، وقد علموا أنهم سيواجهون رجلاً اسمه موسى يُخرج من عصاه ثعباناً ومن يده نوراً؛ فالرواية الرسمية التي تناقلتها وسائل الإعلام هي ظهور ساحريْن أثارا بعض المشكلات ويُتوقَّع أنهما قد يمثلان خطرا على استقرار البلاد، ورغبة من فرعون في الشفافية وإنهاء الوضع بصورة سلمية؛ فقد قررت الدولة إجراء مناظرة عامة بينهما وبين المتخصصين في هذا المجال، ومن هنا وقع في أنفسهم أنهما ساحرين مثلهم، وأنّهما إذا كانا على شيء من القوة بالنسبة لهم، فإن في جمعهم هذا ما يتغلب على كل قوة.

فراودتهم فكرة فقالوا: بما أننا سنخلص فرعون من هذين الساحرين، فما المانع أن نطالب بأجر إضافي؟ فاجتمعوا على هذا الرأي؛ وأرسلوا منهم من يطمئن فرعون بالنصر المظفر ويتفاوض معه

---

[1] اختلف العلماء في عدد السحرة الذين جاء بهم فرعون لمقابلة موسى عليه السلام، فذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية ج1، ص254 بعضاً من هذه الأقاويل فقال: كانوا سبعين ألفا كما قال القاسم بن أبي بردة، وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفا، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفا، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهم كانوا سبعين رجلاً من كبار السحرة أصبحوا كافرين وأمسوا مؤمنين".

قلت: قد جمع فرعون آلاف السحرة الذين حضروا جميعاً في ساحة يوم الزينة، وتقدم من هذا الجمع الكبير أمّهر المهرة منهم للنزال أمام موسى، وكان من نزل منهم نحو العدد الذي ذكره بن كثير عن بن عباس رضي الله عنه، أما من اتبعوا موسى بعد ذلك سواء كانوا نازلوه في الساحة أو اكتفوا بمشاهدة أمهرهم عندما غلبوا؛ فهم عدد كبير لا يعلمه إلا الله.

على بعض العطايا بعد هذا النصر المتوقع ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** ﴾ الشعراء:41.

وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لهم بعقيدة، ولا صلة لهم بقضية، بل لا يوجد شيء يشغلهم سوى الأجر والمصلحة؛ وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائما لتزييف وعي الجماهير.

ولا يملك فرعون في هذا الموقف إلا أن يستجيب لهم، ويترضّى مشاعرهم، وقد كانوا من قبل هذا الموقف عبيداً مسخّرين رهن إشارة منه يعملون بلا أجر﴿ **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ الشعراء:42، فليس المال فقط الذي سيبذله لهم إن هم انتصروا على موسى وأبطلوا كيده، ولكن لهم إلى جانب هذا المال الوفير الذي سيغدقه عليهم أن يقرّبهم إليه، ويدنيهم منه، ويجعلهم أعوانه، وأصحاب الكلمة والرأي عنده.

حشد الجماهير

وبدأت مؤسسات الدولة في كل مدينة وقرية وشارع يحشدون الجماهير لحضور يوم الزينة في العاصمة[1]﴿ **وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ** ﴾ الشعراء:41،وهذا الحشد للناس غايته، هو شدّ أزر هؤلاء السّحرة، وإلقاء الرعب في قلب موسى بهذه الحشود الضخمة التي تتربص به، وتنتظر الهزيمة له، لتسخر منه أو لتفتك به !.

ويظهر من التعبير حركة الإثارة والتحميس للجماهير بقولهم: «**هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ؟**» هل لكم في التجمع وعدم التخلف عن الموعد، لنترقب فوز السحرة وغلبتهم على موسى الإسرائيلي الذي يزعم أن له إله غير فرعون !

---

[1] يوم الزينة هو أحد أعياد المصريين القدماء، وأعتقد أنه يوم احتفالهم بعيد الربيع "شم النسيم" فقد كان المصريون – وحتى الآن – يخرجون إلى الساحات الخضراء للاحتفال بتفتح الزهور واكتساء الأشجار بأوراقها وزهورها، لذا سمي بيوم الزينة، وهو أول عيد مصري يأتي بعد فصل الشتاء الذي دخل فيه موسى لمصر. (بتصرف يسير من كتاب حقيقية بني إسرائيل في مصر – عادل حسين – ص31) .

وهكذا استطاع فرعون ونظامه حشد عدداً كبيراً من المصريين ومازال الحشد مستمراً، فكلما زاد العدد تحمس السحرة ونشطوا لإرضاء فرعون وإرضاء مشجعيهم، وهزم موسى نفسياً قبل أن تبدأ المباراة؛ فهو وحيد وسط هذه الحشود الضخمة !

وكذلك ليضمن الدعاية الكافية – في حالة انتصار السحرة – أن فرعون الإله لا يهزم أبداً، فيحقق السطو الفكري على عقول العامة، ويضمن لنفسه الحكم لعقود جديدة دون أدنى احتمال للتمرد أو ظهور موسى جديد !

ولعل هذه هي أهم أسباب حرص فرعون على جمع هذه الحشود من الجماهير.

التضليل الإعلامي

وبما أن هناك جزءاً من الشعب المصري قد لا تشغله المباريات والحفلات وأمثال هذه الأمور فقد حرص فرعون على استدعائه بطريقة أخرى؛ وهي إذاعة الأخبار الكاذبة وترويجها، حتى إذا سمعوها ثاروا وانتفضوا وتحركوا، فأذاعت أذرع فرعون الإعلامية أن موسى وهارون ﴿ .. **يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى** ﴾ طه:63؛ والغرض الواضح من هذه الرسالة هو تحريض الشعب ضد موسى وهارون.

فالإعلام الفرعوني لم يكتفِ بعدم الحياد والبعد عن المهنية عندما أمر الشعب بالنزول لإتباع السحرة إن كانوا هم الغالبين وفقط، بل اتبع سياسة قلب الحقائق ونشر الشبهات لتضليل الرأي العام، فاستغلوا ارتباط البسطاء من الشعب المصري بأرض مصر ونيلها، وخوفهم من إعادة حكم الغرباء – تجربة الهكسوس – فنشروا أكذوبة أن موسى يسعى للاستيلاء على الأرض والوطن ليهيمن على مقاليد الأمور فيها، ويبسط نفوذه وسلطانه هو وعشيرته من بني إسرائيل، بعدما يقصى المصريين ويخرجهم من أراضيهم !

واستمرت هذه الحملة التحريضية إلى أن ردد الشعب كلامهم ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ**﴾ سورة يونس: 78.

وقد سبق وأن قال فرعون هذه المقولة لموسى عندما تناظرا في قصره فقال له: ﴿ **قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى** ﴾ طه:57، ثم قالها لحاشيته ووزرائه المقربين منه ﴿ **قَالَ لِلْملأ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عليمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ الشعراء:35، ثم رددها الملأ في اجتماعاتهم وندواتهم ولقاءاتهم الجماهيرية والإعلامية ﴿ **قَالَ الملأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عليمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ الأعراف:110، ثم نشروها بين الناس ﴿ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**﴾ طه:64.

وهكذا يَكذب فرعون الكَذِبة، ويرددها نظامه، وتلوكها أذرعه الإعلامية صباحاً ومساءً، إلى أن يصدقهم الشعب المسكين وتثار حميته لا لإلوهية فرعون المهددة بدين موسى الجديد؛ وإنما دفاعاً عن مصالحهم الاقتصادية المهددة بالانهيار إذا أُخرجوا من أرضهم كما يريد موسى!

فاستطاع فرعون بإعلامه أن يدخل الشعب كله في معادلة ليسوا طرفاً فيها، بعدما غرس فيهم بذور العداء والانتقام من هذين الساحرين "موسى وهارون"؛ بالرغم أن موسى لم يطلب سوى إخراج أهله من بني إسرائيل لرفع الظلم عنهم، ولكنها كما قلت سياسة تضليل الرأي العام.

الاستعداد ليوم الزينة

والآن انتهت أجهزة الدولة من استثارة فضول الجماهير واستنفارهم لحضور هذا اليوم، واستعداء بعضهم على رسالة موسى؛ والآن بدءوا يهيئون الساحة التي ستتسع لكل هذه الحشود الغفيرة من الجماهير، وإعداد مكان آمن يجلس فيه فرعون وزوجته آسية وكبار رجال الدولة، كما أعدوا مكاناً

مخصصاً لمعدات السحرة[1] من عصيّ وحبال ومكاناً واسعاً ليستطيعوا أن يقفوا فيه ويعرضوا فقراتهم السحرية بوضوح.

وقد لخص القرآن كل ما قاله فرعون وما أشار به الملأ من قومه، وما دار بينه وبين السحرة من تشجيع وتحميس ووعد بالمكافأة، وما فكر فيه وما دبر هو ومستشاروه في قوله ﴿ **فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى**﴾ طه:60.

يوم الزينة .. يوم انتصار الحق

النفس عادة في يوم العيد تكون مسرورة مبتهجة، وبالتالي يكون صاحبها أقرب لقبول الحق من أي وقت آخر، وقد اختار موسى وقت الضحى لتكون الرؤية أوضح، والجمع أحشد، والشهود أكثر، فتكون المقاضاة لفرعون على الملأ أمام الخلائق، ويتناقل الناس فضيحته من أول اليوم إلى آخره.

وصل الرسولان إلى الساحة المتفق عليها، فإذا بمئات الآلاف من المصريين يملئونها، ويجول موسى ببصره في هذه الساحة الواسعة ويذهل من تلك الحشود الضخمة من عوام المصريين التي جاءت تهتف باسم الفرعون، رغم ما تجرعوه من مرارة العيش في عصره؛ ولكن لا عجب! "**فالعوام هم قوت المستبدُّ وقوته؛ بهم يصول وعليهم يطول! يأسرهم فيتهللون لشوكته؛ ويغصب أموالهم فيحمدون حكمته؛ ويُهِينُهم فيثنون على رفعته؛ ويغري بعضهم على بعض فيفتخرون بسياسته؛ إذا أسرف في أموالهم قالوا كريماً؛ وإذا قتّل منهم ولم يمثِّل بالجثث اعتبروه رحيماً**"[2].

فعاليات اليوم

---

(1) قيل أن هذه المعدات من عصي وحبال نقلت على سبعين بعيراً إلى ساحة يوم الزينة. انظر تفسير الشعراوي – سورة الأعراف: الآية 120 .

(2)بتصرف يسير من كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد / عبد الرحمن الكواكبي صفحة 50.

حين أضحى النهار نُفخ في البوق نفخة طويلة ومميزة مما يعني أن أمراً ما سيحدث ..

ترقب الناس حتى لاح موكب فرعون وكبار رجال دولته عن بعد، يسبقه حراس يفرقون الناس إلى الأطراف ويأمرونهم بالسجود لجلالة الملك الإله !

توقفت عربة هامان فنزل منها، ثم باقي عربات الملأ، ثم اقتربت العربة الملكية ..

نزل منها فرعون بزيٍّ مزركش مُرصَع بالذهب، وفوق رأسه التاج وفي يده سيدة مصر الأولى السيدة آسية بنت مزاحم زوجته المحببة والمقربة إلى قلبه، نظر فرعون للرؤوس الساجدة، والظهور المنحنية في ذلة وصغار قبل أن يتجه إلى المنصة ليجلس على عرشه المذهب.

أشار فرعون لحامل البوق أن ينفخ فيه نفخة أخرى ليرفع الناس رؤوسهم .. وهنا اقترب هامان من فرعون وهمس في أذنه:

- المنصة جاهزة لكلمة معاليك يا فخامة الزعيم !

وبدأت فعاليات اليوم بكلمة يلقيها فرعون أمام هذه الجماهير الحاشدة مستخفاً بوزنهم، ومستغلاً لجهل بعضهم ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ الزخرف:54، فما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً، وإنما هي الجماهير الغافلة الذلول, يمتطيها فيركبها! وتمُدُ له أعناقها فيجُرها! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم؛ فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها.

كلمة فرعون في يوم الزينة

بدأ فرعون كلمته بقوله: **أيها الناس أنا ما علمت لكم إلهاً غيري، ولا معبوداً سواي، أيها الناس** ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** ﴾ النازعات:23.

فاستقبلت الجموع الغفيرة من الشعب هذه الكلمات بوابل من التصفيق الحاد الذي استمر عدة دقائق، وفرعون يبتسم ويهز رأسه، ويشير بكفيه –كفى .. كفى-!!

وما كان فرعون يجرؤ أن يقول هذه الكلمات أبداً لو وجد أمة واعية, تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء! ولكنه لما وجد في شعبه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان, جرؤ على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ فما أسعد كل ديكتاتور يحكم شعباً لا يفكر.

ثم بدأ فرعون يبين لهم سر حضورهم في هذا الجمع المهيب، متغنياً بالحرية والديمقراطية، فلولاهما لكان قتل ربيب قصره - ابن خرائب بني إسرائيل- عندما أتاه هو وأخوه مدعيان أنهما رسولان من عند الله، ولكن من أجل إرساء مبدأ الحرية، جاء بهم إلى هذه الساحة وجمعهم ليسمعوا من موسى ويحكموا عليه، هل هو ساحر أم نبي؟!

المبارزة الكلامية

وفي هذه الأثناء نظر موسى للسحرة الذين يتجهزون لمبارزته! وتقدم نحوهم - قبل بدء المباراة بينهم – ليُذكرهم بالله قبل أن يرتكبوا هذه الجريمة - جريمة مساندة الباطل والدفاع عنه – قائلاً: ﴿ **وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى** ﴾ طه:61.

فتغلغلت كلمات موسى عليه السلام في قلوبهم - فالنصيحة المخلصة تنفذ إلى القلب فتخترقه -؛ فاستشعروا أنهم لا يعادون ساحر، فما هذه بكلمات ساحر أو مشعوذ؛ فدب الخلاف بينهم؛ قال بعضهم لبعض: هذا الرجل ليس بساحر كما قيل لنا، ويبدو أن معه الحق، وتنازع طرف آخر الحديث فقالوا: لا .. بل هو يريد بهذه الكلمات أن يرهبنا فنخسر جولتنا معه وينتصر هو، وقال بعضهم: إن كان ساحراً فسنغلبه بقوتنا وجمعنا وإن كان على حق فسيغلبنا وعندها علينا أن نتبعه ﴿ **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى**﴾ طه:62.

وظل هذا الجدل السري يدور بينهم، حتى قطعه أحدهم فقال لهم: هل نسيتم ما قاله فرعون وهامان: ﴿ **إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى**﴾ طه:63، فتنبهوا لهما ولا يغرنكم معسول كلامهما ﴿ **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ اسْتَعْلَى**﴾ طه:64.

فوحد بهذه الكلمات صفوفهم، وشد بها من عزمهم..

ثم راحوا ينظمون طريقة عرض سحرهم، وهم يتعاهدون أن يبذل كل واحد منهم قصارى جهده في عمله، ولا يخفي شيئاً مما تعلمه من السحر حتى تنتهي المباراة بعلوهم وانتصارهم.

وبعد أن تجهزوا ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى**﴾ طه:65، فرد موسى– بكل ثقة في نصر ربه – مستهيناً بما معهم: ﴿ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** ﴾ يونس:80.

إنهم أعطوه الفرصة، فردها عليهم، ليُظهروا كل ما عندهم فيها، وكان ذلك عن حكمة وتدبير وتقدير؛ فلو بدأ موسى– وقد جعلوا هم الأمر إليه في اختيار من يأخذ المبادرة– لكان غير عادل معهم، إذ بدءوه بالإحسان! ولهذا فقد ردّ إليهم إحسانهم بإحسان، وأعطاهم حقّ المبادرة التي كان له أن يأخذها لنفسه.

ثم– من جهة أخرى– إن موسى عليه السلام كان واثقاً من تأييد الله ونصره له في هذا الموقف؛ فلو بدأ هو الجولة، وضرب السحرة ضربته، وأوقع بهم الهزيمة من قبل أن يعطوا ما عندهم ويبذلوا جهدهم، لقال الناس: لو أن السحرة أظهروا السّحر الذي في أيديهم أولا، لشلّوا حركة موسى، وضربوه الضربة القاضية، ولكنه بدأ قبلهم فكانت الضربة له، ولم تكن لهم!!

وهذا قول من السهل أن يقال وينتشر بين الناس في مثل تلك الحال، فتفاداه موسى بحكمة ربانية.

وتبدأ المعركة

ضُربت الطبول بهدير هزَّ الصدور، ونفخت النايات، وأعطى هامان لهم إشارة البدء ..

﴿ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** ﴾ الشعراء:44.

فأعجب فرعون بهذه الكلمة وهز رأسه فرحاً ورضاً عمن قالوها ..

رفع السحرة أيديهم للسماء بقبضات مُغلقة، ثم ظلوا يرددون كلمات مبهمة، ثم فتحوا كفوفهم ونثروا منها شيئاً على عِصِيُّهُم وحبالهم التي ألقوها على الأرض، فاهتزت ثم تموجت وتلوت ببطء كأنها ثعابين وحيات تسعى[1] ﴿ **فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إليه مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** ﴾ طه:66، ضربت الدهشة الرءوس .. حبال وعِصِي تتحول إلى ثعابين لامعة، إذا رفع السحرة أيديهم لليمين وللشمال فتتحرك تبعاً لأوامرهم! ﴿ **فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ** ﴾ الأعراف:116.

فوقف الناس مشدوهين منبهرين، ومنهم من صاح فرحاً، ومنهن من علا صوتها بالزغاريد، وضجت الساحة بفرحة كبيرة لِما كان من عرض رائع للسحرة وصفه الله فقال:

﴿ **وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ الأعراف:116، فقد نجحت هذه النخبة من السحرة في قلب صورة "الحبال والعصي" في أعين الناس لتبدوا لهم حيّات وثعابين عملاقة؛ وعلى نفس طريقة التزييف هذه، يقوم بعض إعلامي عصرنا الذين بلانا الله ببعضهم بإيهام الناس بأمور لا أساس لها من الصحة، فما يلفقونه في وسائل الإعلام للدعاة والمصلحين يبدو كأنه حقيقة للوهلة الأولى، ولكن ما يلبث أن يكتشف الناس زيفه لاحقا.

---

(1) علماء الحيوان يفرقون بين الثعابين والحيات رغم تأكيدهما أنهما من فصيلة واحدة، إذ يقولون على سبيل المثال: أن الحية دائما تكون أصغر من الثعبان. قلتُ: وكلمة (حيَّة) لم تُذكر في القرآن إلا مرة واحدة عندما أمر الله موسى أن يلقي العصا وهو في الوادي المقدس، فتحولت إلى حية تسعى؛ وهذا مناسب لسيدنا موسى لأن المطلوب أن يرى معجزة، وليس المطلوب أن يخاف منها، لذلك تحولت العصا إلى حية صغيرة ولم تتحول إلى ثعبان مبين؛ أما كلمة (ثعبان) فقد تكررت في القرآن كله مرتين فقط، وفي كلتا المرتين كان الحديث عندما ألقى موسى عصاه أمام فرعون، وكانت هذه الكلمة هي المناسبة في هذا الموقف لأن الثعبان أكبر وأضخم من الحية والغرض كان إخافة فرعون.

وبعض إعلاميو عصرنا يشتركون مع سحرة فرعون في خصيصة استرهاب الناس وسحر أعينهم وقلب الحقائق رأسا على عقب.[1]

اللحظة الفاصلة

بدأت الجماهير تهدأ، وانحبست الهمهمات ..

وقف هامان وقفة فخر وشموخ، وابتسم له فرعون ابتسامة المنتصر ..

نظر هارون لموسى نظرة تخوف من مآلات الأمور بعد النجاح الباهر الذي حققه السحرة، فارتجف قلب موسى تحت وطأة الشك، ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى** ﴾ طه:67، فجاءته نجدة السماء، فربطت على قلبه، وثبتت قدمه، وذكرته بمقامه ..

لقد استمع لنفس الصوت الذي سمعه عند الشجرة .. سمعه يقول له: ﴿ **لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى** ﴾ طه:86، فهدأت نفس موسى وقرة عينه، وثبتَّ هارون وشد من أزره.

ثم نظر إلى السحرة وأشار إلى ما ألقوه من ثعابين وحيات، وعلا صوته قائلاً:

﴿ **مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ يونس:82، لتجوب هذه الكلمات الصادقة الساحة كلها، فدخلت في أذن كل من حضر وشاهد، فهزتهم هزاً، خاصة قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ** ﴾.

فإن الباطل لينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وإنه في الحقيقة لحقير صغير! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثىء كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كالشمعة.

---

[1] من عجائب تقدير الله، أن يكون في عصرنا الحديث الأداة الرئيسية في توصيل المعلومة هي "الكابلات" التي هي أشبه ما تكون بـ "حبال" سحرة فرعون؛ فما من وسيلة إعلامية (فضائيات– راديو– صحف – انترنت– هواتف) إلا بها وعبرها يتم العمل؛ فالصوت والصورة يمران عبر هذه الكبلات، هذا ما أعرفه حتى هذه الساعة على الأقل، ومن المفارقات أيضاً أن يكون الإعلام (بكل أبعاده وأشكاله) علم قائم بذاته، له رجاله من النخب المقربة جداً للحاكم القوي، ويتلقون الأجر الأعلى من بين جميع النخب الأخرى؛ لا لشيء إلا لقدرتهم الفائقة والفاعلة على سحر أعين المواطنين وإرهابهم بلمح البصر.

حانت اللحظة الفاصلة لبدء الجولة الثانية بتوقيت السماء ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ** ﴾ الأعراف:117، فأغمض موسى عينيه، وسحب نفساً عميقاً لصدره قبل أن يرفع عَصَاه إلى أعلى ليلقيها على أرض الساحة بين حيات السحرة وثعابينهم.

لحظات من السكون أيقظت الهمهمات مجدداً بين الناس، قبل أن تضطرب العصا وتهتز هزة عنيفة، ثم تحولت لثعبان أسود لامِع هو أكبر وأخطر من الذي رآه فرعون في قصره !

اضطرب قلب فرعون، وهلع هامان وانزوى بعيداً، وتيبس السحرة وهم ينظرون لبعضهم البعض غير مصدقين !

أصدر ثعبان موسى فحيحاً مفزعاً وبدأ يتحرك بسرعة البرق نحو ما رماه السحرة على الأرض ﴿ **فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** ﴾ الأعراف:117، فلم تترك حبلاً ولا عصاً إلا التهمته في فمها الضخم، فركض جنود فرعون الذين كانوا يحيطون بأرض الساحة الداخلية من الفزع والرعب، وصرخ الناس تشجيعاً وتحميساً ..

السحرة من التحدي إلى الاستسلام

لحظات رغم أنها مرت بسرعة البرق، إلا أنها أخذت الحاضرين في ذهول ما بعده ذهول، فرعون.. السحرة.. الجمهور.. الكل ينظر ولا يصدق ما يراه !

﴿ **فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** ﴾ الأعراف:119، وبدأ الكل ينكس رأسه ويرفع راية الاستسلام، فهذا هو الحق وما عداه هو الباطل، وأول من أيقن بذلك هم السحرة فلم يتمالكوا أنفسهم، وخروا ساجدين ..

﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ الشعراء:46.

إنه الإيمان لمس القلب فانتفض الجسم كله فجاء النور وأشرق الظلام !

لقد رأى السّحرة شيئا لم يكن من واردات السّحر الذي معهم، واستيقنوا أن ما مع موسى ليس من السحر في شيء، وأنه ليس في مقدور بشر أن يأتي به؛ فهو إذاً عمل من أعمال رب السّماء، وقدر من أقداره، أعطاه لموسى، ليكون شاهد صدق على أنه رسول من ربّ العالمين، فيحق الحق ويبطل الباطل؛ وتلك هي شهادة أهل الخبرة، وأصحاب الكلمة في هذا الأمر، وليس لأحد قول بعد قولهم، شهادة عجز كثير من إعلامي عصرنا على النطق بها, فهم – وعلى عكس الكثيرين منا كمواطنين عاديين – يرون الحقيقة أمامهم في الكواليس، ورغم رؤيتهم للحقيقة التي رآها من قبل سحرة فرعون, إلا أنهم لا يقرون بالحق أمام الناس، ولا يظهرون للناس الحقيقة التي يرونها أمامهم !

أعلن السحرة إسلامهم واستسلامهم أمام هذه القوة الخارقة، وبدأت أصواتهم تتعالى بهتافات يعلنون فيه انضمامهم إلى دين موسى، فهتف بعض السحرة فقالوا: ﴿ **آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ الشعراء:48، وهتف البعض الآخر فقال:﴿ **آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ طه:70

فلك أن تتخيل الساحة وهي تُرج بهذه الهتافات الحارة وبتلك الكلمات الخالدة[1]؛ والنبي موسى عليه السلام يهز رأسه وعيناه دامعتين من الفرح والسرور، قبل أن يضمه هارون إلى صدره ويدور به من شدة الفرح فقد ارتفعت راية الحق عالية خفاقة ..

فرعون ينتفض

أما فرعون ومن معه فهم في ذهول تام مما يرون ! فما دبره دمره؛ وما يراه لم يرد على خياله ! فمن كان يتوقع أن جماعة من رعايا فرعون، وعابديه، الذين ولدوا كما ولد آباؤهم– في ظل ربوبيته،

(1) من اللطائف القرآنية أن السحرة خافوا من قولهم ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دون توضيح؛ أنُ يفهم أنهم يقصدون فرعون إذ سبق وقرر أن يكون رباً للعالمين عندما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ فوضحوا للناس أيُ رب يقصدون فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.

وسلطان ألوهيته - أن يأتي اليوم الذي يقف فيه هؤلاء «العباد» في وجه هذا «الإله» موقف التحدّي، بل والاستخفاف والسخرية؟

ولكنه الإيمان الذي يصنع المعجزات، ويقلب الأوضاع والموضوعات!

والطواغيت الظلمة لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان وحرارة اليقين؛ فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب- وهي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء- ومن ثم فقد فوجئ فرعون بهذا الإيمان الذي لم يسمع دبيبه في القلوب، ولم يتابع خطاه في النفوس، ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر !

حاول فرعون أن يستدرك الأمر، ويشوش على الجماهير الحاضرة تفكيرهم فيما يقوله السحرة، وما رأوه من معجزة عظيمة جعلتهم يستغرقون في تفكير قد يقودهم إلى ما انقاد إليه السحرة؛ فوقف الزعيم يهدر صارخاً بكل قوة، وهو يشير إلى السحرة بإصبع الاتهام قائلاً:

﴿**آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾ طه:71، كيف ؟! كيف تصدقون موسى وتؤمنون بإلهه قبل أن تأخذوا الإذن مني؛ لقد فُضح أمركم أيها الخونة المتآمرون ..

﴿ **إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾ طه:71، وأنتم تنظيمه السري الذي يريد به ضرب استقرار مصر ووحدة شعبها، ﴿ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا** ﴾ الأعراف:123، وقد تواطأتم وتآمرتم معه سوياً ضد مصلحة الوطن للاستيلاء على حكمه، وإن الدولة ستتعامل معكم أيها المتآمرون بكل قوة وحزم وبدون أي تهاون .. ﴿ **فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ الشعراء:49.

ثم استل خنجره، واقترب من كبير السحرة وأمسكه من تلابيبه وقال له قبل أن يلقيه على الأرض: ﴿ **وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى** ﴾ طه:71.

مشيراً إلى ما تهددهم به موسى قبل أن تبدأ المعركة، وذلك عندما قال لهم: «**وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَقَدْ خابَ مَنِ افْتَرى**». طه:61، فالعذاب الذي تهددهم به موسى، هو عذاب مؤجل ليوم القيامة، أما العذاب الذي سيأخذهم به فرعون، فهو عذاب حاضر وسيقع عليهم حالاً.

كلمات بأحكام تحمل من الوعيد ما يزلزل القلوب، ولكن أنىً لقلوب رسخ الإيمان فيها أن تهزها هذه الأحكام، إن النفوس إذا استحكم فيها الإيمان وتغلغل في عروقها؛ ستهون عليها الدنيا بمتعها، وستستهين بما تلاقيه من إيذاء في سبيل ربها؛ فما شاء الله كان – وما لم يشأ – لن يكون أبداً .

صمود وإصرار

وها هي الجماهير تنتظر رد السحرة على فرعون، فلعلهم – بعد ما قاله فرعون – يرجعون معتذرين إليه عما قالوه، لينجوا بأنفسهم من هذا العذاب المنتظر، فإذا بالمفاجأة..

التف السحرة حول كبيرهم، وأقاموه من على الأرض ثم نظروا لفرعون بأعين يملؤها التحدي والإصرار قائلين: ﴿ **قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ** ﴾ الشعراء:51، وبما أن هذه نيتنا وتلك هي رؤيتنا لما تتوعدنا به، لذا نعلنها لك بوضح أكثر.. ﴿ **قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾. طه:73، فالعمر مضى، وقد رأينا فيه من إذلالك لنا ما رأينا، وحقيق علينا الآن وبعدما شاهدنا من آيات ربنا ما شاهدنا، أن ننهي أعمارنا بشرف.

ثم توجهوا بالكلام – الذي ألهموه من ربهم – ليقيموا الحجة عليه وعلى هذه الجماهير العريضة التي انتظرت ردهم فقالوا:

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾.طه:76

وهنا يقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان..

يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام،ولكنه يجدها مستعصية عليه.

تنفيذ الحكم الإعدام

فصرخ فرعون صرخة المهزوم وقال لجنده: اقبضوا عليهم، واربطوهم في جذوع النخل، وامنعوا عنهم الطعام والشراب، ثم اقطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف، واطعموا أمعاءهم للكلاب، ليكونوا لمن خلفهم عبرة وآية.

وبدأ جنوده يتحركون لتنفيذ ما أمرهم به فرعون، والحضور يرقبون الحدث في صمت مخزٍ..

وما أقساه من حكم! إنها قتلة شنعاء، يجد فيها فرعون بعض الشفاء، لما فجعه به هؤلاء السحرة، الذين خذلوه في موقفه من موسى، ثم فاجئوه بإتباعهم له، وإيمانهم بربه؛ وبشاعة هذه القتلة في كون أن تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا يقضي على الكائن الحي فوراً، بل تظل الحياة فيه وقتاً أطول يعالج آلام الموت وسكراته، حيث أن الحركة الدموية ستظل تسري في نصف نصفه العلوي مع نصف نصفه السفلى المخالف له، ليظل القلب يعمل بشريان واحد من شرياني الحياة؛ وقد اختار لهم فرعون هذه القتلة بهذه الكيفية ليطيل عذابهم قبل موتهم.

فقد كان من بشاعة هذه القتلة أيضاً أنهم سيصلبون على جذوع النخل في الشوارع ليعانوا من ألمين، ألم تقطيع أطرافهم، وألم الوقوف أمام الناس أثناء تعذيبهم، فيمر هذا ليسخر منهم، ويمر ذاك

فرميهم بالحجارة، وهذا يتهمهم بالخيانة والعمالة، وهذا يرى ما هم فيه من عذاب فيخاف ويتردد لكي لا يكون مصيره كمصيرهم!

ابتسامة الإصرار وأنشودة الصمود

وقبل غروب شمس هذا اليوم الحزين في تاريخ الإنسانية نُفذ فيهم حكم فرعون، وقُتل السحرة أمام الناس، وهم في قمة الصمود والثبات، وسالت دماؤهم الذكية على أرض مصر، ليقيموا الحجة على كل من يرى الظلم ويسكت عليه، ويرى الفاسد ويحابيه، ومضى هذا المشهد المفزع في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري واستعلائه على قيود الأرض وسلطان الظلم، طمعاً في رضا الله والجنة.

والله لو سافرت أرواحنا عبر الزمن إلى هناك لرأينا ألسنتهم تُتمتم بأدعية تستمطر من السماء مزيداً من الصبر لتحمُّل تقطيع السيوف لأيديهم وأرجلهم قائلين: ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ علينا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ**﴾ الأعراف:126، ولسمعناهم يرددون وهم يعذبون أنشودة الإصرار والصمود:

ضع في يديّ القيد ألهب أضلعي بالسوط --- ضع عنقي على السكّين

لن تستطيع حصار فكري ساعةً --- أو نزع إيماني ونور يقيني

فالنور في قلبي وقلبي في يديْ ربّي --- وربّي ناصري ومعيني

سأعيش معتصماً بحبل عقيدتي --- وأموت مبتسماً ليحيا ديني

صبراً أخي في محنتي و عقيدتي --- لا بد بعد الصبر من تمكين

و لنا بيوسف أسوة في صبره --- و قد ارتمى في السجن بضع سنين

هـون عليك الأمـر لا تعبأ بـه --- إن الصعاب تـهـون بالتهوين[1]

ولرأينا على وجوههم ابتسامة المنتصرين بعدما فاضت أرواحهم إلى السماء ..

ولا تحسبوا أن الله خذلهم، أو تركهم !!

لا وربِّي .. فقد بشرنا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله " **ما يجِدُ الشهيدُ من مَسِّ القتْلِ، إلَّا كَما يجِدُ أحدُكمْ من مسِّ القَرْصةِ**"[1]، فما هي إلا لحظات حتى كانوا .. ﴿ .. **فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾ القمر:55، في صحبة من سبقوهم إلى الله ﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ النساء:69، لأن سيد الشهداء من قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فأُمر بقتله[2].

أما موسى وهارون فلم يذكر القرآن لنا أنهما تكلما بكلمة في هذه اللحظات، فهما لا يملكان شيئاً يقدموه لهؤلاء الذين بذلوا حياتهم الغالية في سبيل الله، فالدعوة دخلت في مرحلة جديدة، مرحلة الصبر الطويل على البلاء "**فإن دولة الاستبداد في مراحلها الأخيرة تضرب المصلحين ضربات عشوائية، كثور هائج أو كفيل ثائر في مصنع فخار، وتحطم نفسها وأهلها وبلدها قبل أن تستسلم للزوال**".

وكأنما على الناس أن يدفعوا في النهاية ثمن سكوتهم الطويل على الظلم، وقبولهم القهر والذل والاستعباد، وعدم تأملهم في معنى الآية الكريمة: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ الأنفال:25.

رد فعل الجماهير

---

[1] أبيات "ملحمة الابتلاء" أو "نونية القرضاوي" كما يسميها البعض، وهي ملحمة ألفها الدكتور يوسف القرضاوي داخل السجن الحربي في القاهرة عام 1955م، وتبلغ عدد أبياتها{294}.

[1] صحيح الجامع للألباني برقم 5813 عن أبي هريرة.

[2] صحيح الجامع للألباني برقم 3675 عن جابر بن عبدالله.

لقد كان تفاعل الجماهير (الطرف المتلقي) رغم هذه المعجزة العظيمة التي شاهدوها، تفاعلاً سلبياً للغاية، فالثابت أن من حضروا في يوم الزينة شاهدوا بعيونهم انقلاب صورة الحبال إلى حيات تسعى، كما شاهدوا ما فعلت عصا موسى بهذه الحيات، وسمعوا السحرة وهم يعترفون أنهم كانوا مكرهين على سحر أعين الناس وخداعهم – بأمر من فرعون – لتضليلهم عن حقائق ما يجري في أروقة الحكم، كما كادت آذنهم تُصَم من هتافات السحرة التي أعلنوا فيها توبتهم لله مما فعلوا، وإيمانهم بدين موسى وهارون؛ كما شاهدوا بأعينهم تنفيذ حكم الإعدام فيهم، ومع ذلك كله لم ينصرفوا إلى الحق !

فيمكنك تخيل خروجهم من المدرجات التي أعدت ليوم الزينة، وقليل منهم من يتحدث همساً عن الحق الذي مع موسى، وأغلبهم –كما ورد– استُخِف فيما بعد، واتبع حكم القوي عسكرياً ومالياً، وصدّق أذرعه الإعلامية وكذب ما رأته عيناه !

التناول الإعلامي ليوم الزينة

انقادت عقول الشعب بالتبعية العمياء إلى أبواق فرعون الإعلامية التي أكدت لهم أن موسى كبير هؤلاء السحرة الذين دبروا هذه المؤامرة لقلب نظام الحكم الفرعوني والاستيلاء على أرض مصر؛ فلقد عمل الجهاز الإعلامي لفرعون على إذاعة أنباء التنظيم السري الذي أنشأته طائفة بني إسرائيل – عملاء الهكسوس السابقين – الذين قدِموا من الشام أيام الاحتلال الهكسوسي البغيض، لضرب استقرار البلاد وإعادتها إلى قرون التخلف والرجعية.

كما أخرج الجهاز الإعلامي رواية تفسيرية مفصلة عن إعداد وإخراج المشهد الذي سيمثل فيه السحرة — بادئ الأمر– أنهم مخلصون للدولة؛ وجاءوا من كل حدب وصوب لمواجهة موسى عدو فرعون، ثم وفي اللحظة المناسبة يُظهرون خيانتهم للدولة وولائهم لموسى وهارون.

ثم مجدوا في عقل وذكاء الفرعون الزعيم الملهم، الذي فطن في اللحظة المناسبة لهذه المكيدة النكراء، وكيف أنه وقف بكل ثبات وشموخ وتوعدهم إن لم يرجعوا عما دبروه أن ينتقم منهم شر انتقام.

وكيف غسل موسى أدمغة السحرة بكلام معسول عن جنة سيدخلونها معه، فانقادوا خلفه وسلموا عقولهم له ولأخيه، فخالفوا دين الدولة ووقفوا ضد إرادة الشعب الذي ارتضى فرعون إلهاً حاكماً، فنُفِذَ فيهم الحُكم العادل !

كما تسابقت وسائل الإعلام إلى إعلان الكشف عن وجود مجوهرات وعملات مالية بأرقام فلكية، استخرجتها الجهات الأمنية من بيوت وقصور السحرة، إلى جانب ما وجدوه من بعض أوراق البردي التي تؤكد المخطط الكامل **للمؤامرة** الرهيبة التي اكتشفها فرعون.

نظرية المؤامرة

وهكذا لو تأملنا من بداية القصة حتى الآن سنجد أن كل تصرف لا يرغب فيه الفرعون ونظامه الحاكم يتم تأويله إلى مؤامرة من جهات أخرى لقلب نظام الحكم أو لتقسيم مصر وتفكيك وحدة شعبها – المفكك من الأساس – شيعاً وأحزاباً ! ونضرب لذلك أمثلة:

* لم تكن رسالة موسى إلى فرعون وملئه إلا مجرد أن يسمحوا لهم بهجرة بني إسرائيل من مصر، فاعتبر نظام فرعون ذلك الطلب **مؤامرة** تهدد سلطانهم في الأرض﴿ **قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ يونس: 78

* وعندما أراهم موسى الدلائل على نبوته بالعصا التي تحولت إلى ثعبان، واليد التي أصبحت بيضاء للناظرين جاء الرد الفوري من فرعون للملأ أن **مؤامرة** موسى هذه الهدف منها هو إخراجهم من أرضهم ﴿ **قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ الشعراء:34

* حتى إيمان السحرة المفاجئ كان رد الفرعون المرعوب عليه أنها **مؤامرة** على مصر لإخراج أهلها منها ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا** ﴾ وحكم عليهم أفظع حكم فقال: ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ الأعراف: 123

لذا فنظرية المؤامرة هي شماعة كل حاكم يعلق عليها فشله الذريع في إدارة الدولة، أو قمعه للحريات أو قبضته الأمنية الغير مبررة.

تداعيات يوم الزينة

عقد فرعون بوزرائه ومستشاريه اجتماعاً طارئاً لبحث تداعيات يوم الزينة ومناقشة آخر التطورات المستجدة على الساحة بسببه، وكيفية وقف الزحف الإسلامي الذي يقوده موسى وهارون، وتبادل الحضور أطراف الحديث، محرضين فرعون على اتخاذ أي قرارات استثنائية، لوقف هذا الزحف الذي يهدد مصالحهم ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** ..[1]﴾ الأعراف:127.

فراودتهم فكرة قتل موسى والتخلص منه، فهو مؤجج الفتنة ورأس هذا التنظيم، فلاقت هذه الفكرة رفضاً وممانعة من البعض لعدة أسباب لعل من بينها:

(1) من هذه الآية: « وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ » نفهم معنى في غاية الخطورة وهو أن فرعون لم يكن يدعي الألوهية بمعنى أنه هو خالق هذا الكون ومدبره؛ إنما كان يدعي الألوهية على شعبه المستذل! بمعنى أنه هو حاكم هذا الشعب بشريعته وقوانينه وأنه بإرادته وأمره تمضي الشئون وتقضى الأمور، وهذا ما يدعيه كل حاكم يحكم بشريعته وقانونه – وهذه هي الربوبية بمعناها اللغوي والواقعي– فالمصريون لم يعبدوا فرعون بمعنى أنهم كانوا يقدمون الشعائر التعبدية له– فقد كانت لهم آلهتهم وكان لفرعون آلهته التي يعبدها –كما فهمنا من قولهم ﴿**وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ – وإنما كانوا يعبدونه بالخضوع لما يريده، فلا يعصون له أمراً، ولا ينقضون له شرعاً.

وهذا هو المعنى اللغوي والواقعي والاصطلاحي للعبادة؛ فأيما ناس تلقوا التشريع من بشر وأطاعوه فقد عبدوه، وذلك هو تفسير رسول اللهρ لقوله تعالى عن اليهود والنصارى: «**اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ** » عندما سمعها منه عدي بن حاتم– وكان نصرانياً جاء ليسلم– فقال: يا رسول الله ما عبدوهم. فقال له رسول اللهρ:« **بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**» (أخرجه الترمذي).

وما قصد فرعون بقوله: «**ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي**» إلا أنه هو الحاكم المسيطر الذي يسيرهم كما يشاء، والذي يتبعون كلمته بلا معارض! والحاكمية على هذا النحو ألوهية كما يفيد المدلول اللغوي! فالإله هو الذي يشرع للناس وينفذ حكمه فيهم! سواء قالها أم لم يقلها.

أن قتل موسى لا ينهي الإشكال، فموسى ليس وحده بل معه هارون، وقد يوحي قتلهما للجماهير بتقديسهما واعتبارهما من الشهداء، فتزاد الحماسة لهما وللدين الذي جاءا به.

ثانيا: قد يكون بعض مستشاري فرعون أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له، لو قتلوه – وليس هذا ببعيد – فقد كان المصريون يعتقدون بتعدد الآلهة، وكان فرعون وملؤه يوقنون أن لموسى إله، وأن ما أتى به موسى هو الحق، وأنهم على باطل وضلال، وقد وصف الله هذا الشعور الداخلي عندهم فقال:﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ النمل:14.

فما يقولونه أمام الناس، وما يلقنوه لأذرعهم الإعلامية غير ما يعتقدونه داخل ضمائرهم !

فلما كان قرار قتل موسى لم يلق إجماعاً، ولم يرق لفرعون الذي يأمل أن يراود موسى عن أفكاره ويغريه بمنصب أو مال ليضمه إلى أنصاره؛ أصدر فرعون قراراً بإعادة العمل بقانون العقوبات "الذبح" مرة أخرى ﴿ **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾ الأعراف:127

وعمم هذا القانون على كل من يؤمن بموسى سواء كان مصرياً أو من بني إسرائيل ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ غافر:25، كما طالت هذه المذبحة أبناء المؤمنين سواء كانوا صغاراً أو بالغين، وكل هذا لإرهاب المجتمع من إتباع موسى.

قانون الاستئصال

لقد توقف العمل بهذا "القانون الاستئصالي" الجائر فترة من الزمن، حين ظن فرعون أن موسى قد مات في الصحراء عندما فر هارباً، وبالتالي فقد أمن على عرشه منه، فقد كان هو الطفل الذي يبحث عنه، وقتل في طلبه آلاف الذكور؛ ولكن لما عاد موسى من جديد؛ عاد معه الخوف على

زوال ملكه، والرؤيا التي رآها في منامه منذ ما يزيد عن أربعين عاماً، باتت تتحقق أمامه يوماً بعد يوم، فأعاد العمل بهذا القانون الجائر على بني إسرائيل والمصريين معاً، خاصة بعدما توسعت دعوة موسى وأصبح لها أنصار من المصريين أيضاً – وإن كانوا قلة – وخاصة من جيل الشباب ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾[2]يونس:83

الشباب أمل المصلحين

أعطى موسى عليه السلام جُل اهتمامه للشباب، لأن الشيوخ قلّ أن يستجيبوا لجديد يُدعونَ إليه، لطول إلفهم لما ورثوه من عادات وتقاليد ومعتقدات ملأت عقولهم، حتى أسِرتها فأصبح تغيّيرها عسيراً وشاقاً، أما الشباب فهم يتمتعون بطاقة من النقاء، ويعيشون – إلى حد ما – في خُلُوٍّ من المشاكل، كما أنهم لم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحْرَصُ عليها؛ والتاريخ يؤكد لنا أن الشباب دوماً أقرب من غيرهم إلى تقبّل الجديد والأخذ به، وهذا يعنى أن تحركات الأمم نحو التجديد ستكون على يد الشباب، فالشباب هم أمل الأمة، وهم حاضرها ومستقبلها، وهم الأسس المتينة، والقواعد الراسخة في بنية المجتمع، كما أنهم السواعد القوية التي ترفع البناء وتعليه، والعقول التي تخطط وتفكر وتعمل للغد المشرق، فهم يملكون طاقات هائلة لا يمكن وصفها، وبالسهو عنها سيكون الانطلاق بطيئاً، والبناء هشاً[2]، " **وإنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها, وتوفر الإخلاص في سبيلها, وازدادت الحماس لها, ووُجِد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها, وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان, والإخلاص,**

---

(2) اختلف في العائد عليه الضمير في قوله تعالى «**مِنْ قَوْمِهِ**» هل يعود على قوم موسى؟ أو قوم فرعون؟ كما اختلف في العائد عليه الضمير في « **وَمَلَئِهِمْ** » أهم الملأ من قوم موسى، أو الملأ من قوم فرعون؟ وقد رجح بن كثير في تفسيره أن الضمير في الآية يعود على قوم فرعون وملئه، لأن بني إسرائيل كانوا على دين أجدادهم من أبناء يعقوب «الأسباط» وقد قال بهذا القول عبد الله بن عباس ونقله ورجحه بن كثير في التفسير وغيره، ولا مانع أيضا أن يكون لفرعون من يتشبهون بملئه ويسارعون فيهم خشية أن تصيبهم دائرة انتقام فرعون فكادوا ضد إخوانهم من بني إسرائيل ووشوا ببعضهم ابتغاء لرضى فرعون.

[1] اهتم الإسلام بالشباب بصورة كبيرة وفريدة، والنصوص القرآنية، والسيرة النبوية، والأحكام الفقهية شاهدة على ذلك؛ ففي أحكام الفقه الإسلامي مثلاً حكم فريد لا مثيل له في العالم، وهو أن الصَّبيَّ المميز حافظ القرآن الذي عنده علم فقه الصلاة يجوز له إمامة المصلين البالغين، مع إسقاط شرط السن والتكليف والبلوغ عنه؛ وذلك لأهمية إعداد القادة والروَّاد والأئمة من الشباب، وبالطبع رفعًا لشأن حامل القرآن الكريم.

والحماس, والعمل من خصائص الشباب؛ لأنّ أساس الإيمان القلب الذكي, وأساس الإخلاص الفؤاد النقي, وأساس الحماس الشعور القوي, وأساس العمل العزم الفتي, وهذه كلها لا تكون إلا في الشباب، ومن هنا كان الشباب قديمًا وحديثًا في كل أُمَّةٍ عِمَادُ نهضتها، وفي كل نهضةٍ سِرُّ قُوَّتها، وفي كل فكرة حَامِلُ رَايتها: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ الكهف: 13"[1].

التعذيب الممنهج

وقد كان إيمان هذه الذرية من الشباب ﴿ **عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ**[3]﴾ فلو علم نظام فرعون بإيمانهم سيبذلون قصارى جهدهم -كالعادة - في أن يفتنوهم عن دينهم بالاضطهاد، والسجن والتعذيب حتى يتركوه.

وقد كانت فتنة التعذيب هذه أشد من القتل والذبح !! وهذا ما يلفت النظر في قوله جل وعلا عندما وصف الفتنة في الدين فقال :﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ البقرة: 191، ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ البقرة: 217، وذلك لأن القتل أو الذبح هو قتل للجسد؛ أما الإرهاب والترويع والتخويف فهو قتل معنوي يقتل أجمل ما في النفس البشرية إن لم تصمد وتستعن بالله جل وعلا.

فكل نفس بشرية ذائقة الموت، إما موتاً عادياً وإما قتلاً، لكن ليس كل نفس بشرية تذوق ألم القهر والتعذيب بسبب اختيارها الديني أو الفكري، إلى درجة تتمنى فيها الراحة بالموت، وهذا ما يشعر به كل مقهور ومسجون؛ فالاضطهاد أو الفتنة معاناة مستمرة بالخوف والرعب والقلق، وانتظار المصائب، وتوقع الشّر عند أيّ لفتة أو همسة أو دق على الباب ..

---

[2] رسالة إلى الشباب – مجموع رسائل الإمام الشهيد حسن البنا – ص188 .

[3] ومن اللطائف القرآنية أن الله قال:﴿ **يَفْتِنَهُمْ** ﴾ ولم يقل"يفتنوهم"؛ لنفهم أن زبانية فرعون وجلاديه لم يعذبوا المؤمنين لشهوة عندهم، بل يمارسون التعذيب لشهوة عند الفرعون، من باب تنفيذ أوامره فقط ﴿ **وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾.

وهناك علاقة طردية بين ظلم الحاكم المستبد للمصلحين وبين خوفه وذعره، فكلما زاد ظلمه للشعب زاد خوفه منهم؛ وكلما زاد خوفه من الشعب زاد ظلمه لهم، من هنا أدى الخوف بفرعون إلى تطرف في اضطهاد خصومه؛ فالإسراف هو المصطلح القرآني لما نسميه في ثقافتنا المعاصرة بالتطرف، وصل هذا التطرف في معاملة الخصوم إلى تعذيبهم تعذيباً مهينا وممنهجاً لإرهابهم وإرهاب كل من وراءهم

فَللسِّياطِ رَنِينٌ يُنْسِي الحَلِيمَ الفِكْرا

وَللزَّنازِنِ لَيلٌ يُنسِي الزَّمانَ الفَجْرا

وجاء وصف فرعون بالعلو والإسراف في نفس سياق تطرفه في تعذيب بني إسرائيل في قوله سبحانه وتعالى ﴿ **وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ الدخان:31

جولة داخل سجون فرعون

والتعذيب في سجون فرعون كان ممنهجاً، حتى وُصف به في القرآن ﴿ **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ**﴾ الفجر:10، وهذه الأوتاد كانت أداة من أدوات التعذيب في سجونه[1]، وإذا أردت أن تفهم وتتخيل معنى هذه الآية جيداً تعالى معي نقوم بجولة داخل سجون الفراعنة ..

انظر .. هناك خمسة رجال يلتفون حول رجل يصرخ، وهم يفعلون فيه أمرا ما !

ها قد ابتعدوا عنه قليلاً وبإمكانك الآن أن ترى معي ما يفعلون ..

لقد ربطوا حبلاً في يده اليمنى وحبلاً في اليسرى وثالثاً في قدمه اليمنى ورابعاً في اليسرى، وقام أضخم اثنين منهم بتثبيته وتراجع الثلاثة .. هل ترى ؟

---

[1] انظر (معالم التنزيل = تفسير البغوي 74/7)، (أيسر التفاسير للجزائري 439/4) ، (بن كثير 397/8)، (مجمع البحرين154/3)، والأوتاد: جمع وَتَدْ، والوَتَدُ هو المسمار، قيل إن فرعون كان إذا عذب رجلاً بسطه على الأرض أو على خشب ووتد يديه ورجليه بأربعة أوتاد ثم تركه على حاله".

إنهم يربطون أطراف الحبال في جياد والرجل يصرخ مستنجداً .. ثم إنهم وجهوا رؤوس الجياد إلى الاتجاهات الأربعة التي تشير إليها أطراف يديه ورجليه المتباعدة، ثم إنهم وخزوا الجياد فتحركت ببطء ليرتفع الرجل عن الأرض صارخاً، وظلت الجياد تتحرك تارة والرجل يتمزق باكياً ثم إنهم ضربوا الجياد بالسياط فثارت وتحركت بعنف سريع، لتتمزق أطراف الرجل الأربعة وتجري كل منها مع جوادها !!

وها هو رجل آخر يمسكه رجلان مفتولا العضلات ويرغمانه على الركوع وهو يصرخ، ويأتي رجل آخر ماسكا وتداً خشبياً طويلاً مسنناً ويطعنه به في دبره طعنه لا تقتل، ويحاول الرجل أن يفلت بلا جدوى، ثم يقيدون يديه ورجليه بطريقة معينة إلى الوتد، ثم يتعاون الثلاثة رجال على رفع الوتد وتثبيته في فتحة في الأرض، وها هو الرجل في أعلى الوتد وكأنه جالس عليه ويترك على هذه الحال حتى يموت !

ليست المشكلة في الموت من الجوع والعطش، بل المشكلة أن هذا الوتد ينغرز ببطء شديد في أحشاء الرجل ولا يقتله، فقط يعذبه من الألم ثم يموت الرجل لما يخترقه الوتد ويخرج من جسده أو لما يموت من الألم أو من انفجار الأحشاء ..

هذا الوتد الذي رأيته الآن هو ما اصطلح على تسميته في عصرنا بالخازوق؛ وقد كان جنود فرعون يتفننون في التعذيب بالأوتاد تفنناً عجيباً .. فمرة يغرزون الوتد في فم المعذب ويعلقونه على الوتد مقلوباً، ومرة في بطنه، وهكذا يتفنن هؤلاء الزبانية في تعذيب المسلمين.

"فيه زبانية أعدوا للأذى وتخصصوا في فنه الملعون

متبلدون عقولهم بأكفهم وأكفهم للشر ذات حنين

لا فرق بينهمو وبين سياطهم كل أداة في يدي مأفون

يتلقفون القادمين كأنهم عثروا على كنزٍ لديك ثمين

بالرجل بالكرباج باليد بالعصا وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دونِ

لا يُقدرون مفكراً ولو أنه في عَقل سُقراط وأفلاطون

لا يعبئون بصالحٍ ولو أنه في زهد عيسى أو تقى هارون

لا يرحمون الشيخ وهو محطمٌ والظهر منه تراه كالعرجون

لا يشفقون على المريض وطالما زادوا أذاه بقسوةٍ وجنون"[(1)]

وقد روي أيضا أنهم كانوا يشّبِحون المسجون مستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض تشد رجليه ويديه ورأسه على الأرض بالأوتاد، ويرسل عليه العقارب والحيات، كما روي أيضاً أنهم يسقطون فوقه صخرة عظيمة ترفع بالبكرات فتشدخه فيموت[(2)]، وقائمة أخرى من أدوات التعذيب وأشكاله، أدع للقارئ اللبيب المجال واسعاً لتصورها وتخيلها.

"أرأيت بالإنسان يُنفخ بطنه حتى يُرى في هيئة البالون ؟

أسمعت بالإنسان يُضغط رأسُه بالطوق حتى ينتهي لجنون ؟

أسمعت بالإنسان يُشعل جسمُه ناراً وقد صبغوه بالفزلين ؟

أسمعت بالآهات تخترق الدجى رباه عدلك .. إنهم قتلوني"[(3)]

لا يوجد مؤشر صريح في القرآن حول طول الفترة التي استغرقتها حملة التعذيب والقتل هذه، أي فيما إذا توقفت في تاريخ معين أم استمرّت حتى خروج بني إسرائيل من مصر، فالكلام هنا سيكون فرضية جدالية، ولكن لما كانت تلك الحملة قد أُطلِقت قبل أن تبدأ الكوارث (الإنذارات

---

(1) جزء من قصيدة (ملحمة الابتلاء) للدكتور يوسف القرضاوي.

(2) قال الكلبي ومجاهد ومقاتل بن حيان: كانت لفرعون أوتاد يعذب الناس عليها، وكان إذا غضب على أحد مده مستلقيا بين أربعة أوتاد، وشد كل يد ورجل منه إلى سارية، ويتركه كذلك في الهواء بين السماء والأرض حتى يموت، وقال السدي: كان يمد الرجل ويشده بالأوتاد ويرسل عليه العقارب والحيات (تفسير البغوي: 7/74).

(3) جزء من قصيدة (ملحمة الابتلاء) للدكتور يوسف القرضاوي.

السبعة) بضرب قوم فرعون، سيبدو من المعقول القول بأن فرعون أوقف حملة الاضطهاد الدموي هذه في وقت ما لاحقاً، أملاً في أن يؤدي ذلك إلى إيقاف تلك الكوارث.

بث الأمل

استقبل موسى وهارون هذه القرارات الجديدة – بذبح كل من آمن – بمزيد من النشاط والهمة في تبليغ دعوة الله للناس، ولكنهما حرصا على التقاء هذه الفئة المسلمة – من المصريين وبني إسرائيل– سراً بعيداً عن أعين فرعون التي زرعها في كل مكان؛ وكان الهدف من هذه الزيارات والاجتماعات هو التعبئة الروحية والإيمانية، وبث روح الأمل والتفاؤل في قلوبهم.

فإنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووُجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها ﴿ **وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعليهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ** ﴾ يونس:84

فاستجاب قومه لنصيحته، سائلين الله أن ينجيهم من بطش الطغاة ومكر الماكرين فقالوا: "اللهم لا تسلّط علينا الظالمين فيعذبونا حتى يفتنونا عن ديننا، ولا تجعلنا فتنة لهم يفتنون بنا غيرنا؛ فيقولون لهم: لو كان هؤلاء على حق لما سُلّطنا عليهم وعذبناهم"[1].

﴿ **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ يونس:86

فهم الطريق

---

[1] تفسير الشوكاني، 2/ 466

ولما نزلت سياط العذاب تنهال عليهم، فسجنوا وضربوا، وعذبوا وشردوا، إلى جانب ما كان من تذبيح لذكورهن واستذلال لنسائهن واستباحة لأعراضهن ﴿ **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ الأعراف:128

فقال له قومه متعجبين من مآلات الأمور، غير مدركين لطبيعة الطريق الذي سلكوه: ﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا**﴾؟!! الأعراف:129.

لقد ظنوا أن الظلم لن يطول بمجيء موسى، وأن الخلاص من بطش فرعون جاء مرافقاً له ؛ لذا قالوا: إلى متى سيظل الظلم والقهر مرافقين لنا، أبعد ما جئتنا وآمنا بك يحدث لنا كل هذا؟!

لقد ظن المساكين أن طريق الإيمان مفروش بالورود والرياحين، ولم يدركوا أن الطريق محفوف بالمخاطر مليء بالأشواك، فأوصاهم نبي الله موسى بتحمل الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها؛ وانتظار الفرج القريب ﴿ **قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ الأعراف:129

فالمؤمن ينبغي ألا يقطع حسن ظنه بالله، وأن يتحلى بالأمل ويتخلى عن اليأس والقنوط مهما اشتد عليه البلاء وتراكم؛ فقد فقدَ يعقوب أحد أبنائه ثم فقدَ الآخر، ثم فقدَ بصره، وما زال يردد ﴿ **وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ يوسف:87.

كما عرّفهم موسى عليه السلام بطبيعة الطريق الذي يسيرون عليه، فهو طريق ناح فيه نوح، وألقي بسببه نبي الله إبراهيم في النار، فمن الطبيعي أن يقف الظالمون ضدهم ويبذلون جهدهم للحد من نشاطهم، ويضعون العراقيل في طريقهم، ويستعينون بذوي النفوس الضعيفة، والقلوب المريضة للإساءة إليهم وتشويه سمعتهم، والنيل من أقدارهم.

ولكن مآل إرادة الطغاة إلى نقيض قصدهم ولو بعد حين؛ وإن ممتطي الباطل ومنتعلي البغي وراكبي الظلم ظنًا منهم أن تلك هي الوسائل الموصلة لعلوهم المبتغى، سيفاجأون أن السحر

سينقلب على الساحر وأن يومًا سيأتي يقع فيه بهم ما كانوا يحذرون، ومن جنس ما كانوا يحذرون..!.

يا نصر الله اقترب

ومضى موسى ومن آمن معه يتحملون ضربات العذاب، وجرعات الظلم والاستبداد، وهم يرجون فرج الله، بقلوبٍ تجأر "**يانصر الله اقترب**" !

وبات عنوان مشهد هذه المرحلة التي استمرت عدة سنوات[1] هو: **(إيمان يقابله كفر، وطغيان يقابله صبر)**؛ تعرضوا خلالها لتسلط فرعون الفظيع والفتنة التي قال فيها: ﴿**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ الأعراف:127.

ولقد طال بهم أمد هذا الإمتحان الذي امتد سنين عدداً، لغربلة صفوفهم وتنقيتها، فالشعوب لا تنتقل من مواقع العز إلى الذل في عام أو عامين، بل يُحسب هذا بالجيل! وذلك، لأن معركة كسر الظالمين وإزاحتهم عن المشهد هي معركة جيل كامل لا معركة سنوات، وعلى الفئة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تكون طويلة النفس، شديدة الصبر، عميقة الإيمان بالله، عميقة التوكل عليه، يتحلون بالثقة في النصر ويتجملون بالصبر؛ لأنهم لو خسروا هذه المعركة بسبب نفاذ صبرهم فلا داعي أن يكون لديهم أمل في التغيير إلا بعد نصف قرن آخر؛ فالثمن الذي سيدفع في مقاومة الظلم الآن مهما كان عظيماً، هو أقل بكثير من الثمن الذي سيدفع عبر نصف قرن آخر من الذل والهوان.

---

(1) بحسب رواية التوراة فإن موسى عليه السلام عاش 120 عاماً، 40 عاماً منها هي سنوات الإعداد والتجهيز للنبوة، ثم 40 عاماً هي فترة صراعه مع فرعون من يوم الزينة إلى لحظة خروجه من مصر، ثم 40 عاماً أخرى عاشها في التيه مع بني إسرائيل بعدها لقي ربه، إذا فقد استمر صراعه مع فرعون نحو 40 عاماً.

وخلال هذه المرحلة العصيبة وتلك السنوات العجاف تخللت أحداث كثيرة، وانضم إلى موسى أنصار كُثُر، ولاحت بشائر نصر في الأفق ..

تعالوا بنا من خلال **الفصل الرابع** نتابع حكاية المرأة التي أصّر فرعون أن يُشرف على تعذيبها بنفسه ؟ ونعرف سر رائحتها الجميلة التي تعطر الجنة حتى الان ؟

ثم نشاهد كيف عذب فرعون آسية ؟ وكيف ساءت حالته النفسية بعدما قتلها بيده ؟.

ثم نعرف حكاية مستشار فرعون الذي أنقذ موسى عليه السلام من محاولة اغتيال كان فرعون يُدبر لها !

ثم نستمع إلى اعترافات الفتاة التي سعت لتشويه سمعة سيدنا موسى وادعت أنها على علاقة به ؟!

ثم ندخل سوياً قصر قارون ونشاهد كيف كان يعيش ببزخ؟ ونتعرف على سر انتكاسته وارتداده عن الاسلام حتى أصبح من أشد المعادين لموسى؟! **هيا بنا نتابع ...**

الإيمان يتسلل إلى قصر فرعون

"ظننت دعوتنا تموت بضربةٍ .. خابت ظنونك فهي شر ظنونِ

بليت سياطك والعزائم لم تزل .. منّا كحدّ الصارم المسنونِ

إنا لعمري إن صمتنا برهةً .. فالنار في البركان ذات كمونِ

تالله ما الطغيان يهزم دعوةً .. يوماً وفي التاريخ برُّ يمينِ"[1]

لم يعلم فرعون أن الإيمان الذي يحاربه قد تسرب إلى خاصة أهل بيته، فزوجته وابن عمه وماشطة ابنته كلهم قد آمنوا، ولكنهم كانوا يخفون إيمانهم !

إسلام ماشطة بنت فرعون

---

[1] جزء من قصيدة "ملحمة الابتلاء" للدكتور يوسف للقرضاوي.

في يوم من الأيام – بعد مذبحة يوم الزينة –كانت الماشطة تمشط شعر ابنته وتزينه، فوقع المشط من يدها، فقالت بتلقائية القلب الذي نضح منه الإيمان: بسم الله !

فقالت ابنته لها في ابتسامة واستفهام: هل تقصدين أبى؟!

فقالت المرأة لها: لا، بل ربي وربك ورب أبيك هو الله.

فقالت: هل اتخذت إلاهاً غير أبي ؟

فقالت لها: نعم ، لأن أباكِ ليس إلها ، بل هو بشر مثلنا.

فقالت:لأُخبرن بذلك أبي؟

وذهبت البنت لفرعون وحكت له الذي حدث بينها وبين الماشطة، فغضب فرعون غضباً شديداً وأصدر قراراً بضبطها وإحضارها فوراً؛ فلما وقفت بين يديه سألها فقال: من ربك؟

فقالت بثبات ويقين: ربي وربك في السماء يا فرعون.

التعذيب البدني

فأمر فرعون جنده برميها في السجن، فضربوها وسحلوها وعذبوها لعلها بعد التعذيب تعود إلى عبادتها له مرة أخرى، ولكنها أصرت على الإيمان بالله.

ويتلقى فرعون التقارير الأمنية عنها، ليفاجأ بفشله مجدداً في انتزاع الإيمان من قلوب المؤمنين، فقرر أن يحاول بنفسه هذه المرة، ويتم التعذيب تحت عينه ورعايته

فقال فرعون للجنود: ألها أولاد؟

فقالوا له: نعم لها أربعة أحدهم ما زال طفلاً رضيعاً.

فقال فرعون: أشعلوا ناراً ببقرة من نحاس –إناء ضخم فيه زيت– حتى إذا غلى الزيت، ائتوني بها وبأولادها !

وبالفعل جاءوا بالإناء وأشعلوا تحته النار، وحمي على الزيت الذي بداخله، وأخرجوها من السجن وجروها أمام الإناء وطالبوها بالرجوع عن دينها، فرفضت؛ فأدخلوا عليها أولادها الصغار تدور أعينهم لا يدرون إلى أين يساقون، فلما رأوا أمهم تجمعوا حولها وتعلقوا بها وظلوا يبكون، فبكت لبكائهم وأقبلت عليهم تُقبلهم، وتبكي لفزعهم، ثم أخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها، وألقمته ثديها.

التعذيب النفسي

فقالوا لها: ارحمي أولادك الصغار وعودي إلى ما كنتِ عليه.

فرفضت وقالت: ربي وربكم الله.

فلما رأى فرعون إصرارها أومأ برأسه للجنود، فأخذوا أكبر أولادها سناً وجروه نحو الإناء، وقيدوا يديه وقدميه، والغلام يصيح بأمه ويستغيث ويسترحم الجنود، ويتوسل إلى فرعون،يحاول الفكاك والهرب، ينادي أخوته الصغار ويضرب الجنود بيديه، وهم يصفعونه على وجهه، وأمه تنظر إليه تودعه وعيناها تبكيان وليس على لسانها إلا حسبي الله ونعم الوكيل.

وما هي إلا لحظات حتى غُيّب الغلام في الزيت، فذاب لحمه من على جسمه النحيل وطفت عظامه البيضاء فوق الزيت، وأخوته يغطون أعينهم بأيديهم الصغيرة، والأم في حال انهيار تام.

ثم قام فرعون من على كرسيه، يحوم حولها وحول أطفالها وهو يقول: ألك رب سواي ؟!

لتصرخ المرأة قائلة: ربي وربك الله يا فرعون.

فيزاد فرعون خزياً على خزيه، وفشلاً على فشله.. إنه يأمل ولو أن تنطق كلمة.. أي كلمة! ولو من وراء قلبها، ولكنها ترفض وتمانع؛ فأمر جنده أن يجروا ولدها الثاني ليلحق بأخيه

فسحبوه من حضن أمه وهو يبكي ويستغيث، وما هي إلا لحظات .. حتى أُلقي في الزيت وطفت عظامه إلى جوار عظام أخيه .. والأم تنظر إليه ولا تصدق ما يحدث حولها.. أي بشاعة هذه،

وأي قسوة تلك! لتستفيق من ذهولها وابنها الثالث متشبث بأثوابها، ودموعه تجري على رجليها، وهم يسحبونه منها..

إنه طفل صغير.. فتحاول الأم أن تنتزعه من أيديهم وتحمله مع أخيه الرضيع، فلم تتمالك! فحاولت أن تودعه، وتقبله وتشمه، قبل أن يفارقها، فلم تستطع!

فحملوه من يديه الصغيرتين وهو يبكي ويستغيث ويتوسل بكلمات غير مفهومه، وهم لا يرحمونه.. وما هي إلا لحظات.. حتى غرق الصغير بالزيت المغلي وغاب جسده النحيل وانقطع صوته الملائكي، وشمت أمه رائحة لحمه وهو يحترق وقد علت عظامه الصغيرة البيضاء فوق الزيت يتقلب بها !

لحظات يعجز القلم عن رصد مرارتها وقسوتها على قلب أم

جريمتها الوحيدة أنها آمنت بالله!

ثم ينظر فرعون إليها وهو يقول: هل مازلت على دينك؟ ألا ترحمين طفلك الرضيع الذي على يديك؟ أما آن لك أن تعقلي وتعودي إلى دين آبائك وأجدادك ؟!

لتنظر إليه الأم المسكينة بعينين ممتلئتين بالدموع، وترد بصوت محبوس في صدرها: بل ربي وربك الله يا فرعون ! فتنزل هذه الكلمات عليه كنزول السياط الملتهبة، فيصرخ بأعلى صوته: خذوا رضيعها وارموه مع إخوته.

وقد كان الطفل يبكي ملتقماً ثدي أمه، التي لم تفتأ تبكي على إخوته الذين لم يعد منهم إلا عظامهم الطافية في إناء الزيت؛ ويتدافع الجنود نحوها.. ينتزعون صغيرها من يديها وفي فمه بقايا حليب من ثديها.. وعلى أثوابه قطرات من دموعها.. يتوجهون به نحو الإناء..

الأم تسقط على الأرض.. فما تراه لا تطيق حمله الجبال الرواسي.. يرفعون الطفل ليلقوه في الزيت .. والأم يراودها شيطانها أن تقول ما يريدونه منها؛ رحمة بطفلها الرضيع.. وما تحركت شفتاها حتى تدخلت عناية السماء فنطق الطفل بصوت مفهوم قائلاً:

اثبتي يا أماه فإنك على الحق، وإن الله قد بنى لك بيتاً في الجنة.

ثم ألقي في الزيت.. ليرحل مع إخوته الصغار، وهاهي عظامهم يلوح بها القِدر، ولحمهم يفور به الزيت،وتنظر المسكينة إلى هذه العظام.. إنها عظام أولادها، اللذين ملئوا عليها البيت ضحكاً وسروراً.. إنهم فلذات كبدها .. لكم سهرت من أجل رعايتهم، وكدت وتعبت من أجل قضاء حاجاتهم .. ثم هاهم اليوم ينتزعون من بين يديها ويقتلون أمام ناظريها !!

أي قلب قلبها .. وأي ثبات ثباتها ؟!

الآن لم يعد لها في الدنيا ما تحرص عليه، فمسحت دموعها بيدها، واستجمعت ما تبقى من قواها، وقامت من على الأرض لتقف في عزة المؤمن الذي يرى الخير فيما ابتلاه الله به، تنتظر دورها في القتل، فلما توجه الجنود نحوها ليُلحقوها بأولادها قالت لفرعون: إن لي عندك حاجه أريدك أن تقضيها لي.

فقال فرعون: وما هي ؟!

قالت: أن تجمعوا عظامي وعظام أولادي فتدفنوها في مكان واحد.

فقال لها: لك ذلك !

فأغمضت عينيها وألقيت في القدر مع أولادها واحترق جسدها وطفت عظامها، فلله درها ما أعظم ثباتها وأكثر ثوابها، وبعد هذه الحادثة بأكثر من 1500 عام رأى النبي ρ ليلة الإسراء شيئاً من النعيم الذي أعده الله لها؛ فحدث به أصحابه فقال لهم: ((**لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ على رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا ". قَالَ: " قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟**

قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللهِ. فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ. قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا.

فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إليكَ حَاجَةً. قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَتَدْفِنَنَا. قَالَ: ذَلِكَ لَكِ علينا مِنَ الحَقِّ ".

قَالَ: " فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَاحِدًا وَاحِدًا، إِلَى أَنِ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، كَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: يَا أُمَّهْ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ " قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السَّلامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ "[2].

إسلام آسية بنت مزاحم

لا تمر الأيام على فرعون إلا ويفاجأ بإسلام فرد جديد من أفراد رعيته؛ فما هي إلا أيام قليلة ولحقت بماشطة ابنة فرعون، زوجته آسية بنت مزاحم[1]، تلك المرأة التي نشأتْ ملكة في القصور، واعتادتْ حياة الملوك، ورأَتْ بطش القوة، وجبروت السلطان، وطاعة الأتباع والرعية، فهي زوجة فرعون الذي اغترَّ بسعة ملكه وقوة جنده، ولكنها لم تغتر بكونها ملكة، ولم يصرفها ذلك عن الإيمان بالله عز وجل حين رأت الآيات البينات، فآمنت بربها وصدَّقت برسالة موسى υ فقد أضاء الإيمان فؤادها يوم الزينة؛ فسئمتْ حياة الضلال، واستظلتْ بظلال الإيمان، ودعتْ ربها أن ينقذها من هذه الحياة التي تحياها، فاستجاب ربها دعاءها، وجعلها مثلاً للذين آمنوا، فقال: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ..** ﴾[التحريم: 11].

---

(2) حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في " المسند " (309/1) ، والطبراني (12280) ، وابن حبان (2903) ، والحاكم (496/2) ، قال الذهبي في "العلو" (84) عن: "هذا حديث حسن الإسناد" ، وقال ابن كثير في "التفسير" (15/3) : "إسناده لا بأس به"، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند (295/4) ، وقال الأرنؤوط في تخريج المسند (30/5 – 31 رقم 2821) : " إسناده حسن ، نقلاً من موقع الإسلام سؤال وجواب.

(1) هي آسية بنت مزاحم بن عبيد الديان بن الوليد، وهي ترجع لأصول عربية من جزيرة العرب، وكان أبوها يحكم مملكة من الممالك التي خضعت للحكم المصري في عصر الدولة الفرعونية الحديثة، وكان من عادة الملوك أن يصاهروا بعضهم البعض، فتزوجها فرعون ليجعلها أثيرة إلى قلبه دون زوجاته الأخريات على الرغم من كونها امرأة عقيم! (انظر كتاب: العظماء المائة لـ جهاد الترباني، صفحة 249، طبعة دار التقوى).

فأصبحت– بإيمانها – نموذجًا في الصلاح والتُّقى والبراءة من الظلمِ وأهلِهِ، والنفورِ من الطغاة، والرغبة الصادقة في هجرِ هذه الحياةِ المتْرَفةِ، إلى حياة الأنس بالله.

آسية والميلاد الجديد

ولما علم فرعون بخبر إسلامها، جُن جنونه .. فهددها وتوعدها لئن لم ترجع عما تعتقده ليقتلنها شر قتلة؛ فلم تفلح تهديدات فرعون ولا وعيده في إبعادها عن طريق الحق والهدى، فأمر بحبسها؛ فأدخلوها في سجن ضيق – غير آدمي – تاركة القصر بزينته وخدمه وحشمه، لتبدأ في مرحلة جديدة من حياتها؛ فبعد عيش التجمُّل، جاءت حياة التحمُّل، والفارق بينهما كالفارق بين الحي والميت سواء بسواء، ولقد عبر القرآن عن الفترة التي يقضيها الإنسان بعيداً عن ربه، غير مدرك لحقيقة الغاية التي خلق من أجلها بأنها معيشة ضنك! فمهما تقلب فيها مع النعيم، ومهما تذوق فيها أنواع المتع هي معيشة ضنك ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا** ﴾ طه:124.

معيشة في صورة حياة؛ ولكن أصحابها في الحقيقة ﴿**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**﴾ النحل:21، إلى أن يولدوا ميلاداً جديداً، بعدما يُنفخُ في أرواحهم بالإيمان لتحيا ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ الأنعام:122

فيعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد، الإنسان المتحرر المستنير الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد! وعندها تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة، ولو كانت سجناً ضيقاً، كُبل فيه صاحبه بالقيود والأغلال.

وما أحلاها من حياة – مهما كانت صعبة – أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور.. كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟

استعذاب العذاب

وبعدما دخلت آسية السجن، وثبتت على إسلامها[1] ولم تتراجع، أشرف فرعون على عذابها بنفسه، فأمر جنوده أن يطرحوها على الأرض، ويربطوها بين أربعة أوتاد، وضربها بالسياط على جسدها، وهي صابرة محتسبة على ما تجد من ألم العذاب، فأمر بوضع رحًى على صدرها – لا يقوى الرجلان على حملها– وهي صامدة ومستعذبة العذاب، من أجل رضا الله عنها!

وبعد أيام من الجلد والشبحِ والتعذيب تحت حرارة الشمس، في ظل صمود وصبر وثبات على الدين، اشتاقت إلى جوار الله في الجنة فرفعت يديها قائلة: ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ التحريم:11

فطلبتِ الجارَ قبل الدارِ.

إني لأحْسِدُ جارَكُمْ لجوارِكُمْ طوبَى لمن أَضْحَى لدَارِكَ جَارًا

يا ليتَ جارَكَ باعَنِي من دارِهِ شبرًا لأُعطِيه بشبرٍ دارًا

فاستجاب اللَّه دعاءها، وارتفعت روحها إلى بارئها، تظلِّلُها الملائكة بأجنحتها؛ وهي تبتسم ضاحكة لما تراه من نعيم ذاهبة إليه في جوار ربها!

ولِمَ لا تبتسم وتضحك.. وقد تركت لقب "سيدة مصر الأولى" لتنضم إلى قائمة "**سيدة نساء العالمين**"[1] وتحظى بلقب"**أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ**"[2].

---

(1) قد يعجب البعض أنني عبرت عن دخول الناس في دين موسى بأنه الإسلام ظناً أن الإسلام هو دين محمد فقط، وهذه معلومة غير صحيحة فالسحرة قالوا: ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ علينَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾، وفرعون عند الغرق سيقول: ﴿ **آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾، فدين موسى هو الإسلام؛ كما كان الإسلام دين كل الأنبياء من قبله ومن بعده ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾، ولكن شريعته تسمى الشريعة اليهودية، ولكل نبي من الأنبياء شريعة مستقلة ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾.

(1) أخرج الترمذي والحاكم عن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قالَ: "حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحمّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ".

(2) أخرج النسائي بإسناد صحيح، والحاكم من حديث ابن عباس مرفوعا "أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ خديجةُ وفاطمةُ ومريمُ وآسيةُ".

ولِمَ لا تبتسم وتضحك ساخرة من زوجها فرعون الذي اتهمها بالجنون رغم أنها في الحقيقة "**أكمل الناس عقلاً**"[3].

لقد ماتت آسية.. وتركت لنا مثالاً يحتذى به للمرأة الصابرة المجاهدة التي تقول الحق ولا تخشى في الله لومة لائم، لتضع بصمودها وشجاعتها وصمة عار على جبين كل جبان خائر العزم.

ولوْ كانَ النّساءُ كمَنْ فَقَدْنا .. لفُضّلَتِ النّساءُ على الرّجالِ

وما التأنيثُ لاسمِ الشّمسِ .. عَيبٌ ولا التّذكيرُ فَخْرٌ للهِلالِ [1]

بهؤلاء ينبغي أن نفتخر

هناك من المصريين حتى الآن من لا يفتخر بكونه مسلمًا بقدر ما يفتخر بكونه من الفراعنة الذين كان منهم فرعون المجرم الذي تقرؤون الآن بعض أشكال إجرامه مع أبناء شعبه، ناهيك عن إجرامه مع زوجته وماشطة ابنته، ونسي هؤلاء الذين يفتخرون بالأهرامات بأن تلك الأهرامات لم تكن سوى قبور الفراعنة التي سخروا من أجل بناءها الشعب لعشرات السنين لينعم الفرعون بقبرٍ يليق به!.

وأما القسم الآخر من مسلمي مصر فيعتقد أن سرَّ عظمة المصريين يكمن في أرض مصر نفسها وليس في الإسلام الذي جعل منهم أناسًا عظماءً، فذكروا أن سر عظمة المصريين ينبع من كون أن كلمة "مصر" وردت في القرآن خمس مرّات! ولم يعلم هؤلاء أن اللّٰه ذكر في القرآن ثمود وعاد ومدين أكثر من ذكره لمصر، وأن ذكر أرض مصر جاء في القرآن على سبيل القصص في معرض قصتي نبيي اللّٰه موسى ويوسف عليهما السلام !

(3) عن أبي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إلاّ مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرَانَ وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وفَضْلُ عَائِشَةَ على النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ على سَائِرِ الطعَامِ".

(1) من أشعار المتنبي

وعزى قسمٌ ثالث من المصريين سرّ عظمتهم إلى "ماء النيل"، الذي هو نهر من أنهار الجنة[1]، وأعجبتهم كثيرًا مقولة المؤرخ الإغريقي (هيرودوت) الذي زعم أن مصر هبة النيل.

ولكن الشيء المهم الذي نسيه كل هؤلاء هو الافتخار والاعتزاز بالإنسان المصري المسلم نفسه! بالسحرة المصريين الذين وقفوا بكل ثبات أمام أعتى طاغية عرفته البشرية، بالماشطة البسيطة التي قدمت أولادها فداء لدينها وعزتها، بآسية المصرية التي ضحت بالغالي والنفيس من أجل دينها وحريتها؛ بهؤلاء جميعاً ينبغي أن يفتخر المصريون.

فرعون يعذب نفسياً

لقد أحب فرعون آسية حباً لا يوصف – فقد نزل على رأيها ولم يقتل موسى من قبل – وقتله لها اليوم عذبه نفسياً، فهو لم يكن يتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد، وما أراد من تعذيبها سوى أن ترجع إلى سلطانه وتنقاد تحت إمرته، ولكن أتته الريح بما لم يشتهِ، ليقوض الله ملكه كل يوم أمام عينيه، فبالأمس قتل آلاف السحرة من كهنة المعابد، ثم قتل الماشطة، ثم قتل زوجته آسية المحببة إلى قلبه، وبات في كل يوم يستعدي الناس عليها؛ ويقف عاجزاً أمام الزحف الإسلامي، فعذابه الذي يصبه على أتباع موسى لا يثني الناس عن الإيمان به واتباع منهجه ولو سراً، وأشباح ضحاياه تؤرق ليله ونهاره وتتوعده بالانتقام.

محاولة اغتيال موسى

الآن فرعون في اجتماع وزاري موسع يضم عدداً من مستشاريه؛ الغرض منه هو اقتراح حل أمثل للتخلص من موسى، فالتضييق على موسى لا يثنيه من الحديث مع الناس ليل نهار، وتقتيل أبناء الذين آمنوا معه زادهم إصراراً على التمسك بدينهم وكرها لفرعون ونظامه!

---

[1] روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**فُجِّرَتْ أربعةُ أنْهارٍ من الجنةِ: الفُراتُ، والنِّيلُ، وسَيْحانُ، وجَيْحانُ**" انظر صحيح الجامع للألباني برقم 4196.

فما الحل ؟ وقد سبق – فيما أشرنا- عرض فكرة قتل موسى على طاولة المناقشة في اجتماع سابق لهم بعد أحداث يوم الزينة، ولاقت هذه الفكرة رفضاً وممانعة – من ناحية الرأي- للأسباب السابق ذكرها؛ تلك الأسباب التي جعلتهم يفكرون ألف مرة قبل أن يقدموا على محاولة قتل موسى؛ لكنهم اليوم في اجتماع مع فرعون لمناقشة هذه الأسباب من جديد، وطرح فكرة قتل موسى والخلاص منه ومن دعوته..

وكانت الكلمة الأولى في الاجتماع لفرعون ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ** ﴾ غافر:26.

ليبدد فرعون كل الأسباب الماضية في طيات كلامه، فهو يقول: دعوا موسى لا تقتلوه أنتم، بل إنني أنا الذي سأتولى قتله، فسكوتنا عليه أكثر من هذا سيجعل رسالته تنتشر، ويضم أعداداً أكثر وأكثر إلى صفوفه فيبدل دينكم –كما بدل دين زوجتي وخادمتي – أو يظهر في الأرض الفساد بتأليب الناس علينا.

ويبدو أن كلام فرعون – هذه المرة – لاقى قبولاً من أغلب الحاضرين في هذا الاجتماع؛ وسوف تتم عملية اغتيال موسى بالفعل.

فأوحى الله إلى موسى أن فرعون وملأه يدبرون الآن في اجتماعهم الأجواء لقتلك، فقال موسى عليه السلام طالباً العون والنصرة والحماية من الله: ﴿ **إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**﴾ غافر:27، فقيض الله إنسانا أجنبياً غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه، وبالغ في تسكين تلك الفتنة، واجتهد في إزالة ذلك الشر[1].

---

[1]) قال الإمام الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أن موسى– عليه السلام– ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله، ثم قال– رحمه الله–: ولقد جربت في أحوال نفسي أنه كلما قصدني شرير بشر لم أتعرض له، وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله، فإنه– سبحانه– يقيض أقواما لا أعرفهم البتة، يبالغون في دفع ذلك الشر عني. انظر تفسير الفخر الرازي ج 7 ص 304.

فقد كان من الحاضرين في هذا الاجتماع ﴿ **رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**﴾ أي من عائلته، بل ومن الرؤوس الكبيرة في الدولة فقد كان مستشاراً أو أميراً أو وزيراً أو قائد جند؛ وقد كتم إيمانه ليس عن جبن أو خوف، وإنما كان كتمان إيمانه لسياسة حكيمة، وتدبير محكم، لينفع موسى عندما يشعر أن الخطر يحيط به.

فلقد كان من تدبيره — وهو رجل سياسة ومُلك– أن يجلس إلى فرعون المجلس الذي اعتاده منه – مجلس إبداء الرأي، وعرض النصيحة، في معرض تبادل الآراء، وتقليب وجوهها لا أكثر ولا أقلّ، ومن هنا يكون للرجل أن يقول ما يشاء من آراء، ويبدى ما يرى من حجج، وأن يجد لذلك من فرعون ومن حوله أذناً تسمع، وعقلاً يعقل، وإنه لا بأس على فرعون أن يأخذ بالرأي الذي يخلص به من بين تلك الآراء؛ ووقتها سيكون هو الذي يعطى الرأي ولا يأخذه، ويصدر الحكم، ولا يتلقاه!!

ومن هنا نجد الرجل المؤمن– بهذا التدبير الحكيم– سيقوم خطيباً يحتال في كلامه لدفع الملأ عن موسى, ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى, مخاطباً عقولهم وقلوبهم وفي آن واحد؛ مرة بالتخويف، ومرة بالإقناع، ومرة بأخذ العبرة من التاريخ، مستخدماً أغلب أساليب الإقناع، ومنهجيات وأسس الحوار الناجح المعروفة لدى الأكاديميين الآن.

محاولة الإقناع العقلي

فعندما قال فرعون ما قاله، وسكت الحضور إقراراً وتأييداً لما سوف يفعله فرعون، قام المؤمن يقول لهم: إنكم مقدمون على فعل فظيع ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾ غافر:28، هل هذه الكلمة البريئة التي يرددها موسى، المتعلقة باعتقاد قلبه, واقتناع نفسه, تستحق القتل؟

ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فيقول لهم: إن الذي يقول هذه الكلمة البريئة: ﴿ **رَبِّيَ اللَّهُ** ﴾يقولها ومعه حجته, وفي يده برهانه ﴿ **وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ غافر:28.

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض; ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية; تمشياً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه فيقول: ﴿ **وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعليهِ كَذِبُهُ**﴾ غافر:28، فهو وحده الذي يتحمل تبعة عمله, ويلقى جزاءه, ويحتمل جريرته-إن كان كاذباً - فلماذا نقتله ؟!؛ ثم- من يدرى؟ - فقد يكون الرجل صادقاً فيما يقول، فماذا لو انتظرنا، ثم نظرنا في دعوته هذه، وعرضناها معرض الدراسة والبحث، فقد نجد فيها خيراً، وقد ينكشف لنا منها هدى ونور، وهل ثمة بأس علينا إذا وجدنا خيراً فأخذنا بحظنا منه؟﴿ **وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**﴾ غافر:28.

ثم يهددهم من طرف خفي, وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ غافر:28، فإذا كان موسى كاذباً فإن الله لن يهديه ولن يوفقه, فدعوه له يلاقي منه جزاءه؛ واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وتفترون عليه, فيصيبكم هذا المآل[1]!

العزف على وتر حب الوطن

ثم يسألهم قائلاً:﴿ **يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ اليوم ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا**﴾ ؟! غافر:29.

ولم يقل "فمن ينصركم" ليشعرهم أن أمرهم يهمه، فهو واحد منهم، ينتظر مصيره معهم وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، لعل هذا يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص، فهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه، وأنهم إزاؤه ضعاف، وأنه يخاف على مصر القوية أن تسقط بسبب الإسراف في قتل الأبرياء.

---

[1] حاول المستشار المؤمن خلال هذه النصيحة أن يجردها من أي تعصب لفكرة أو لشخص قد يؤخذ عليه، فلم يذكر موسى باسمه وإنما نعته بوصفه " رجلاً" حتى لا يشخصن أحدهم كلامه على موسى، فهو يدافع عن أي شخص صاحب فكر، فالفكر لا يقاوم بالقتل وإنما تقاوم الأفكار بالأفكار، وقد أكد أنهم بصمتهم سيشاركون في إثم القتل وإن لم يقتلوا بأيديهم، فرغم أن فرعون قال: "ذروني أقتل" إلا أنه وجه إليهم تهمة المشاركة في القتل بقوله" أتقتلون" فصمتهم يعني الموافقة والموافق على القتل مشارك في إثمه.

ثم يسكت ولسان حاله يقول:هذا رأيي، وتلك نصيحتي لجناب الفرعون، كما يقضى بذلك واجب الولاء والإخلاص له، وللرعية..!!

وهكذا استطاع الرجل المؤمن، بحكمته وسياسته – في كتم إيمانه – أن يَلقى فرعون والملأ من حوله، بهذا المنطق الرزين الهادئ، في غلاف رقيق من النصح والمناصحة! ، ليترك الملأ من آل فرعون، وقد دارت رءوسهم من هذا المنطق الواضح وما بين يديه من حجة وبرهان.

ولكن فرعون هو فرعون، يأخذه ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة؛ تأخذه العزة بالإثم، ويرى في النصح الخالص له افتئاتاً على سلطانه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان، فقد قال معقباً على كلام مستشاره: ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ غافر:29، إذ ليس لكم عندي في هذا الأمر إلا ما رأيته من قبل، وما سمعتموه مني حين قلت لكم: «**ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ**» .. تلك هي كلمتي الأولى والأخيرة، وإنها الكلمة التي فيها رشادكم، وحمايتكم من هذا الشر الذي يهِبُ عليكم فهل تشكّون في حمايتي، وحرصي على حفظكم ورعايتكم، وارتياد مواقع الخير لكم؟

كلمات تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي السلطوي الذي كان يحمله هذا الطاغية، فقوله ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى** ﴾، يعني أنه لا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يجوز لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا ينظروا إلا إلى موضع نظره، فهو على الصواب دائماً وغيره على الخطأ، وهو المبصر وهم العميان؛ كلامه رشاد وكلام غيره غي، هو كل شيء وغيره لا شيء.

حوار عاطفي لاستمالة القلوب

وتأذن هذه الكلمات من فرعون بانفضاض مجلس المشورة، والسماح لهم بالانصراف، فبادرهم المؤمن ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ..**﴾ فقعد من همّ بالوقوف، وأنصت من كان يتكلم !!

ليتابع الرجل المؤمن حديثه، ويواصل ما انقطع منه - وكأنّ فرعون لم يقل شيئاً- فخرجت الكلمات من فم الرجل المؤمن، متدفقة هادرة، تحمل نبرة عالية من الأسى والحزن والإشفاق، خشية أن ينزل عليهم عقاب من عند الله كما نزل على الذين من قبلهم، فقد كُتب عندهم في كتب التاريخ أن كل من قتلوا الأنبياء أو آذوهم عمهم الله بعذاب من عنده، فذكرهم الرجل بهذه السُنة﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ** ﴾ غافر:30، الذين أغرقهم الله بالطوفان، ﴿**وَعادٍ**﴾ الذين أهلكوا بالريح العقيم، ﴿**وَثَمُودَ**﴾ الذين الله بالصيحة ﴿**وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ ممن أهلكوا بأنواع أخرى من العذاب، جزاء تكذيبهم وتنكيلهم بأنبيائهم؛ فهل تنتظرون أن تكونوا مثلهم؟!﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ**﴾ غافر:31

تذكرة بالمآل والمصير

ثم يحذرهم من يوم القيامة فيقول:﴿ **وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ غافر:33، فكروا جيداً في هذا اليوم العصيب، واعملوا صالحاً من أجله، فلن ينفعكم أحد— إشارة إلى فرعون —في هذا اليوم إلا عملكم الصالح مع رحمة الله.

جولة تاريخية

ثم يذكرهم بتاريخ يوسف وما فعله أجدادهم من المصريين معه فيقول: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ**﴾ غافر:34.

وهل موسى إلا من نسل آل يوسف؟ وهل جاء موسى بغير ما جاء به يوسف ؟!

ثم يسكت لينتظر ردهم، بعد أن لبستهم حال من البلبلة والاضطراب، فكلام الرجل غاية في الإقناع؛ ودارت برءوس القوم عواصف البلبلة والحيرة، فيجد فرعون نفسه في مأزق جديد، فكلام مستشاره – المؤمن – قد لانت له عقول الملأ.

مراوغة مفضوحة

نظر فرعون إلى من حوله من الملأ قاطعاً حالة التفكير التي عمتهم، قائلاً:

في أي شيء تفكرون ؟ ﴿ **يا أَيُّهَا الملأ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي** ﴾ القصص:38، فموسى الذي تدافعون عنه يتحدث عن إله آخر.. فأين هو هذا الإله؟ لو كان في الأرض، فأي أرض هي؟ إنه لا آلهة على الأرض غيري أنا!

أم ترى هو في السماء؟ السماء ليست بعيدة!! ﴿ **فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ** ﴾ القصص:38، حتى إذا صار حجارة تصلح للبناء ﴿ **ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا** ﴾ غافر:36.

هزل في هزل، ليس فيه شيء من الجدّ.. إذ كيف يبني «هامان» صرحاً يرتفع به إلى السماء؟ وما المدة التي يستغرقها بناؤه، إن كان ذلك الأمر مستطاعاً من الأساس !!

إنها مماحكات وتعلّلات يتعلل بها فرعون، ليخلص من هذا المأزق الذي أوقع فيه نفسه، بإعلان رأيه في قتل موسى والخلاص منه! وما نحسب أن «هامان» بنى هذا الصرح، وإن تلقّى أمر فرعون في حينه بالامتثال والطاعة، فهو لا يملك إلا أن يقول "تمام يافندم" كعادة العسكريين مع قادتهم، حتى وإن كان الأمر خطئاً أو غير جاد! ففي قول فرعون: «**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً**» ما يشير إلى أنه لم يكن جادّا فيما يقول، وإنما هي مناورة من مناورات حواره السلبي[1] للخروج من المأزق.. فلقد

---

[1] الحوار السلبي له أكثر من صورة منها: الحوار السّلطوي: الذي يلغي فيه أحد الأطراف الطرف الآخر ويعتبره أدنى من أن يحاور فيفرض عليه الاستماع للأوامر والاستجابة الفورية لها، وقد لجأ إليه فرعون، كما لجأ إلى حوار الطريق المسدود: وهو حوار الذي يصر فيه أحد الطرفين منذ البداية على صواب رأيه

أصدر حكمه على موسى واتهمه بالكذب قبل أن يتحقق من وجود إلهه؛ فما الداعي إذاً لبناء الصرح ؟!

ولو كان جاداً لصعد الأهرامات[2] لينظر ويطلع –كما أراد – إنما هو الاستهتار من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى ﴿ **وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ** ﴾ غافر:37.

الكلمة الأخيرة

وأمام هذه المراوغة، وهذا الاستهتار والإصرار على الباطل؛ ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة، ليدعو الملأ بكل وضوح إلى اتباعه في الطريق إلى الله، فهو طريق الرشاد ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ غافر:38، ليرد بوضوح وتحدٍ على فرعون الذي قال: «**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**» غافر:29

ثم حاول أن يكشف لهم قيمة هذه الحياة الزائلة في الدنيا، وأن يشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، ويحذرهم عذاب الآخرة ويبين لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان ﴿ **وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا**

وسفاهة محاوره، ويتمسك بشدة بوجهة نظره، كما لجأ أيضا إلى حوار المناورة: وهو عبارة عن مثل تلك المناورة التي لجأ إليها فرعون عندما قال (يا هامان ابن لي صرحاً) للخروج من المأزق والتظاهر بالإنصاف والتثبت.

[2] الأهرامات تم بناؤها في عهد الأسرة الثالثة والرابعة عام 2551 قبل الميلاد، وقصة فرعون موسى حدثت في الأسرة الـ19 على أرجح الأقوال، وكان ارتفاع الهرم الأكبر «خوفو» قديماً، 146.5 متر «481 قدم»، لذا كان أعلى بناء شيده الإنسان المصري في العالم على مدار آلاف السنين؛ فلماذا لم يصعد عليه فرعون بدلاً من بناء صرح جديد لن يبلغ ارتفاعه إلى مثل ما بلغ ارتفاع هرم خوفو إن كان يبغي البحث والتقصي وليست المناورة والمماطلة ؟!.

أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إليه لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾غافر:43

التدبير لاغتيال المستشار

ثم بعد هذا البيان الواضح الذي واجه به فرعون وملأه بلا تردد ولا تلعثم – بعد ما كان يكتم إيمانه – لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى ﴿ **فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ غافر:44، ثم قام وترك اجتماعهم وانصرف!

فنظر فرعون إلى هامان، نظرة الإذن في التخلص منه؛ فتعقبوه فلم يصلوا إليه ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**﴾ غافر:45، فقد فر الرجل إلى الجبال، تاركاً قصره ومكانته الاجتماعية، ووظيفته السيادية، وراءِ ظهره راغباً في جوار الله، وظل على حالته هذه عدة سنوات – ملاحقاً ومطارداً – حتى أذن الله لموسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر فخرج معهم[1].

ولما كان من الصعب –كما تبين – اغتيال موسى عليه السلام، بدأ فرعون وملؤه يفكرون في القضاء على دعوة موسى ذاتياً، لتدمر الدعوة نفسها بنفسها، وذلك بتفكيك الصف الداخلي لهذه الجماعة المؤمنة، والتشكيك في قائدها وتشويه صورته أمامهم، مستخدمين لتحقيق هذا الهدف أحد أفراد بني إسرائيل؛ وقد كان هذا الرجل ابن عم موسى ومن الفئة القريبة منه يوماً من الأيام

إنه قارون[1] ..

---

(1) ورد في تفسير النسفي أنه فر هارباً في الجبال (تفسير النسفي ج3 / ص214)، (القرطبي ج15 / ص 318)، وقال قتادة: نجا مع موسى فكان ممن عبروا البحر مع بني إسرائيل. انظر (تفسير الماوردي ج5 / ص 159)، (تفسير البغوي ج7 / ص150)،.

(1) قارون بن يصهر بن فاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قصة حياة قارون

﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى** ﴾ القصص:76؛ في هذه الكلمات السِتة فقط! اختصار لأحداث طويلة من حياة قارون؛ قبل أن يلهث وراء الثروة التي جعلها فرعون طعماً لاصطياده.

فقد كان قارون من فقراء بني إسرائيل الضعفاء المطحونين المضطهدين، ولكنه كان طموحاً صاحب همة عالية، كما كان عابداً لله موحداً له على دين جده يعقوب.

وكان من الأتباع العباد لله المقربين من موسى عليه السلام، الذين حملوا الرسالة بقوة لتبليغها لقومهما، ولذلك لم يقل الله عنه أنه "كان من بني إسرائيل" لأن فيهم الصالح والطالح، ولكن الله قال:

﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى** ﴾ ليترك المجال أمام عقلنا الواعي لنتخيل عبادته[1] وورعه، وقربه من موسى وحرصه على تبليغ الدعوة معه.

سر الثراء

كان قارون طموحاً ذا همة عالية، لم يستسلم للفقر والاستعباد، فعمل على تحسين مستواه المعيشي، بما حباه الله من علم ومعرفه، فانشغل بالتجارة ونجح فيها نجاحاً ملحوظاً مقارنة بأقرانه؛ ولما اشتد الإيذاء على بني إسرائيل بعد أحداث يوم الزينة، خاف قارون من بطش فرعون به، فبدأ يبتعد شيئاً فشيئاً عن موسى، وكان فرعون –ككل نظام فاسد– يمنع نمو أموال المعارضين له، وكان من استضعافه للناس يصادر أموالهم وأراضيهم إذا زادت عن الحد الذي حده؛ ولكن فرعون ونظامه غضوا الطرف عن قارون، لأن التقارير الأمنية كانت تؤكد أن قارون أصبح بلا انتماء بعد ابتعاده عن موسى ودعوته؛ فأفسحوا له المجال!

---

(1) قال قتادة: كان قارون بن عم موسى وكان يسمى بالنور لحسن صوته بالتوراة ولكنه نافق(الدر المنثور ج6 / ص437).

فازدادت أموال قارون، ودخل بها في تجارات عديدة ومتنوعة، ومشاريع استثمارية كبيرة، وسط فرحة عارمة في صفوف بني إسرائيل لنجاح واحد منهم في مجال من المجالات، مع تخوف ملحوظ من موسى ورفاقه على ثبات قارون على الإيمان بالرسالة، فطموحه الزائد – وإن بقي على الإسلام – مع ابتعاده عن طريق الدعوة قد يجعله فريسة لفرعون ونظامه، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية[1].

استمر قارون بعيداً عن طريق الدعوة، فقد انشغل بأمواله وتجاراته وشركاته، حتى أصبحت أمواله ثروة لا يتخيلها العقل البشري– إنها كنوز – وانطبق عليه المثل الذي يقول: ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب !.

حجم الثروة

ولما كانت النقود عملة متغيرة القيمة من وقت إلى آخر ومن زمان إلى زمان؛ وصف الله لنا ثروة قارون بطريقة حفظها في الخزائن فقال:﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ** ﴾ مفاتيح الخزائن التي تحتوي على الكنوز﴿ **لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ والعصبة: جماعة من الناس لا يقلون عن عشرة رجال أشداء[2]، من **أُولِي الْقُوَّةِ** ليحملوا مفاتيح الخزائن فقط لكلّ بعضهم واثّاقل عن حملها من ثقلها وكثرتها، رغم أنه من **أُولِي الْقُوَّةِ !**

ويزداد العجب عندما تعلم أن الخزائن –كالعادة – لا تحتوي إلا على النقود– السيولة – فما بالكم بقصوره، وأراضيه، وشركاته ؟! فكلمة "**مِنَ**" في الآية ليست للتبعيض وإنما للتنوع، لتفسح لعقولنا المجال لنتخيل أنواع الثروات التي يمتلكها قارون.

---

(1) جزء من حديث جاء في نصه"**عليكَ بالجماعةِ فإنَّما يأكلُ الذِّئبُ القاصيةَ**" الراوي : أبو الدرداء | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح أبي داود، الصفحة أو الرقم: 547 | خلاصة حكم المحدث : حسن

(2) اختلف العلماء في عدد العصبة – الجماعة من الناس – إلى عدة أقوال منها: قال بن عباس: هم من الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد: العصبة هنا ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقال السدي وقتادة: هم ما بين العشرة إلى الأربعين، وقال الكلبي: العصبة هم عشرة رجال لقول إخوة يوسف "ونحن عصبة" [يوسف: 8] وقاله مقاتل، وقال خيثمة: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلا غراء محجلة, وأنها لتنوء بها ثقلها, وما يزيد مفتاح منها على إصبع, لكل مفتاح منها كنز مال لو قسم على أهل البصرة لكفاهم (انظر تفسير البغوي ج3/ ص543).

كما جاءت كنوزه بدون تفصيل أو وصف لنوعها ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ**﴾ لنتخيل في كل زمان ومكان أنواع التجارات التي تاجر فيها، وشكل المصانع التي بناها، والأسواق التي امتلكها، والأراضي التي زرعها، فإذا كان في زماننا من حصل على توكيل لإحدى شركات السيارات أو الأجهزة المنزلية يقول: أنا حصلت على"كنز"؛ فقارون قد حصل على كنوز كثيرة !!

رحلة السقوط

وبدأ الانحدار الأخلاقي الذي يقع فيه بعض من وسع الله عليهم بالتعالي على من هم دونه، فكانت أول سقطة لقارون أنه لما علا بغى ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عليهِمْ**﴾ القصص:76، وكلمة "بَغى" لها في اللغة تصريفات عديدة بمعان كثيرة[1]؛ تفهم من خلالها درجة السقوط والتدني التي وقع فيها قارون بعدما أصبح من كبار رجال الأعمال في الدولة، وكأن الله يقول: ما إن أنعمنا عليه وكثرت أمواله حتى نسي دعوته التي تربى في كنفها، بل ونسي أهله الذين خرج من بينهم وتعالى عليهم ثم تنصل منهم وكأنه لا يعرفهم.

كِبر وغرور

تغلغلت الوجاهة والزعامة في قلب قارون؛ فها هو يمشي متبختراً لا يلقي سلاماً ولا يرده! وأصبح لا يرى في الدولة إلا نفسه، وبدأت علامات الكبر والعُجب تظهر عليه بوضوح؛ تقرؤها في قسمات وجهه، وتراها في سُخرية عينيه، وتسمعها من فلتات لسانه.

وهذا دائما يكون حال من تقبل عليهم الدنيا، فيظهرون معدنهم السيئ، وعلاج ذلك أن تُعمَرَ القلوب بالإيمان، ويُتخذ للنفوس صحبة صالحة ترصد عيوبها وتُقوِّم اعوجاجها، مع محاسبة ذاتية مستمرة للنفس فهي دائما ما تتغير مع المنصب والجاه، فتبدأ في ازدراء الناس، وتغيير المبادئ؛

(1) فَبَغى تأتي بمعنى جار وظلم؛ وبَغى بمعنى تجاوَز الحَدَّ واعتدى؛وبَغَى بمعنى تسلَّط وظلم، وبَغى بمعنى سعى بالفَساد واقترف الإثمَ خارجًا على القانون أو الشَّرع، والبغي قد يأتي بمعنى التلذذ بالحرام ومنه يقال عن الزنا: "بغاء" وعن الزانية: "بغي".

وهذا هو السر في قول الرزاق – جل في علاه – ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ فخزائنه ملأى لا تنفد أبداً، قال في الحديث القدسي: "**يا عبادي ! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألتَه؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البحرَ**"[1]، ولكن الناس أمام المال صغار لا يملكون التوازن، ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد، والله بعباده خبير بصير، ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً، وإلا لبغوا في الأرض، لنوقن أن الخير فيما يأتينا، وأن الكثرة ربما ستطغينا.

ولأن عبد المال يضحي بكل شيء في سبيل تحصيله؛ كان قارون في كل يوم يتخلى عن مبادئه وأخلاقه ليجتاز أي عقبة قد توضع أمامه، حتى وإن كان اجتياز هذه العقبات على حساب أهله وأصدقائه ورفقاء دعوته من بني إسرائيل.

قارون في شباك الدنيا

لقد كان غنى قارون تحت عين فرعون وبإذن منه، وإلا كان من الممكن أن يصادر نظام فرعون كل أموال قارون بجرة قلم وبدون آية أسباب؛ ولكنهم تركوه ليستغلوه ويضموه إلى معسكرهم، ويكون معول هدم في أيديهم يضربون به دعوة موسى، ولا مانع وقتها أن يستمر في غناه، طالما أنه نفذ خطتهم التي رسموها.

جمعت الثروة بين قارون وسادة ملأ فرعون، وباتت تجمعه بهم سهرات وشراكات – وإن كان مازال حتى الآن على خلاف عقائدي معهم – لجمع المزيد من الأموال عن طريق التسهيلات والتنازلات التي سيقدمونها له، رغم أن الله آتاه من الكنوز ما لو ظل أعماراً فوق أعماره ينفق منها ما نفدت، ولكنه الطمع واللهث وراء المال.. أي مال، حتى ولو كان عن طريق الإفساد في

---

[1] رواه مسلم في صحيحه برقم: 2577، عن أبي ذر الغفاري.

الأرض[1]، فإن كانت صحبة السوء تفسد، فكيف لو كانت هذه الصحبة حفنة يقودها أفسد أهل الأرض "فرعون"؟!

ومرة بعد مرة، وصفقة بعد صفقة، كان على قارون سرعة الاختيار بين الدين والدنيا، بين حمل الرسالة أو الجاه والمال والسلطان، ولكنه -كما ظن فرعون - آثر الحياة الدنيا وزينتها، ورأى في بعده عن دين أجداده- وارتمائه في أحضان نظام فرعون - الخير له ولأمواله وتجاراته، فتلك الصفقات المشبوهة الفاسدة، جعلت قارون يدرك أن بقاء نظام فرعون يعني بقاء ثروته ونموها، ومعنى سقوط نظام فرعون هو ضياع أمواله التي جمعها من الحلال ومن الحرام، فبدأ يظهر في الصورة مع المعادين لرسالة موسى عليه السلام، معلنا ترك دينه الذي آمن به من قبل.

قارون يكفر بالله

لقد رضي الشيطان من قارون أن يترك العمل الدعوي فقط، من أجل أن يتفرغ لتجارته وأمواله ؛ على أن يظل متمسكاً بدينه داعماً له، ثم جره الشيطان إلى الخطوة التي تليها وهي الابتعاد عن رفقاء دعوته حتى يحافظ على أمواله وكنوزه من مصادرة نظام فرعون لها، ثم جره إلى الخطوة التي تليها فغرس في قلبه حب الدنيا والحرص على جمع المال والكبر والسعي نحو الزعامة فتعالى على أهله ورفقاء دعوته، ليجره للخطوة التي بعدها وهي القرب من طبقة النظام الحاكم وتبادل الرؤى والحوارات والسهرات معهم، ليجره للتي بعدها وهي عقد شراكات هدفها الإفساد في الأرض فيتلوث ماله بالحرام، ثم جره للتي بعدها فأقنعه أن بقاء أمواله مرتبط ببقاء فرعون ونظامه لذا كن حليفاً لهم؛ ليهوي به هذه المرة إلى القاع ويقول له: كن على دينهم؛ فكان على دينهم !

قارون القيادي السابق

---

(1) قد جاء إفساده في الأرض نكره على لسان قومه عندما نصحوه فقالوا: ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ لنفهم أنه أدخل المال الحرام في ثروته، وصور هذا المال المحرم متعددة فمثلاً – في ضوء واقعنا المعاصر – نمت ثروت قارون عن طريق الكسب غير المشروع، أو عن طريق إنشاء الخمارات والملاهي الليلية، أو عن طريق التجارة في المخدرات، وجلب الأطعمة الفاسدة والأدوية المغشوشة وغيرها من وسائل الكسب التي تزيد وتنمي الأموال بسرعة عن طريق الإفساد في الأرض.

انتهز فرعون الفرصة؛ فقارون أصبح أُلعوبة في أيديهم يحركونها كما يريدون، فطلبوا منه أن يخرج في الناس ويدلي ببعض التصريحات التي تحط من قدر موسى وتطعن في دعوته.

فخرج قارون في الناس معترفاً أنه كان في يوم من الأيام تلميذاً من تلامذة موسى وأحد أبناء دعوته، ولكنه ترك الدعوة عندما تأكد من كذب موسى وافترائه على الله، فما يقوم به موسى سحر ودجل، ناصحاً الناس بعدم تصديقه أو الاستماع إليه، فهو أدرى الناس به، فقبل أن يكون ابن دعوته كان ابن عمه ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ غافر:24

ولكم عانى موسى من هذه التصريحات، فقد أخذ الناس كلام قارون على أنه حقيقة مُسَلم بها، فقد كان يوما ما قريباً منه، وهو أولاً وأخيراً ابن عمه وأدرى الناس به، فصد عن سبيل الله خلقاً كثيراً.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وبدأ عداء قارون لموسى ودعوته يتصاعد حتى أصبح أشد من عداء فرعون وهامان، فقد تقدم اسمه على أسمائهم عندما ذكر الله لنا عداء أصحاب المصالح للدعوات فقال:﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** ﴾ العنكبوت:39

لنفهم أن قارون قد تنازل عن دينه وقيمه وأخلاقه ومبادئه – التي تربى عليها – من أجل الحفاظ على منصبه وأمواله، فكثر شره وانعدم خيره فكان أشد عداء لموسى من عداء فرعون ! وهو الذي كان يوما ما صاحب رسالة، وعابداً من العباد، ولكنها نفسه التي لم يكبح جماح

حرصها على الدنيا، فأوردته المهالك ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** ﴾ العنكبوت:38.

المؤامرة الفاشلة

زاد قارون في طغيانه – من أجل أن ترضى عنه السلطات – أن دفع مالاً لامرأة من العاهرات الزواني – يبدو أنه تعرف عليها في إحدى سهراته الفرعونية – مقابل أن تقف في جمع حاشد من بني إسرائيل وتتهم موسى علانية بأنه قد زنى بها

وبالفعل ذهبت المرأة ووقفت في جمع حاشد لبني إسرائيل وقالت: أيها الناس إن موسى الذي يحدثكم أنه نبي يوحى إليه من السماء؛ كان معي على فراشي الليلة الماضية!

فقلب الناس كفاً على كف، وسط همهمة فيها سب وتطاول وإيذاء، ليجد موسى نفسه في محنة لا يدري كيف يخرج منها؛ فرفع يديه ودعا ربه أن يبرئ ساحته من هذا الاتهام البشع.

فاستجاب الله دعاءه، فرق قلب المرأة واعترفت أمام الناس أن قارون هو الذي دفع لها مالاً كثيراً من أجل أن تقول ما قالته على موسى عليه السلام ثم استغفرت الله وتابت إليه، فخر موسى ساجداً لله شاكراً له [1].

وفد في زيارة قارون

ورغم كل ما فعله قارون، لم يتخل موسى عنه، فقد أرسل له وفداً من خيار قومه، برسالة مفادها، ألا يتعالى على الناس فهم منه، وهو منهم، والله لا يحب المتكبرين وفي ذلك إيقاظ له من سكرة المال[2]، حتى إذا صحا، دعوه إلى ما ينبغي أن ينفق فيه ماله، فيطلب به رضا الله، ويقدم منه

(1) وردت القصة بأحداث مختلفة في أكثر من تفسير ولكنها في النهاية تصب في مجرى الأحداث التي كتبتها انظر مثلاً (تفسير القرطبي ج13/ ص 113).

(2) قال عمر بن الخطاب: احذروا المال فإن له ضراوة كضراوة الخمر.

بعض الصدقات لتطهره وتزكيه وتنفعه في الآخرة، وأن يبرئ ساحة نفسه من تهم الفساد الموجهة إليه.

وذهب الوفد إلى قصره الفخم؛ ما أروعه !! أعمدته من الرخام المحلى بالذهب والفضة وأرضيته من أرقى أنواع الرخام، ونوافذه من خشب الصندل المعطر ..

خدم وحشم في كل مكان، وإجراءات أمنية مشددة قابلهم بها حرسه الخاص حرصاً على سلامته!

وبعد طول انتظار .. قابلوا قارون في أبهته، ووجاهته! ولما كان وقته من ذهب –كما علموا عند قدومهم – أوجزوا حوارهم واختصروا نصيحتهم في ثلاث رسائل واضحة وقوية.

الرسالة الأولى: لا تفرح بالدنيا

﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴾ فإن الدنيا لو أعطتك وجهها اليوم فقد تستدير عنك غداً، ولا تغتر بما آتاك الله من ثروات وكنوز، فتتكبر وتتعالى على خلق الله، فهم منك وأنت منهم، والناس سواسية وكلهم من آدم وآدم من تراب، **يقولُ اللهُ تعالى: يا ابْنَ آدمَ ! أنَّى تُعْجِزُنِي وقد خلَقْتُكَ من مِثْلِ هذا ؟ حتى إذا سوَّيْتُك وعَدَلْتُك ، مَشَيتَ بين بُرْدَيْنِ ولِلأرضِ منكَ وئِيدٌ ، فجمعْتَ ومَنعْتَ**[1]

الرسالة الثانية: أدِ حقوق الناس

كما ننصحك – بحق الأخوة والدين – أن تتصدق ببعض مالك ابتغاء رضى الله عنك؛ فإن "**صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوءِ وصدقةُ السِّرِّ تُطفئُ غضبَ الرَّبِّ وصلةُ الرَّحمِ تزيدُ في**

[1] رواه بسر بن جحاش القرشي كما في صحيح الجامع للألباني بسند صحيح برقم 8144.

العمرِ"[1] ﴿ **وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا** ﴾ القصص:77، فالعاقل من يستطيع الموازنة بين الدنيا والآخرة ولا يطغي إحداهما على الأخرى.

﴿ **وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِليكَ**﴾ القصص:77، فما نطلبه من زكاة وصدقات لأهلك من فقراء بني إسرائيل، هو نوع من الإحسان مقابل ما أحسن الله إليك فأعطاك وأغناك.

الرسالة الثالثة: تطهر من الفساد

وفي الختام حتى لا نطيل عليك، فقد جاءت امرأة عاهرة تتهم نبي الله موسى υ بأنه زنا بها، ثم كذّبت نفسها بنفسها واعترفت: أنك استأجرتها لتتهم نبي الله موسى بهذا الاتهام فتهز صورته أمام الناس، كما بلغنا أنك تستخدم أموالك في الصد عن سبيل دعوة الله، وأنك أصبحت حليفاً لفرعون الذي اضطهدنا وأذلنا وقتّل أبناءنا، وبت تقول ما يقوله عن موسى υ بأنه ساحر وكذاب ! ، فابتعد عن فرعون ونقِ أموالك إن شابها شيء من هذا الفساد ﴿ **وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ القصص:77، ثم سكتوا ..

فقال قارون – بعد صمت وعدم مقاطعة-: أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي** ﴾ القصص:78، فقد أوتيتُ هذه الكنوز بسبب علمي وجهدي وتعبي وذكائي، فبأي حق تُمْلُون على طريقة خاصة في التصرف فيها ؟ أنا أتصرف كما أشاء وقتما أشاء، وأمنع من أشاء وأعطي من أشاء؛ ونصائحكم غير مقبولة. .. انتهت المقابلة!

ليخرج قومه من عنده وهم يتأسفون على حاله ويقلبون كفاً على كف، كيف تجرأ قارون بهذه البشاعة والوقاحة على الله، كيف تناسى ما كان بيننا وبينه من أواصر أُخَوِية، كيف لا يتبين الحلال من الحرام في أمواله، كيف ينسب فضل ما هو فيه من صحة ونعيم لنفسه ولا يُرجع

---

[1] رواه المنذري بسند حسن في الترغيب والترهيب 69/2 عن أبي أمامة الباهلي.

الفضل لله، ألا يخاف من الله؟ ، أفلا يجلس مع نفسه لحظات لينظر إلى من كان قبله من الأمم السابقة، أين هم الآن؟ وأين ما جمعوا من مال وما اجتمع لهم من قوة؟ هل أغنى ذلك عنهم من بأس الله من شيء؟ لقد هلكوا، وهلك ما كان لهم﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً** ﴾ ؟! القصص:78.

تفاصيل الزيارة بين يدي موسى

وجاء الوفد لموسى يقصون عليه ما دار بينهم وبين قارون، وما كان منه من بغي وتطاول، وإعراض عن النصح، وتعالٍ على العظة، وإصرار على الفساد، واغترار بالمال.

فتيقن موسى أن قارون قد وصل إلى طريق لا رجعة فيه، وقد أصبح وجوده أشد خطراً من فرعون على دعوته، فهو بماله يصد عن سبيل الله، ويبهر عقول الناس ويلهيهم، كما أنه يفتن الآخرين بتصريحاته التي يرددها بأن موسى ساحر وكذاب؛ فدعا موسى عليه بأن يجعله عبرة وآية لكل الناس؛ فاستجاب الله دعاءه.

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً　　فالظلمُ ترجع عقباه إلى الندمِ

تنامُ عينكَ والمظلومُ منتبهٌ　　يدعو عليكَ وعينُ اللهِ لم تنمِ

موكب قارون

وذات يوم تحرك موكب قارون – وقد خرج كعادته – في موكب حاشد لأكبر رجل أعمال في الدولة، عربات من أحدث طراز مزينة بأرقى الزينات، ومُطَعّمة بالفضة والذهب وسروج خيلها مصنوعة من الجلد المزين بالذهب الخالص، جنود وحرس على جانبي الموكب، وأصناف النعيم والترف وزخارف الدنيا تحيط به من كل مكان، ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ** ﴾ القصص:79؛

والغرض من كل هذا أن يظهر فيه سيداً عظيماً في زي أصحاب الملك والسلطان، فيفتن الناس ويحرك أهواءهم.

فلما رآه الناس تطايرت من أعينهم قطرات التمني والغيرة ﴿ **قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ القصص:79، فقد استهوتهم الزينة، وسال لعابهم أمام جمال الموكب، ولم يتساءلوا بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما ناله من حظ الحياة؟ لم يفكروا ولو للحظات إلى الثمن الباهظ الذي أداه، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذها !!.

لقد ظن المساكين أن الله لما أحب قارون أعطاه الدنيا فصار ذا حظ عظيم، ونسي المساكين أن سعة الرزق وكثرة المال ليست علامة حب من الله جل وعلا، فهو القائل:﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾ المؤمنون:56 فالله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب[1]، ولكنه لا يعطي الدين والتمسك بالدعوة إلا لمن أحب، بهذه المعاني دخل عليهم عقلاء القوم – من المتصلين بالله - ليذكروهم بها: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ** ﴾ القصص:80، فاحمدوا الله على نعمة الإيمان، وشرف حمل الرسالة، فذلك خير وأبقى.

وما أروعها من نصيحة صادقة يحتاج إليها بسطاء الشعب الكادح حينما يشاهدون مواكب «قارونات» اليوم وهى تقطع عليهم طرقهم وتعطلهم عن مصالحهم، وتسير بفخامتها أمام أعينهم؛ لتحول أغلبهم إلى باحثين عن المال حتى لو كان على حساب الأخلاق والمبادئ أو حتى الدين.

الأرض تبتلع قارون

[1] عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إنَّ اللَّهَ يُعطي الدُّنيا مَن يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يعطي الدِّينَ إلَّا لمن أحبَّ، فمَن أعطاهُ اللَّهُ الدِّينَ فقد أحبَّهُ**" حديث صحيح؛ انظر عمدة التفسير للشيخ أحمد شاكر 323/1.

وما هي إلا لحظات وفي لمحة خاطفة فتحت الأرض فمها وابتلعت قصر قارون بأسواره وأشجاره وأنهاره وزينته؛ ثم امتد الخسف إلى موكبه وحُرّاسه وخدمه وحشمه، وسط محاولات للفرار بعيداً عن فتحات الأرض العميقة، ولكنها كانت تبتلعهم بشراهة؛ ليسقط فيها قارون وكل ما جمعه وملكه، في حادث مروع أذهل كل من رآه !﴿ **فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ[1] الْأَرْضَ**﴾ القصص:81، فأين فرعون لينصره ؟!، بل أين هامان ليغيثه ؟!، أين فرق الإنقاذ؟، أين الجنود أين الأتباع ؟!!

﴿**فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**﴾ القصص:81.

فهل يتعظ «قارونات» هذا الزمن مما حدث لقارون قوم موسى، هل أدرك المتطلعون للثراء على حساب مبادئهم وأخلاقهم وأوامر ونواهي الله عز وجل مصير قارون، أم إنهم سيستمرون في طريقهم يجمعون المال فوق المال غافلين عن دورهم في الحياة، ونصيب الفقراء فيما جمعوا؟

الإجابة ربما ستكون عكس ما تتوقع، لأن أسطورة قارون وأمواله وقصوره لم تدفع أحداً للتوقف أمام نتائجها بقدر ما دفعت الجميع لتخيل شكل أموال وقصور قارون !

ردود فعل الشارع

تجمع الناس حول هذه الحفرة الواسعة الكبيرة العميقة جداً، ينظرون إليها في دهشة وذهول، لقد اختفى كل شيء في لحظة خاطفة، كما يختفي السابح في الماء، وقد احتوته دوامة عاتية فغرق وهوى إلى القاع!! فقلبوا أكُفهم وهم متعجبون متعظون، أهكذا الدنيا إذاً ؟ أهكذا تصاريف القدر فيها؟ أهكذا يفعل الله بمن باع رصيد القيم والأخلاق من أجل رصيد المال ؟!

بدأوا يقلبون أيديهم على مآله، فقد خسر ثروته التي جمعها من حلال ومن حرام، ولم ينفعه فرعون ونظامه الذين ارتمى في أحضانهما وباع أهله ودينه، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

---

(1) قال بن كثير في البداية والنهاية (ج1/ ص 365): وقصة قارون هذه، قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: { **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** } فإن الدار ظاهرة في البنيان، ولهذا القول وغيره ملت أن القصة حدثت في مصر وفي حياة موسى وفرعون، وليس كما قال البعض أنها حدثت في صحراء التيه.

ثم تلمح في ذات المشهد ذهول فريق من الذين تعلقت أمانيهم بذيل الموكب، وسخطوا على حظهم الضئيل من الدنيا وهم يبكون على ما كان منهم، فقد لقنوا درساً قاسياً للغاية، فهموا منه أن المال ليس كل شيء، وأن قليلاً يكفي خير من كثير يُطغي﴿ **وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ علينا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ**﴾ القصص:82.

وبات ما حدث لقارون – بعد دعاء موسى عليه – رسالة إنذار جديدة لفرعون وكل أفراد نظامه، لعلهم يتوبون أو يعودون، فكل ما دبروه لموسى ينقلب لصالحه، ويجعل الناس تتأكد من صدقه، فيصبح وبالاً عليهم!﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ الأنفال:30.

الدعاء على فرعون ونظامه

وهنا يتجه موسى عليه السلام إلى ربه رافعاً يديه، وأخوه هارون بجواره يُؤمّن على دعائه، ليدعوا على فرعون وملئه ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ**﴾ الدخان:22، دعاء من يئس من هدايتهم، وضاق ذرعاً مما يدبرونه له وللمؤمنين من حوله من ابتلاءات وفتن وعقبات، مستخدمين ما أنعم الله به عليهم من جاه ومناصب وأموال ليصدوا الناس ويضلوهم عن سبيل الله ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وملئه زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴾ يونس:88.

وتلمس مدى حسرة قلب موسى عليه السلام على فرعون وملئه، إنه يقول: ربنا إنك آتيت فرعون وملئه زينة وأموالاً في الحياة الدّنيا فكفروا بنعمك وجحدوها، وحاربوك بها فأذلوا الناس واستضعفوهم، وكانت تلك الأموال والمناصب سبباً في عتوّهم وضلالهم، ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ**﴾ يونس:88.

فتقبل الله دعوتهُما وأمرهما بأمرين فقال: ﴿ **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يونس:89.

الأمر الأول: الاستقامة على منهج الله، واستمرار الدعوة دون تلكؤ أو استثقال.

الأمر الثاني: ألا يسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنته في خلقه، فيستعجلا الهلاك لعدوهما قبل ميقاته، أو يستبطئا النصر لهما قبل حينه.

الحالة النفسية لفرعون

سنوات متتالية وفرعون لم ينتصر على دعوة موسى عليه السلام، كما لم يستطع أن يطفئ نورها، أو يخمد لهيب حماستها، فأصبح وأمسى واليأس والخسران يحيطان به، فقد استفرغ ما في وسعه وباءت كل محاولاته بالخسارة والفشل.

خسر فرعون هيبته ورجاحة عقله عندما غلبه موسى في حوارهما بالقصر، وخسر تأثير السلطة الدينية عندما قتل في يوم واحد آلاف السحرة الذين آمنوا بموسى، وخسر بقتله لآسية وحدة الأسرة ودفء العائلة، وخسر بتدبير محاولة اغتيال ابن عمه ومستشاره – الذي كان يكتم إيمانه – الرأي والمشورة الراجحة، وخسر بهلاك قارون الأموال والكنوز، وخسر بمعاركه الداخلية مع بني إسرائيل هيبة مصر الخارجية.

وهكذا في كل يوم يتقوض ملك فرعون أمام عينيه، ويخسر في كل يوم صديقاً أو حليفاً؛ وهذه سنة الله في إهلاك الظالمين، يمهلهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون.

والآن جاء دور موسى عليه السلام ليبدأ مرحلة جديدة من صراعه مع فرعون، وهي مرحلة الإنذارات السبعة والتي سنتعرف فيها على بعض الأسرار ..

– سر إصرار فرعون على العناد والكفر رغم كل يراه من معجزات خارقة !

- سر الإشاعة التي ترددت عن إعلان تنحي فرعون عن قراره بحظر خروج بني إسرائيل من مصر وإيمانه المفاجئ بدعوة موسى عليه السلام !

- سر تمسك جموع من الشعب المصري بفرعون رغم كل ما حل عليهم من بلايا ونقم بسبب عناده وطغيانه !

- وسنرى كيف كوّن موسى وهارون عليهما السلام هرماً تنظيماً لقيادة شعب بني إسرائيل، استعداداً للحظة الخروج من مصر !

كل هذه الأسرار وأكثر سنتعرف على إجاباتها بإذن الله خلال أحداث الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب ...

الإنذارات السبعة .. إمهال الله

"إن من مميزات التشريع الجزائي الإلهي بأنه يرسل الإنذارات أولاً، ليراجع الناس حساباتهم ويصلحوا أعمالهم من قريب دون تماد في البغي والعدوان والمخالفة والعصيان، فإذا استبد العناد

بالقوم، وظهر منهم التعنت والتحدي لرسالات الأنبياء، ولم يبق أمل في إصلاحهم وتحقق اليأس منهم، فإن الله ينزل بهم العقاب الصارم أو الاستئصال جزاء بما كسبوا، وردعا لأمثالهم. (1)

ولقد قرر موسى عليه السلام- بوحي من الله - أن يذهب بصحبة أخيه هارون إلى قصر فرعون، ليطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل، خاصة بعدما أقيمت الحجة عليه أكثر من مرة، ومعه هذه المرة إنذار وتهديد من الله إن لم يستجب لمطلبه.

فإذا لم يكن في الآية الكبرى التي رآها فرعون رأى العين، ما يقيم له دليلاً على أن موسى مرسل من ربّ العالمين، وأن سلطان هذا الربّ سلطان عظيم، يخضع له كل ذي سلطان- فقد دقت الآن طبول حرب جديدة [حرب خفية]سيسلّط الله فيها على فرعون وملئه ألواناً من البلاء، ومرسلات من النقم، لعلهم يستكينوا ويخضعوا، فتلين قلوبهم وتستنير بصيرتهم فيؤمنوا بالله وحده ﴿ **وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ الزخرف:48، وكان عدد هذه النذر وتلك الآيات تسعة ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ الإسراء:101، - سبق وأخرج منهم اليد والعصا - والآن سيأتي بواحدة تلو الأخرى.

وقد كانت هذه النذر واضحة بينة ﴿ **تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ الإسراء:101 تحمل بين طياتها لكل متأمل ومدقق شارة تحذير من الله، ودليل صدق على أن موسى نبي مرسل من عند الله، كما كانت هذه الإنذارات منفصلات عن بعضهن في الزمن والأثر ﴿**آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ**﴾ الأعراف:133 حتى يكون في الانفصال الزمني فرصة للمراجعة والرجوع إلى الله[2]، وحتى يكون في اختلاف الأثر، وفي تذوّق تلك الطعوم المرّة المختلفة لهذه المحن، ما يجعل البلاء شاملاً لهم جميعاً، على اختلاف معايشهم، وتنوع أحوالهم، وتباين طبائعهم.

---

(1) التفسير الوسيط د. وهبة مصطفى الزحيلي (ج1/ ص711).

[2] كان الإنذار يمتد أسبوعاً، وبين كل إنذارين شهراً، انظر (تفسير البغوي ج3/ ص272)، (تفسير الطبري ج13/ ص69).

فقد كان أول هذه النذر أعوام الجدب (السّنون) التي أدت لنقص حاد في السلع الغذائية، ثم سقطت عليهم أمطار غزيرة انقلبت إلى طوفان أغرق أرضهم وديارهم ومخازنهم، ثم غزت محاصيلهم أسراب الجراد فأكلتها، ثم ظهرت بعض الآفات والحشرات (**الْقُمَّلَ**) التي نشرت بينهم الأمراض، وقتلت المواشي والأغنام، ثم انتشرت الضفادع فملأت الشوارع ودخلت البيوت فأفسدت حياتهم وأرقت نومهم، ثم تحولت المياه إلى دماء، ثم وقع الرجز فانتشر مرض (الطاعون) فقتل منهم الآلاف ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ** ﴾ القمر:42، وهكذا لا يسلم أحد منهم من أن تلبسه المحنة، وتشتمل عليه، فتعالوا بنا نشاهد الذي حدث بالتفصيل.

الإنذار الأول:(القحط، ونقص للثمرات).

ذهب موسى وبصحبته هارون إلى قصر فرعون ليعرض عليه من جديد أن يخرج معه بني إسرائيل بسلام من أرض مصر، وهدده إن لم يخرج معه بني إسرائيل فإن أرض مصر الخصبة المثمرة ستتحول إلى أرض جدباء لا زرع فيها بسبب الجفاف الذي سيضرب الله به أراضيهم.

أخذ فرعون كلام موسى على محمل الهزل وعدم التصديق، وأمر الحرس بطردهما خارج القصر.

وبعد انتهاء المهلة التي حددها موسى عليه السلام، فوجئ الملأ من قوم فرعون بانحسار الماء في الأنهار والآبار، حتى كاد قاع النيل يَظهر، وخرج منه السمك يتلوى فوق الطمي! وعم القحط أرض مصر، بسبب ندرة الأمطار، والنقصان الشديد لمنسوب ماء النيل.

فتدهور اقتصاد مصر الذي يعتمد في الأساس على المحاصيل الزراعية، وهذه ضربة – في أولها – لم ينكشف للقوم فيها وجه العبرة واضحاً، إذ كثيراً ما كان يفعل النيل شيئاً من هذا معهم، وقد عرفت مصر سبع سنين عجافاً في زمن يوسف عليه السلام، وكان ذلك من قلة ماء النيل في هذه السنين، ولكن لما طال الوقت ولم ينزل المطر بدءوا يشعرون أن هذه رسالة إنذار من الله، وأن

عليهم أن يلجئوا لموسى كما لجئوا من قبل إلى يوسف ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ الأعراف:130، ولكنهم تمادوا في عتوهم وضلالهم وتجاهلوا الإنذار الأول[1].

التناول الإعلامي للإنذارات الربانية

وكان رد أذرع فرعون الإعلامية على هذا الإنذار الرباني، هو تجاهله تماماً ورفض ربط هذه الأحداث بما حدث للمصريين في عهد يوسف عليه السلام، بحجة أن مصر الهكسوس ليست كمصر الفرعون، ويوسف ليس كموسى! ؛ وما يحدث ليس إلا كارثة من كوارث الطبيعة سرعان ما ستنجلي عن أرض مصر، ولا دخل لدين موسى بها، فمنذ متى والدين يتدخل في طبيعة الأرصاد الجوية!

أما إذا فاض النيل واخضرت الأرض قالوا: هذا من حظنا ورزقنا ومن بركات الخطط التنموية التي رسمها الفرعون الإله، وإذا قل منسوب مياه النيل، وانقطعت الأمطار استثاروا الشعب ضد موسى، لأنه سبب غضب الآلهة عليهم بدعوته لدين غير دين آبائهم وأجدادهم، فيتشاءم الناس من موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل وقد نقل الله لنا كلامهم فقال: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ **الأعراف:131**

وهنا تبرز مكانة الإعلام وأهميته في تأثيره الكبير على توجهات الناس وآرائهم في الحياة، سواءً بالسلب أو الإيجاب، فهي إما أن تسمو بهم للقمة أو تحطُّ بهم إلى الحضيض، ويبقى فكر المجتمع مرهوناً بما يقدمه الإعلام ويضخُّهُ في عقول الأفراد، فوسائل الإعلام منذ الأزل قادرة على فرض رأي أو توجّه معين بحسب توجهات وسياسة المؤسسة الإعلامية، ولا نستطيع أن نتوّجها بتاج

---

(1) عددتُ السنين ونقص الثمرات إنذاراً واحداً لأن السنين هي الجدب والقحط، ونقص الثمرات كان نتيجة لذلك؛ إذاً فنقص الثمرات ليس إنذاراً مستقلاً – كما حسب البعض – ولكنه تفصيل وتوضيح لما عمّ البلاد بعد الإنذار الأول.

السلطة الرابعة إلا إذا كانت تحكمها أخلاقيات ومبادئ تفرض عليها أن تلتزم الموضوعية والمصداقية في نقل مختلف الأحداث الجارية في المجتمع، ويتفق ذلك مع قول وزير إعلام هتلر، جوزيف غوبلز عندما قال: «**أعطني إعلاماً بلا ضمير أُعطيك شعباً بلا وعي**»[1].

وهكذا يمضى فرعون وقومه في العناد والتحدي، رغم إن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب، وتهذب الطباع، وتوجه الأنفس إلى مرضاة الله والتضرع له دون غيره، ولكنهم لا يتذكرون ولا يتعظون!﴿ **وَقالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ الأعراف:132.

وهكذا تجاهلوا الإنذار الأول رغم أنه كان علامة بينة وواضحة على صدق موسى عليه السلام؛ ولكن الفطرة حين تنحرف عن الإيمان بالله، فإنها لا ترى قدرته - سبحانه- في تصريف هذا الوجود، وعندئذ تفقد إدراكها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة، فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة، وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لا تلتقي عند قاعدة، ولا تجتمع وفق نظام، فهم لم ينسبوا الأحداث إلى ظلمهم واستكبارهم، ولم يعدوها آية تحذيرية من الله، بل اعتبروها سحراً ودجلاً، أو كوارث طبيعية!

فقادتُهم – فطرتهم المنحرفة - إلى استنتاج أن كل الأحداث هي من غدر الطبيعة القاسي! فَمَنْ أُهلِكوا بالريح – وفق نظرتهم - غضبت عليهم الطبيعة إثر تقلبات جوية، ومن أُهلكوا بالطوفان، أُهلِكوا بسبب ذوبان جبال الثلج وارتفاع منسوب مياه البحر التي سببت الفيضان !

دون نظر إلى الإله الذي أوجد ومنع، ودون اعتناء بأمر من أمر هذه النواميس الثابتة أن تضطرب الساعة فاضطربت، وأمرها أن تسكن بعدها فسكنت!

---

[1] جوزيف جوبلز (JosephGoebbels) هو أيضاً صاحب المقولة الشهيرة: «**اكذب حتى يصدقك الناس**» كان (وزير الدعاية النازي) وهو مؤسس فن الدعاية السياسية بلونها الرمادي، واستطاع حينما كان يروج للفكر النازي بقوة أن يسوق في ركابه عشرات الملايين من الألمان، ورغم العداء الغربي للنازية، إلا أن جوبلز يعد مؤسس مدرسة إعلامية مستقلة بذاتها؛ وقد أكدت ظاهرة "جوزيف جوبلز" أن الذي يملك وسائل الإعلام يملك القول الفصل في الحروب الباردة والساخنة (انظر موسوعة ويكيبيديا).

مضت الأيام ببطء شديد حتى أزاح الله عنهم هذه الغمة، فسقطت الأمطار وارتفع منسوب مياه النيل، وبدأ المزارعون في زراعة أراضيهم، ودبت في مصر الحياة.

الإنذار الثاني: (الطوفان).

ذهب موسى عليه السلام مجدداً – بأمر من الله – إلى قصر فرعون، طالباً منهم الإيمان برسالة الله أو أن يتركوه يخرج بشعب بني إسرائيل بسلام، فلعلهم بعدما ذاقوا مَرَار الشدة، يخضعون لمراد الله.

فجدد فرعون رفضه واستكباره!

فقال له موسى: إذاً ترقب سقوط أمطار لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً حتى تغرق أرض مصر في طوفان؛ لن يترك لكم زرعاً ولا تجارة إلا أفسدها، ثم تركه وانصرف.

ولما انقضت المهلة المحددة، ولم يرجع فرعون عن قراره بمنع بني إسرائيل من الخروج، تلبدت السماء بغمام كثيف، ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن دون توقف، ففاض نهر النيل، وتدفقت مياهه بغزارة وجنون[1] ﴿ **فَأَرْسَلْنا عليهِمُ الطُّوفانَ** ﴾ الأعراف:133، فأُغرق من مصر السّهل والوعر، وتهدمت المنازل، وخربت المصانع، وشُرد العمال، وتدهور الاقتصاد.

بلغ الماء المتدفق في بعض الأماكن إلى مستوى صدور الرجال، ومات المئات غرقاً ..

فسبحان من يعذب بالشيء ونقيضه، عذبهم بقلة الماء كما عذبهم بكثرته! ومع ذلك مازال فرعون متمسكاً برأيه، معانداً لموسى، وإعلامه المضلل يصف هذا الإنذار الواضح – الطوفان – أنه كارثة من كوارث الطبيعة، وغضبة من الآلهة بسبب ما يدعيه موسى من وجود إله آخر معهم!

---

(1) جاء في التوراة في الفصل التاسع في سفر الخروج: (**ثم قال الرب لموسى: بكّر في الغداة وقف بين يدي فرعون وقل له: كذا قال الرب إله العبرانيين: أطلق شعبي ليعبدوني، فإني في هذه المرة منزّل جميع ضرباتي على قلبك وعلى عبيدك وشعبك، لكي تعلم أنه ليس مثلي في جميع الأرض، وأنا الآن أمد يدي وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض، غير أنى لهذا أبقيك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في جميع الأرض، وأنت لم تزل مقاوما لشعبي، ها أنا ممطر في مثل هذا الوقت من غد برداً عظيما جدا لم يكن مثله في مصر منذ يوم أسست إلى الآن**).

كما حثوا الناس على الصبر إلى أن تزول هذه المحنة وتعود مصر لسابق عهدها !، وقدموا لأهالي الضحايا والمفقودين واجب العزاء، كما بشروهم أن فرعون أمر عماله بتوزيع بعض الأغذية والأقمشة على المشردين الذين صعدوا إلى المرتفعات هروباً من الطوفان.

وبعد أيام من الخراب والدمار، اكتسح فيها الماء الأراضي والبيوت والمخازن، وعلت أمواجه الغاضبة الحيوانات النافقة، والجثث المتعفنة، أمر الله السماء فأمسكت مطرها، وأمر الأرض فابتلعت ماءها، وأشرقت الشمس وصفت السماء.

فنزل المصريون من على التلال والجبال التي احتموا بها، وخرجوا من الحصون ذات الأسوار العالية التي صمد بعضها أمام اندفاع المياه، وبدأ المزارعون منهم في إصلاح أراضيهم وزراعتها من جديد، كما بدأ العمال والبناءون يزاولون أعمالهم، ورجع التجار إلى أسواقهم يفترشون بضاعتهم، وبدأت الحياة الاقتصادية تدب على أرض مصر من جديد بعد توقف متكرر.

الإنذار الثالث: (الجراد).

وما كادوا يشعرون بالراحة والاطمئنان، حتى ذهب موسى عليه السلام إلى القصر الفرعوني من جديد طالباً منهم أن يتعظوا بما رأوه من آيات ونذر، فكل ما حذرهم من وقوعه وقع على النحو الذي وصفه وفي التوقيت الذي رصده، وهذا دليل دامغ أنه رسول من عند الله، وأن ما يحدث لهم من كوارث إنما هي صفارات إنذار تشير إلى غضب الله عليهم، فليتقوه وليؤدوا – يخرجوا – عباد الله معه، وأن يكفوا أذرعهم الإعلامية عن رجمه بإلقاء التهم جزافاً بأنه كاذب وساحر ودجال ليخدعوا الشعب، فهم أحرار في أن يؤمنوا أو يستمروا في كفرهم، بشرط أن يعتزلوه ويتركوه يدعو إلى ما يريد وما يعتقد.

معانٍ وإشاراتٌ لم يغفل القرآن عن ذكرها ورصدها، لنقدر كم عانى موسى وهارون عليهما السلام مع هؤلاء الفراعنة الظالمون، فقد قال الله حاكياً لنا ما دار بينهما وبين الملأ في قصر فرعون فقال:

﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَى عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** ﴾ الدخان:21

ولكنهم لا آمنوا به، ولا اعتزلوه وتركوه يبلغ دعوة ربه في سلام؛ ولا تركوه يخرج بقومه من مصر، بل استكبروا وعاندوا ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ الأعراف:132

فلما أبوا إلا العناد والجحود أنذرهم موسى بأن أسراباً من الجراد ستغزو جميع أراضيهم الزراعية وستأكل كل ما زرعه الزارعون، ثم تركهم وانصرف.

فقام فرعون من على عرشه غاضباً، ضرب الحائط بيده، وركل بعض الكاسات التي أمامه بقدمه فحطمها، ثم نظر إلى مرآة انعكست فيها صورته قائلاً:

ذلك الذي أتى من العدم بثعبان مبين، ويدٍ مضيئة كان جرواً صغيراً في قصري يلهو بين قدمي !

أتكون هذه هي النبوءة التي أتتني في المنام يوماً؟ أتكون نهاية حكمي على يده ؟! كيف لم أنتبه له منذ البداية ؟ لِمَ لم تدهسه عربتي يوماً، أو تأكله سباعي؟!

ثم ضرب المرآة فكسرها .. قائلاً:

لن أسمح لكالح البشرة هذا أن يهزمني.

وقبل أن تنقضي المدة التي حددها لهم موسى، أصدر فرعون أوامره لجميع المزارعين بحصد كل ما يستطيعون حصاده من الثمار والزرع قبل أن تزحف عليهم أسراب الجراد التي توعدهم بها موسى.

ولما انقضت المهلة .. أرسل الله ريحاً ساقت أسراباً لا حصر لها من الجراد، أحالت أعدادها النهار المشمس إلى ليل مظلم في دقائق معدودة[1]، ثم هبطت على أراضي مصر فغطت جميع حقولها، فأكلت عُشبها، وأفسدت ثمارها حتى لم يبق شيء من الخضرة في أراضي المصريين، ولم تفلح النار ولا الأعشاب المنفرة في طردها !

طوال هذه الفترة العصيبة كان فرعون يعتمد على المخزون الاحتياطي من الزراعة، ليسد به حاجة الشعب حتى لا يثوروا عليه، كما كان لتربية الماشية والأغنام دور هام في صد المجاعة التي أقبلت عليها البلاد في فترات القحط والجدب والطوفان.

انتهت الأزمة الجديدة، وباتت الخسائر الفادحة المتتالية تؤرق مضاجع الملأ، ولكنهم مازالوا يتجملون بالصمود والإصرار إلى حين.

الإنذار الرابع: (الْقُمَّلَ).

ولما أمر الله الجراد بالانسحاب من أرض مصر، وعاد كل شيء إلى طبيعته؛ ذهب موسى عليه السلام بصحبة هارون إلى فرعون، طالباً منه من جديد أن يُخرج معه بني إسرائيل من مصر، وهدده إن لم يخرجهم بسلام فسيرسل الله عليهم حشرات "**الْقُمَّلَ**[1]" لتقتل كل ما ربوه من مواشي

---

[1] يقول الدكتور زغلول النجار:" يتراوح طول الحشرة البالغة من الجراد بين السنتيمتر والعشرة سنتيمترات, ويصل عدد الجراد المهاجر في السرب الواحد إلي عشرات البلايين, مما يجعله يغطي مساحة تقدر بأكثر من ألف كيلومتر مربع, بكتلة تقدر بآلاف الأطنان, ويأكل مثل هذا السرب في اليوم الواحد قدر وزنه من المزروعات, ومن هنا كانت تسمية هذه الحشرة الخطيرة باسم(الجراد) وهو اسم مستمد من الفعل(جرَّد) بمعني أزال وكشف, وعري، لذا يقال:(جرد الجراد الأرض جردا) أي أكل جميع ما عليها من نبات حتى تجردت من غطائها الخضري كما (يجرد) المرء عن ثيابه". نقلاً من مقالة بعنوان " الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية" – د. زغلول النجار.

(1) يقول الدكتور زغلول النجار: " الْقُمَّلَ من الحشرات غير المجنحة وهو اسم لطائفة تضم عدداً من الحشرات مثل قمل الإنسان, قمل الطيور, قمل النبات (المنّ), قمل الخشب, قمل الكتب, وغيرها, وكلها حشرات ضئيلة الحجم – يصل طول الحشرة البالغة منها إلي ثلاثة ملليمترات في المتوسط – ومن الْقُمَّلَ أنواع ماصة كالتي تحيا علي أجساد الثدييات، وأنواع قارضة كالتي تحيا علي أجساد الطيور، ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص من القمل الماص, وأما قمل الإنسان (وهو من النوع الماص) فهو سلالتان: قمل الرأس وقمل الجسم, والأخير يمثل آفة شديدة الضراوة في إيذاء الإنسان وشديدة الضرر به، لأنها تنقل إليه الجراثيم

وأغنام وطيور، وتنقل للناس العديد من الأمراض خاصة الأمراض الجلدية، إضافة إلى إصابتهم بأنواع مختلفة من الحمى.

فجدد فرعون رفضه واستعلاؤه، رغم يقينه من وقوع ما يحذرهم منه موسى، فهو وإن جحد بما يقوله موسى لكنه على يقين جازم أن ما جاء به هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ النمل:14

وبعد انقضاء المهلة التي حددها موسى، جاءتهم حشرات"الْقُمَّلَ" بأنواعها المختلفة، فركب بعضها على الماشية فأصابها بالهزال، وقَتل البعض الطيور والأغنام، وتسلى البعض الآخر على جلود الناس فامتص الدماء وزرع البثور التي أصابتهم بهياج شديد وقُرح، كما تسبب في إصابتهم بأنواع مختلفة من الحمى[2] التي أصابتهم بقشعريرة وشعور بالبرد، وصداع، وألم في العضلات، وكذلك غثيان، وبات الأنين من الأمراض غير محتمل !

العجيب أن بني إسرائيل لم يمسوا من تلك الإنذارات بسوء! ليبقى الإنذار واضحاً أنه لم يأتِ بعشوائية – كأي كارثة – فيعم الجميع، وإنما جاء فقط لمن كذبوا برسالة الله، وعصوا رسوله.

تكبدت الدولة خسائر فادحة، وكاد الشعب يموت جوعاً – بسبب نفاد أغلب المخزون الإستراتيجي للدولة لكثرة توقف الإنتاج – ، وانتشرت الأمراض الجلدية المعدية بين الناس،

المسببة للعديد من الأمراض التي من أخطرها مرض التيفوس الوبائي، ويلتصق بيض القمل القارض إما في الشعر الخاص بكل من الإنسان والحيوان, وإما في ريش الطيور.

والقمل القارض لا يمتص الدم بل يتغذي من نتاج الجلد كالقشور, وأجزاء الشعر أو الريش, ونتيجة لاغتذائه بهذه الطريقة فإنه يسبب تهيجاً شديداً للعائل الذي يتعيش علي جسده أو رأسه, وبفعل الاحتكاك الناشئ عن مخالبه فإنه يسقط بعض الريش عن جسم الطائر الذي يتطفل عليه.

والقمل الماص يعيش علي أجسام كل من الإنسان والحيوان(خاصة الحيوانات الثديية), ولكل حيوان ثديي نوعه الخاص من القمل الماص.

ويموت القمل بسرعة إذا أزيل عن عائله, ولكن نظرا لجلده السميك, وأرجله القوية, وفكوكه القارضة, ومخالبه الكبيرة التي يستخدمها في التعلق بجسد عائله أو بشعره؛ فإن إزالته عن جسم العائل تستلزم جهداً غير قليل". منقول بتصرف يسير جداً من مقالة بعنوان " الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية" د. زغلول النجار.

[2] يعتبر القمل الناقل الرئيسي لكثير من المسببات المرضية أهمها حمى التيفوس الوبائي، وحمى الراجعة، وحمى الخنادق.

وفرعون يأبى أن يتنحى عن قرار حظر خروج بني إسرائيل من مصر، ولعل ذلك– فيما أظن – لثلاثة أسباب هي: سبب سياسي، وسبب عسكري، وسبب اقتصادي.

أما السبب السياسي: فهو من أجل أن يحافظ فرعون على ما تبقى له من هيبة في قلوب الشعب، فكيف يأخذ قراراً ويتراجع عنه؟ ولمن يتراجع ؟.. لربيب قصره ابن بني إسرائيل؟!

وأما السبب العسكري: فهو الخوف من استقواء بني إسرائيل– المستعبدين والمستضعفين منذ سنين – بأي عدو خارجي، ويعودون مرة أخرى لينتقموا من فرعون ونظامه الذي ظلمهم وقهرهم وذبح أبناءهم، خاصة بعد ظهور بعض القوى العسكرية الأخرى في البلاد المجاورة كفلسطين مثلاً وما فيها من " قوم جبارين" إثر انشغال فرعون بالشئون الداخلية للبلاد.

وأما السبب الاقتصادي: ففرعون كما نعلم كان يستخدم بني إسرائيل في الأعمال الشاقة في الدولة، فمن الذي سيقوم بأعمالهم هذه إذا تركوا مصر وخرجوا ؟!

فأي دولة في العالم حتى يومنا هذا تعتمد على عمالة من غير أبناء شعبها إذا أردت أن تضربها ضربة موجعة فاسحب كل العمالة التي فيها فجأة، لينهار اقتصادها تماما

ولأن الكبر أعمى بصيرته، وأحاطت به خطيئته استكبر أن يتفاوض مع موسى عليه السلام، أو أن يتساءل عن إمكانية خروجهم دفعات مثلاً حتى لا يتركوا فراغاً في الدولة، أو يأخذ عليهم العهود والمواثيق ألا يتعاهدوا أو يتحالفوا مع أي عدو آخر ضده وضد شعب مصر، ولولا أن تداركتهم رحمات الله الحليم، لهلك الناس جميعاً بسبب هذا العناد !

أخذت المحنة من شعب مصر ما أخذت، ثم أمر الله هذه الحشرات – وهي من جنوده التي لا تعد ولا تحصى – أن تتوقف عن عملها الذي كلفها به؛ فتوقفت ورفع الله البلاء عنهم.

الإنذار الخامس: (الضفادع).

وتمضي الأيام تباعاً مع تجاهل متعمد لمطالب بني إسرائيل المشروعة؛ رغم كل ما حل بآل فرعون من نقم وبلايا، وما زالت الإنذارات تتوالى رغم تجاهلهم وإعراضهم، فمن جديد يذهب موسى بصحبة هارون إليهم ومعه الإنذار الجديد، وقد كان فرعون وملؤه يستقبلون موسى في القصر – رغم تجاهلهم لمطالبه – ليعرفوا الحدث قبل وقوعه، فيحتاطوا قدر استطاعتهم!

الجديد هذه المرة، أن هذا الإنذار سينال من فرعون وملئه مثلما سينال من عموم المصريين الذين لم يؤمنوا بموسى، فإن كان فرعون في قصره بين جنوده وخدمه وحشمه ينعم بخيرات الشعب ولا يبالي بما يقع خارج القصر من سنوات جدب أدت إلى نقص الثمرات، أو حتى من سقوط أمطار أدت إلى غرق البلاد في فيضانات، أو حتى من الجراد والْقُمَّلَ اللذين أفسدا ما سيخزن وما خُزن من حبوب وثمار، فإن إنذار هذه المرة سيدخل إلى قصره، وإلى مجلسه، حتى إلى غرفة نومه؛ إنها ملايين الملايين من الضفادع التي ستأتي ولن تجعلهم يهنئون براحة أبداً إن لم يعودوا إلى خالقهم أو يخرجوا بني إسرائيل بسلام.

ويستمر سيناريو الإعراض والسخرية والاستهزاء، وتنقضي المدة وهم على الكفر كما كانوا، مُصِرين على ألا يخرج شعب بني إسرائيل، فجاءتهم الضفادع من كل مكان[1]، اكتظَّت على الضفاف وفي المستنقعات التي تشكلت بين البيوت، ثم اجتاحت بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم, فلا يكشف أحد إناء ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع, وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه, ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه, وكانت تثب في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفئ نيرانهم, وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون

---

(1) ((من أعجب مكتشفات عالم الآثار "بتري" أثناء تنقيبه في عام 1906،1905م في تل الرطابة (محافظة الإسماعيلية)؛ وجد سلطانية رائعة الشكل مصنوعة من الخزف الأزرق إذ تحيط بها 19 ضفدعة في حين تتسلق ضفادع أخرى عديدة الجوانب الداخلية للآنية مكونة حشداً ضخماً عند فوهتها، وتتوسط السلطانية كذلك ضفدعة كبيرة هي بلا شك ملكة تلك الضفادع إذ تجلس متوجهة إلى القاعدة وهذه السلطانية فريدة في صناعة الخزف المصري)) نقلا من كتاب من هو فرعون موسى؟ ص912 . تأليف الدكتور رشدي البدراوي.

عليه ركاماً حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر, ويفتح فاه لِأكلته فيسبق الضفدع أكلته إلى فمه, ولا يعجن عجيناً إلا تشدخت فيه، حتى ما تكاد تنظر في مكان إلا وجدت الضفادع منتشرة، فمنعتهم من النوم بعلو أصواتها، ومنعتهم من الراحة من سرعة قفزها حولهم؛ فكدرت عليهم معيشتهم.

لم يستطع جنود فرعون الذين يحيطون بقصره أن يتخلصوا من آلاف الضفادع القافزة داخل قصره المحصن، واستطاعت بفظاعة منظرها، وعلو صوت نقيقها[1] أن تكدر عليه صفو معيشته وتمنعه من النوم والراحة أياماً وليالٍ، حتى أمرها الله عز وجل بالانسحاب - فأطاعت ربها - وانسحبت حيث جاءت.

﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**﴾ المدثر:21، ومضت الأيام والليالي فلا هم آمنوا بالله، ولا هم تركوا موسى يخرج ببني إسرائيل ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ الأعراف:132

الإنذار السادس (الدم).

وتتجدد الإنذارات وتتنوع، مع تجديد التجاهل والإعراض من أتباع فرعون سيراً على خطاه ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**﴾ طه:79، ولكن بالرغم من تجاهل فرعون، وإظهار أنه ما زال متماسكاً وقوياً إلا أنه قد أُنهك بهذه الضربات القوية والمتتالية، وفقد تأييد أغلب الشارع المصري له، ففرعون اليوم ليس كفرعون يوم الزينة.

ذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى قصر فرعون، فخرج عليهما فرعون محتقن العينين، ثائر النفس، آثار الإجهاد من قلة النوم - بسبب نقيق الضفادع المزعج - تبدوا جلية على ملامحه.

---

[1] "نقيق الضفادع من الأصوات المزعجة للإنسان لأنه يُسمع عبر مسافات طويلة تقدر بالأميال, والكيس الصوتي المتضخم للذكر في بعض أنواع الضفادع قد يزيد في طوله علي بقية الجسم مما يضاعف من شدة نبرات نقيقه" نقلاً من مقالة بعنوان " الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية" – د. زغلول النجار.

فجدد له موسى دعوته – بأدب ولين ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ طه:44 – فيؤمن ويذعن لجبار السماوات والأرض، ويطلق سراح بني إسرائيل.

فلما رفض كالعادة .. أنذره قائلاً:

اعلم أنك وكل من يساندك لن تنعموا بشربة ماء نقية خلال الأيام القادمة، فنهر النيل سيتحول كله إلى دماء جارية، وكل المياه التي ستأمر بتخزينها ستتحول أيضاً إلى دم، وتركه وانصرف.

وبعد أيام – من الإعراض – تحولت مياه النيل إلى اللون الأحمر، كلون الدماء التي أسالها فرعون وجنوده .. إنها دماء الأطفال الذين ذبحهم، ودماء السحرة الذين قتلهم، ودماء آسية، ودماء الماشطة وأبناؤها، ودماء المعذبين في سجونه ...

فعاف الناس شرب الماء حتى عطشوا عطشاً شديداً، ولقد كان يُجمع بين المصري والرجل من بني إسرائيل على الإناء الواحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دماً، ويقومان إلى بئر الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللمصري دماً.

حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل– حين جهدهم العطش – فتقول لها: اسقني من مائك، فتصب لها كأس ماء عذب نظيف، وقبل أن ترفعه إلى فمها لتشربه يتحول إلى دم صاف، فكانت تقول لها: اجعليه في فمك ثم مجيه في فمي، فتأخذ المرأة في فمها الماء فإذا مجَّته في فم المصرية صار دماً قبل أن تبتلعه.

فاضطروا خلال هذه المحنة إلى مضغ الأشجار والنباتات الرطبة لكيلا تصاب أجسامهم بالجفاف؛ وصدق الله القائل: ﴿ **وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ الزخرف:48

ولولا أن علة إرسال العذاب عليهم –كما أوضحت الآية – هو شد انتباههم أن موسى عليه السلام رسول من عند الله، فيرجعون إلى رشدهم ويتراجعون عن غيهم، ويتذكرون ضعفهم

وعجزهم أمام قوة الله، لهلكوا جميعاً بسبب عدم توافر المياه النظيفة؛ فالإنسان بطبيعته لا يتحمل العطش لعدة أيام متتالية.

ولكن الله – بحلمه وجوده – رفع عنهم هذا البلاء، وأعطاهم فرصة من جديد ليصححوا أوضاعهم، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب، وتهذب الطباع، وتوجه الأنفس إلى مرضاة الله رب العالمين، ولكنهم –كالعادة لا يتذكرون، ولا يتعظون!

وفي هذه الأثناء استثمر موسى انشغال فرعون بأحوال الدولة وشؤونها المتهاوية بسبب توالي ضربات الله لهم، وراح يعبئ بني إسرائيل روحيا ونظامياً

التعبئة الروحية والنظامية لبني إسرائيل

أوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يجمعا بني إسرائيل الذين تبعثروا في أماكن عده، ويتبوآ [1] لهم بيوتاً متقاربة ومتقابلة، وذلك لفرزهم وتنظيمهم ونسج رابطة أخوة قوية بين أفرادهم، استعداداً للرحيل من مصر في الوقت الذي يختاره الله لهم ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** ﴾ يونس:87

ثم كلفهم بتطهير بيوتهم، وتزكية نفوسهم، وإقامة الصلاة فيها إذ لم يعد بوسعهم الصلاة جهراً كما كان، فاضطروا إلى الصلاة خلسة في بيوتهم وتحولت صلاتهم بدعائهم إلى أسلحة يوجهونها ضد فرعون، فالله يستجيب دعوة المظلومين ولو بعد حين، كما أوصاهم بالاستبشار بقرب نصر الله ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يونس:87

وإلى جانب هذه التعبئة الروحية كانت هناك تعبئة نظامية؛ فقد أمّر موسى عليه السلام واحداً على كل اثني عشر رجلاً هو بمثابة المسئول التنظيمي والتربوي لهم، ليكون موسى على رأس الهرم

---

(1) التبوُّء: هو التوطن في مكان واحد، وإلى يومنا هذا إن نظرت إلى ساحات اليهود في أي بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حيّاً واحداً، ويرفضون أن يذوبوا في الأحياء الأخرى، ففي كل بلد لهم حي يسكنون فيه، ويسمى باسم « حي اليهود»، وكانت لهم في مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

التنظيمي ثم يليه هارون عليه السلام نائباً ومساعداً، وتحتهما اثنا عشر رجلاً من الأتباع المقربين؛ كل واحد منهم مسئول مسئولية خاصة عن اثني عشر رجلاً، وهكذا إلى آخر الهرم التنظيمي.

وتلك التعبئة النظامية إلى جانب ما كان من تعبئة روحية، ضروريتان للأفراد والجماعات، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، وقد يستهين قوم بمثل هذه التعبئة الروحية والفكرية، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة، وأن الأداة الحربية في يد جندي خائر العقيدة لا تساوي شيئاً في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي أمر الله موس وهارون بتنفيذها ليست خاصة ببني إسرائيل فقط، بل هي تجربة إيمانية عامة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع، وقد عمت الفتنة وتجبر الظلمة، وفسد الناس- كما كان الحال على عهد فرعون - وهنا يرشدهم الله إلى اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها- ما أمكن ذلك- لتتجمع هذه العُصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.

الإنذار السابع (الوباء القاتل).

والآن هذه هي الزيارة الأخيرة إلى قصر فرعون، فهذا هو الإنذار السابع والأخير —كما علِم موسى من ربه — والإنذار هذه المرة مرضٌ معدٍ شديدُ الخطورة، ينتشر كوباء في مصر يلاحق كل من عصى الله وكذّب رسوله، إنه الطاعون -**الرِّجْزُ**[1]- أو سمه إن شئت بالوباء القاتل.

فالطاعون يسبب ألماً شديداً وحمى وورماً في الغدد اللمفاوية، ويسبب هذا المرض بقعاً حمراء على الجلد ثم تتحول إلى بقع سوداء مخيفة، ويشعر مريض الطاعون بالصداع والبرد في الأطراف، وتسارع في ضربات القلب، ثم يحدث نزيف تحت الجلد، ثم يبدأ الجهاز العصبي بالانهيار، وتبدأ

---

(1) روى الإمام مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، ومالك في موطئه بسندهم أن النبي ρ قال: "**إِنَّ هَذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلا تَدْخُلُوا عليهِ وَإِنْ وَقَعَ فِي أَرْضٍ فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**"، وروى الطبري عن ابن عباس τ، قال في هذه الآية: { **لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ**} قال: هو الطاعون، وقال ابن جبير: الرجز: هو الطاعون، ونحو ذلك قال الشعبي. وقال ابن عاشور: الرجز من أسماء الطاعون، انظر (تفسير البغوي ج3/ ص272)، (تفسير الطبري ج13/ ص71)، (أوضح التفاسير ج1/ ص197).

بعد ذلك الاضطرابات العصبية الغريبة والتي يتمايل منها المريض وكأنه يرقص رقصة الموت! وخلال عدة أيام يكون الجلد قد اسودّ وفارق المريض الحياة[2].

وهذا الذي كان؛ فقد حصد الطاعون أرواحاً كثيرة قدرت بعشرات الآلاف[3]، وعجز الطب المصري - رغم تفوقه آنذاك - عن محاصرة المرض أو علاجه، وانتشر المرض بين عموم المصريين المؤيدين لفرعون، وبات كل مريض منهم يتمنى الموت من شدة الآلام ولا يجده، وأصبح كل صحيح يخاف على نفسه من العدوى، وأصيب المصريون بحالة ذعر وخوف من هذا المرض القاتل.

لم يتماسك فرعون ونظامه هذه المرة خشية أن يصابوا بهذا المرض، فأرسلوا إلى موسى عليه السلام يستنجدون به، ويطلبون منه أن يدعو الله برفع هذا البلاء العظيم عنهم، فلقد أصبح نظام فرعون بعد هذه المحن المتتابعة كنبتة هزيلة، تعصف بها الريح فيما تعصف به من نبات وأعشاب[1]! إنهم يلوذون بموسى عدوّهم، يطلبون منه أن يمد إليهم يده ليدفع عنهم هذا البلاء الذي نزل بهم مقابل أن يؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل كما طلب منهم من قبل!

---

(2) لمزيد من المعلومات حول هذا المرض وطرق الوقاية منه زر موقع "صحة" (sehha.com) عبر الانترنت.

(3) جاء في قول ابن عباس، وسعيد بن جبير أن الطاعون حصد منهم سبعين ألفا، وقد كانوا لا يتدافنون من شدة الإعياء وكثرة الموتى، انظر (تفسير القرطبي ج7/ ص271)، (تفسير التحرير والتنوير ج9/ ص72)، (تفسير ابن عطية ج 2/ ص445).

(1) بردية إيبوير (The Papyrus Ipuwer) أو (Admonitions of Ipuwer)؛ هي إحدى برديات الشعر المصري القديم المكتوبة باللغة الهيروغليفية القديمة مكونة من 17 صفحة يصف كاتبها معاناة مصر والمصريين من كوارث متتابعة نزلت عليهم جعلت حياتهم تنقلب رأساً على عقب، ولا يوجد أي دليل يقيني يحدد متى كتبت وإلى أي أسرة فرعونية تعود، وقد تم اكتشافها في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي في منطقة منفيس قرب أهرامات سقارة واشتراها المتحف الوطني الهولندي للآثار في ليدن بهولندا من "جيوفاني أنستاسي" القنصل السويدي في مصر 1828م، وتم تصنيفها في المتحف تحت رقم (344) وأطلق عليها فيما بعد بردية أيبور وتمت ترجمتها من اللغة الهيروغليفية الفرعونية القديمة في عام 1908م وقد جاء في الترجمة الآتي: **لقد دارت الأرض كما لو كانت طبق طعام، أصاب الدمار البلاد، ضرب الجفاف والضياع مصر، وعم الخراب، وعمت سنوات من الفوضى لانهاية لها، المصائب في كل مكان, والدم في كل مكان، تحول النهر إلى دم، عاف الناس شرب الماء وابتعدوا عنة وانتشر العطش، ماتت الأشجار فلم تعد تثمر؛ وخلت القصور من القمح والشعير والطيور والأسماك بعدما فسدت وانعدمت الحبوب في كل مكان ، كل ما كان بالأمس هنا موجوداً بات غير موجود, أصاب الأرض التعب والخراب، لا شيء هنا – لا ثمار ولا عشب – لا شيء هنا سوى الجوع، حتى مواشينا, بكت قلوبهم وناحت، أنظر– ها هي الماشية تركت هائمة وليس من احد يرعاها, كل رجل يصطاد لنفسه ما هي له، وعم الظلام الأرض، وهام أولاد الأمراء يتخبطون بين الجدران، ها هم أولاد الأمراء ملقون في الشوارع، كثيرون هم الذين يودعون إخوانهم، في كل مكان أنين ونواح وبكاء، الكل هنا عظيم كان أو صعلوك يتمنى الموت"**. نقلتها بإيجاز من مقال الأستاذ فراس نور الحق، مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن.

﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ الأعراف:134

وبالرغم من كل ما عاناه موسى منهم على مدار السنوات الماضية، إلا أنه قبل بنفس المؤمن المتسامحة– متناسياً الماضي– ورفع يده لله يدعو لهم؛ بأن يرفع عنهم هذا البلاء العظيم.

فاستجاب الله الدعاء، وأمر هذا "الميكروب البسيط" – الذي أحدث كل هذه الضجة– بالانسحاب من أرض مصر، ويستجيب الجندي لربه، فما أمسى مريض إلا وقد شفاه الله.

نقض العهد والميثاق

انتشر بين جموع الشعب أن فرعون ومن حوله وعدوا موسى وهارون أنهم سيؤمنون لهم بإلههم، وأن فرعون سيلغي قانون السخرة الذي استُعبِد به بنو إسرائيل، وسيسمح لهم بالخروج من مصر إلى حيث شاءوا مع موسى وهارون ..

وسادت حالة من الترقب بين جموع الشعب وهم ينتظرون صدور هذه القرارات المصيرية التي كانت سبباً في رفع البلاء عنهم، ولكن فرعون نكث وعوده التي جعلها حيلة لاستجماع قواه، والتقاط أنفاسه !!

﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** ﴾ الأعراف:135

وقد كان في كلماتهم من البداية ما يفضح هذا الغدر الذي أخفته صدورهم[2]، ولكنّ المؤمنين أمروا ألا ينقبوا عما أخفته صدورهم، وأن يسلموا بظواهر أقوالهم وأفعالهم.

خطاب فرعون للأمة

[2] نسبوا إلى موسى أنه هو الذي يكشف عنهم البلاء، بحيلة من حيله، فقالوا: «**لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ**» ولم يقولوا «لئن كشف ربّك عنّا الرجز» .. فهم لا يعترفون– في قرارة أنفسهم– بأن هناك ربّا غير الأرباب التي يعبدونها، وهم– ثانيا– لن يؤمنوا بالله إذا انكشف عنهم البلاء، بل يؤمنون بموسى، فيقولون: «**لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ**» ولم يقولوا: لنؤمننّ بإلهك!.

خرج فرعون على الشعب المصري بخطابه المنتظر، ولكنه كان خطاباً عاطفياً أراد منه أن يستجدي رضاهم، ويجمعهم حوله مرة أخرى، فهو الضمانة الوحيدة لاستقرار البلاد وأمنها ورخائها ..

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ الزخرف:53.

بدأ فرعون خطابه بنبرة عاطفية حزينة تناسب الظروف الأليمة التي مرت بها البلاد ..

«**يَا قَوْمِ**» يا أهلي ويا أحبابي !!

بداية عاطفية تنفذ إلى قلوب المصريين البسطاء، فتقلبها رأساً على عقب، وتحولها كلها إلى صفه، فمنذ متى وفرعون المتكبر المغرور ينادي شعبه بنداء التقريب والحب «**يَا قَوْمِ**»[1]!.

ولكنه دهاء منه لاستمالة قلوب بدأت تميل إلى غيره ..

ثم يستمر محاولاً التوغل في قلوبهم والتحكم فيها بذكر أمجاده وإنجازاته منذ أن حكم مصر، فيقول: «**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ**».

ولأن الشعب المصري –كعادته – ينسى أو يتناسى الذكريات المؤلمة في حياته، من قتل وتعذيب وتشريد واستضعاف، سينطلي عليه هذا اللون من الخطاب، ففرعون بالفعل يستحق بجدارة لقب بطل الحرب والسلام[2]! ثم تطرق في خطابه بصيغة التعريض لموضوع موسى ودينه الجديد فقال:

---

(1) استخدام النبرات العاطفية التي تنفد للعقل اللا واعي إستراتيجية من الإستراتيجيات العشر لخداع الجماهير، التي رصدها الكاتب والمفكر الأميركي "نعوم تشو مسكي" في بحث مهم بعنوان "الإستراتيجيات العشر لخداع الجماهير" أنصحكم بقراءته.

(2) استمر حكم فرعون لمصر 67 عاماً؛ استطاع خلالها أن يتوج بحق أنه بطل الحرب والسلام، ففي السنة الرابعة من حكمه كانت حملة رمسيس الثاني على سوريا وغزوته لدولة "أمور"، وفى سنة 5 من حكمه كانت حملة سوريا الثانية حيث قاد رمسيس الثاني معركة "قادش" المشهورة الذي هزم فيها الحيثيين، وفى سنة 6، وسنة 7 من حكمه قاد حملة ليبيا وغزو (مؤاب) و(كنعان) وفى سنة 7و8 من حكمه كانت حملة سوريا الثالثة، وفى سنة 9 من حكمه كانت حملة سوريا الرابعة بالجليل ووسط سوريا (معركة دابور) وفى سنة 10 من حكمه كانت حملة سوريا الخامسة، كما اهتم ببناء المعابد وشق الترع وأجرى الأنهار، ولم يدخر جهداً في ذلك؛ وبتخطي السنين لنصل إلى سنة 21 من حكمه عقد رمسيس الثاني معاهدة سلام مع دولة (خاتي) وفى سنة 24 افتتح معبد "أبو سنبل" وفى سنة 25 من حكمه أعاد توثيق الروابط بين مصر و(أوجاريت) سوريا.

﴿ **أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ** ﴾ فموسى لا يصلح أن يكون بديلاً لحكم بلد في حجم مصر، فهو من أصل دنيء مهين، وازداد في السخرية منه فاتهمه أنه لا يجيد الكلام.

وأما فيما يخص ما أشيع أنه سيتبعه ويؤمن بإلهه، فقد أوضح فرعون أنه سيكون أول أتباعه لو أن معه أي دليل يشير إلى صدقه، وتساءل بكل سخرية - راضياً بحكمهم – لو كان هذا الإنسان رسولاً من عند الله حقّا كما يدعي؛ أيضنّ عليه ربه بأن يلقى عليه أسورة من ذهب، كأمارة على أنه موفد من جهة عالية، ذات بأس، وذات سلطان؟! ﴿ **فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ** ﴾ ؟ فإن لم يكن أهلاً لأن ينال من ربه هذه المكرمة، أفلا جاء معه ملائكة من السماء، يشهدون له أنه رسول من عند الله ؟

فإذا لم يكن هذا أو ذاك، فبأي وجه يكون له مقام بيننا ومكانة فينا، وبأي وجه يُقارن بيني وبينه ويضعه أحدكم معي في كفة ميزان واحدة ؟.

ردود فعل الشارع المصري على الخطاب العاطفي

التهبت أكف الحاشية بالتصفيق والإشادة بما حواه الخطاب، وأفرد القطاع الإعلامي أوقاتاً كثيرة لتحليل نقاط الخطاب وأهم ما جاء فيه، ولم يغب عن بعضهم تحليل "لغة الجسد" للزعيم الكبير ذي الحكمة والقوة والنظر الثاقب.

فتلقى الشعب منهم هذا الخطاب السطحي الساذج، بالتسليم والطاعة، وانهمرت دموعهم عند سماعهم قوله "ياقوم"، ومدحوا حكمته التي تغنى بها إعلامه عندما تساءل عن الأسورة التي لم يأت بها موسى كدليل على نبوته! ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ** ﴾.

ولم يقم من بين جموع المتلقين عاقل يسفه هذا المنطق السفيه الذي لا يقبله عقل، ولا يستسيغه عاقل !! فأسورة من ذهب مهما ازداد بريقها، وغلا ثمنها لا تُصدق بها رسالة رسول ؟!

ثم هل أسورة من ذهب تكون أكثر دلالة على نبوة موسى من كل الآيات والنذر التي جاءهم بها منذ بعثته؟!

اللقاء الأخير

أمر الله موسى أن يذهب بصحبة هارون إلى قصر فرعون بعدما نكث وعده، ونقض شرطه، لينذره بقرب هلاكه، واقتراب أجله، وزوال ملكه.

فذهبا إلى القصر الفرعوني، وانتظرا حتى خرج عليهما فرعون ..

فسأل موسى: ما الذي جعلك تنقض عهدك؟ ألم تعاهدني أنك ستؤمن بالله وستُخرج معي بني إسرائيل بعدما رأيت معجزات الله ؟

فرد عليه فرعون متطاولاً وضحكاته تملأ أركان قصره فقال:

- مخبول العقل أنت يا موسى؟! نعم .. أنا على يقين أنك مسحور !، كيف تظن يا كالح البشرة أنني سأؤمن بك وأرسل معك عبيدي من بني إسرائيل؟! ﴿ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا** ﴾، ثم كيف تظن أنني قد أؤمن بإلهك الذي يُبيد شعبي بالجفاف ونقص الثمرات ويُغرقه بالمطر؟! ذلك ليس بإله ! إنه شيطان يفسد مصر، ويذهب بخيراتها.

... ثم نزل فرعون من على العرش قائلاً:

- اثبتا لي أن إلهكما موجود، ليظهر لنا الآن بجسده في القاعة، أو ليتحدث إليّ الآن كي أسمعه، أم أنه خجول لا يستطيع الكلام ؟!

نظر موسى لهارون الذي أجاب:

- ربنا قادر على كل شيء و ...

فقاطعه فرعون بضحكاته المستفزة ثم قال:

لِمَ لا يقتلني إذن ؟

فأجابه موسى بحدة تناسب هذا الموقف المتأزم قائلاً: إنه سبحانه وتعالى لا يُسأل عن حكمته في بقائك، ولكل أجل معاد.

فقال له فرعون:

تلك إجابة العاجزين.

فقال له موسى: اترك بني إسرائيل تغادر أرض مصر كما وعدتني، وإلا فانتظر الهلاك.

فقال له فرعون: لم أعرف التهديد يوماً ولم ينل مني وعيد، واعلم أن الدبابير التي تغادر عشها تقتل، وما جئت به من سحر لن يرهبنا.

فرد عليه موسى: ﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ**﴾ - المعجزات والإنذارات التي رأيتها[1]- ﴿ **إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ وقد جاءتكم هذه المعجزات والإنذارات ﴿**بَصَائِرَ**﴾ واضحة الرؤية؛ لتقيم لديكم علماً محققاً، ويقيناً راسخاً بأنها من عند الله، ولكن الكبر والتعالي صرفكم عن الإيمان بالله ﴿ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾ الإسراء:102، فيقيني أنك ستكون خلال الأيام القادمة مغلوباً مدمراً بقوة الله التي رأيت خوارقها وآثارها، وأنكرتها ورفضت أن تستسلم لها.

ثم تركه وانصرف! ..

فبدأ فرعون من وراء الكواليس يدبر لحرب إبادة جماعية[2]؛ يستأصل بها كل أنصار موسى، فقد خطط لمحاصرة خرائب وأكواخ بني إسرائيل وحرقها بمن فيها، حتى لا يكون لهم وجود على أرض

---

(1) من نكت البلاغة الإشارة إلى الآيات التسع بإشارة العقلاء «هؤلاء» ما يدل على أنهن آيات تنطق بلسان مبين، وتحدّث عن نفسها، وتبين عن حقيقتها، حتى لكأنها ذات عقل يدرك، ولسان ينطق.

(2) انظر تفسير لطائف الإشارات – عبدالكريم القشيري – 372/2، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير– أبو بكر الجزائري 230/3.

مصر ﴿ **فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ** ﴾ الإسراء:103، وهكذا يفكر الطغاة دوماً إذا عجزوا أمام الحق الذي جاء على لسان معارضيهم.

الاستعداد للخروج

وعلى الجانب الآخر فإن موسى وهارون - عليهما السلام – قد أعدا العدة وجهزا بني إسرائيل، وهيئوهم على أن ينطلقوا سراً في خفاء الليل وصمته، بعدما جاء الوحي من الله يقول: ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ** ﴾ الدخان:23.

وأثناء خروجهم من أرض مصر نفذوا وصية يوسف عليه السلام التي أوصى بها أجدادهم قبل موته، وهي أن ينبشوا قبره ويحملوا تابوته معهم إذا أرادوا الخروج من مصر[1].

وقد ساعد تجمع بيوتهم - إضافة إلى البناء التنظيمي الذي أشرنا إليه من قبل - في خروجهم سوياً في توقيت واحد، حاملين ما خف من أمتعتهم مع أطفالهم، متجهين نحو شرق البلاد.

ولكن سرعان ما فاح خبر خروجهم، حتى وصل إلى فرعون فهاج وماج؛ وأصدر قراراً ملكياً بإعلان الحرب على موسى وكل من هرب معه خارج البلاد.

ثم أرسل رسله على وجه السرعة بهذا القرار إلى قادة أفرع جيشه في كل مدائن مصر؛ وأمرهم بصفته القائد الأعلى بضرورة تعبئة الوحدات العسكرية تعبئة عامة، وإعلان النفير والتحرك الفوري نحو العاصمة، لينطلقوا منها جميعاً خلف بني إسرائيل؛ فيفسد عليهم تدبيرهم، ولكنه كان لا يعلم حينها أنه ينفذ تدبير صاحب التدبير !

---

[1] روى أبو موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**إنَّ موسى لما سار ببني إسرائيلَ من مصرَ، ضَلُّوا الطريقَ، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم نحن نُحَدِّثُك: إنَّ يوسفَ لما حضره الموتُ أخذ علينا مَوثِقًا من اللهِ أن لا نخرُجَ من مصرَ حتى ننقِل عظامَه معنا، قال: فمن يعلمْ موضعَ قبرَه؟ قالوا ما ندري أين قبرُ يوسفَ إلا عجوزًا من بني إسرائيلَ، فبعث إليها، فأتَتْه، فقال دُلُّوني على قبرِ يوسفَ، قالت لا و الله لا أفعلُ حتى تُعطِيَني حُكمي، قال: وما حُكمُكِ؟ قالت أكونُ معك في الجنَّةِ، فكره أن يُعطِيَها ذلك، فأوحى اللهُ إليه أن أَعطِها حكمَها، فانطلقَتْ بهم إلى بُحَيرةٍ، موضعَ مُستَنْقَعِ ماءٍ، فقالت: انضِبوا هذا الماءَ، فأَنضبوا، قالت احفِروا واستخرِجوا عظامَ يوسفَ، فلما أقلُّوها إلى الأرضِ، إذ الطريقُ مثلُ ضوءِ النَّهار**". حديث صحيح على شرط مسلم، انظر السلسة الصحيحة – الألباني – رقم 313.

﴿ **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴾ الشعراء:53.

وبالفعل تجمع بين يديه أكبر جيش يستطيع به أن يبيد أضعاف أضعاف أنصار موسى، ولا يُبقي منهم أحداً.

خطبة فرعون الأخيرة

تجمع الجيش الجرار[1]، ولبس فرعون لباس الحرب والتقط قوسه المنحني وفأسه الذهبية، ثم ارتدى خوذته واعتلى عربته الحربية ليكون على رأس الجيش فيشد من أزرهم، ويبث فيهم الحماسة.

وقبل التحرك بالجيش انتفخت عروق الكبرياء في رقبته، فوقف خطيباً في الجيش يقول:

لقد طفح الكيل من هؤلاء الشرذمة الرعاع، وأُقسم أن أغمد خنجري هذا في بطن كبيرهم المجنون، ولن أعود إلى قصري قبل أن أبقر بطون كل من خرجوا معه دون إذني، ولأُتِدن لهم في الأرض وأحرِقَنَّهم أحياء، ليعرفوا من هو ربهم الأعلى.

ثم رفع من روح جنوده المعنوية فقال مهوناً من شأن بني إسرائيل وعددهم: ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ** ﴾ فإياكم أن تخافوا منهم، فنحن أكثر منهم عدداً وعتاداً[1].

ثم ختم خطبته الحماسية طالباً منهم الحكمة والتروي والحذر أثناء ملاحقتهم لهم فقال: ﴿ **وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴾.

ثم انطلق بعربته الحربية مسرعاً وخلفه الجيش مدججاً بالسلاح نحو الجهة التي رصدوا تحرك بني إسرائيل نحوها ..

---

(1) روي في الإسرائيليات أن فرعون خرج في ألف ألف جندي (مليون) منهم ستمائة ألف فارس.

(1) الشرذمة هي الطائفة أو الجماعة القليلة. وكان يمكن الاكتفاء بها تعبيرا عن القلة، ولكنه وصفها بالقلة القليلة، زيادة في احتقارهم واستصغار شأنهم.

أما موسى ومن معه فقد سهل الله عليهم طريق سفرهم، فساروا يدفعهم الخوف، ويعصمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وأشرقت عليهم شمس يوم عاشوراء[1] وقد وصلوا للنقطة المحددة لنبي الله موسى عند خليج السويس من البحر الأحمر (بحر القلزوم).

وإذا بهم أمام بحر لجي يقف أمامهم سداً منيعاً دون غايتهم، وحائلاً دون أمنيتهم، فساورهم القلق، واستولى عليهم الجزع، كان هذا حين أقبل عليهم فتى متأخر عنهم، كأن يمشي في مؤخرة الركب ليلتقط لهم ما يقع منهم أثناء سيرهم ويرصد لهم من يتبعهم من بعيد ..

شق الفتى صفوفهم التي وقفوا فيها متذمرين بعدما رأوا أنفسهم قد ضلوا الطريق، ونادى بأنفاس متهدجة: يا نبي الله .. يا نبي الله !

إن فرعون وهامان يقودان جنودهما في جيش جراراً، ويجِّدون في السير منذ ليالٍ للحاق بنا، وهاهو غبار قدوم جيشهم يتراءى من بعيد ..

فتناقل بني إسرائيل الخبر المشئوم فيما بينهم في لحظات، فازدادت خفقات قلوبهم، ودارت أعينهم من الخوف، وعلت الهمهمات، حتى رفع كبير العشيرة صوته قائلاً:

- هذا ما حذرتكم منه، لن يهدأ بال فرعون حتى يحاصركم فيذبحكم ويلقي بأجسادكم في البحر.

فصرخ فيه موسى:

- خسئت والله، بل سيُنجينا الله ولن يضيعنا.

ارتفع صوت من بعيد ..

---

(1) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: " قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، نجّى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه، فقال: أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه". وفي رواية: " فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه"، وفي رواية أخرى: " فنحن نصومه تعظيماً له". أخرجه البخاري (244/4)، ومسلم (1130)، وغيرهما كما أخرجه أحمد (359/2) من حديث أبي هريرة وزاد: "وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي" وإسناده ضعيف.

- إذا فقل لنا كيف سينجينا ربك والبحر أمامنا وفرعون خلفنا ؟ هل ستطير بنا إلى السماء أم ستمشي بنا فوق أمواج البحر؟

صمت الكل، حتى علا صوت آخر ..

أرى أن نسلم أنفسنا إلى فرعون، ونبدي الندم بين يديه، لعله يعفو عنا ويسمح لنا بالعودة إلى منازلنا مرة أخرى.

ازداد غضب نبي الله موسى، وهمَّ أن يضرب اليائسين بعصاه، ثم قال:

من كان منكم لا يؤمن بقدرة الله، فليعد إلى الخرائب ليعيش فيها ذليلاً مهاناً، وليقبل أن تُقتل أبناؤه وتُستحيى زوجته أو بناته لخدمة فراش آل فرعون.

أمسك هارون بعضد أخيه موسى وهمس في أذنه:

اهدأ يا أخي ودعنا نفكر فيما نحن فيه.

هدأ موسى ووقف ينظر إلى البحر، وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زبد أجاجه، ثم نظر إلى هارون وقال له: هاهنا أمرتُ .. ها هنا أمرتُ !

وتراءى الجمعان

فلما تراءى الجمعان عن قرب .. سمع موسى من حاشيته المقربة كلاماً فيه عتب ولوم، كما أن فيه استنجاد ويأس، من قلوب بلغت مما ترى الحناجر وتظن بالله الظنونا !

"يا كليم الله .. أين تدبيرك؟ هاهم أولاء قد داهمونا من ورائنا، والبحر من أمامنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر ﴿ **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ الشعراء:61، فما الحيلة ؟!!، وأين طريق النجاة، هل الله ضيعنا وسيجعلنا لقمة سائغة في فم عدونا ؟!

فصاح فيهم موسى عليه السلام بكلمات فيها ردع وزجر، خرجت منه بتلقائية وعفوية، فهو وإن كان لا يدري كيف سينجو بمن معه؛ لكنه على يقين في نصر الله لهم وقدرته على إهلاك عدوه ﴿ **قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ الشعراء:62.

معيَ من هو أقوى من كل قوي، معيَ من هو أعظم من كل عظيم، معيَ الله القادر القوي المانع، معيَ الباسط القابض، معيَ الذي من توكل عليه كفاه، ومن احتمى بحماه حماه، معيَ من لاذ بجنابه نجاه، إنه الله.. إنه الله.. **إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**.

فَسَرت في نفوس القوم سارية من أمل – ولكنه - لا يلبث أن يمد شعاعه، حتى تطفئه عواصف اليأس والقنوط، مع اقتراب جيش فرعون ..

قال موسى كلمته ثم سكت وسكن، سكون من لم يعد يعبأ أو يخاف، سكون من فوض أمره لمن بيده تغيير الأمور، سكن ولسان حاله يقول:

" لا الأمرُ أمري ولا التدبيرُ تدبيري ولا الشؤون التي تَجري بتقديري

لي خالقٌ رازقٌ ماشاء يفعل بي أحاطَ بي علمه قبل تصويري".

وعلا الموقف صمت رهيب، وبدأت عيون القوم ترقُب اقتراب عربات فرعون وجنوده وهي تهرس الأرض هرساً من فرط سرعتها، ثم ترقُب موسى الذي وقف منتظراً وحي السماء.

وهنا أدركتهم عناية الله .. ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ**﴾ الشعراء:63.

سمع موسى الصوت، فانصاع دون تردد، وخاض مياه البحر المالحة، ورفع عصاه عالياً، وهوى بها على رأس موجة تقترب من الشاطئ ..

فانفلق الماء بين قدميه في هدير صمَّ الآذان ﴿ **فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ الشعراء:63.

لقد تباعد الماء كأن سكيناً خفية شقته شقاً، وجعلت بين جانبي مياهه المرتفعة كالجبال في طولها، والمتماسكة كالصخور في متانتها طريقاً يبساً، تنكشف للذي يمر فيه ما كان يحويه البحر من قواقع وأحجار، ويرى بين جانبي المياه ما تحويه من أسماك وحيتان ..!

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ طه:77.

خرست الأصوات اليائسة من فرج الله، وذهلت العقول التي شككت في بديع قدرته، يرمقون الماء الذي بلغ ارتفاع جبل، بأعناق ملتوية وأعين مندهشة، لقد بدا فرعون بجيشه وأسلحته وعرباته الحربية أقل رهبة في نفوسهم ..

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيل الْبَحْرَ

صرخ موسى بأعلى صوته .. هيا اعبروا خلفي ..

انحدر بنو إسرائيل مسرعين داخل هذا الطريق المشقوق بين جانبي البحر، يكبرون الله ويحمدونه على هذه المعجزة العظيمة حتى جاوزوه إلى الشاطئ الآخر تحت رعاية وعناية الله، فالبحر الذي لا يُعبر إلا بالسفن عبره القوم مشياً على الأقدام بعد أن صار طريقاً يبساً!

فلما جاوزوه وخرج منه آخرهم، استشرفوا بعيونهم فأبصروا فرعون يتقدم العربات الحربية، تشد يمينه لجام ثلاثة أحصنة هوجاء تجر عربته بسرعة جنونية، كما سمعوا صوت دقات طبول يضربها جيشه ترويعاً لهم وتخويفاً، فعاد إليهم القلق والاضطراب، وتملكهم الخوف والإشفاق ..

حينئذٍ همّ موسى أن يضرب بعصاه البحر ليلتئم كما انفلق فيحول بينهم وبين فرعون، ولم يكد عزم موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه أن اترك البحر ساكناً على حالته، فلا تضربه بعصاك لئلا يتغير منه شيء فقد مضت أقدار الله أنهم لن يرجعوا إلى ديارهم سالمين ..

﴿**وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ**﴾ الدخان:24.

فرعون والغباء

وصلت عربة فرعون أمام البحر المشقوق، فرفعت الخيل قوائمها في خوف وفزع من هول المشهد.

وهنا أخذ الكبر والغرور بفرعون مأخذاً، وتناسى أن موسى رسول مؤيد بالمعجزات من ربه، فلو أنه توقف قليلاً وتدبّر الأمر لعلم أنه أمام معجزة قاهرة، وأن عليه أن يراجع نفسه، وأن يؤمن بالله الذي دعاه موسى للإيمان به؛ فليس هناك قوة بشرية قادرة على أن تشق البحر هكذا بين الأمواج المتلاطمة.

ولكن الطغاة عندما تأخذهم سكرة الغرور يقتلون أنفسهم بأنفسهم، لا سيما لو اجتمع مع الطغيان الكبر، فهي والله قاصمة الظهر؛ فالطغاة يسرعون إلى حتوفهم رغم أنوفهم؛ لأن المتكبر لا يزال يُحرم التوفيق إلى أن يهوي في وادي الخذلان السحيق.

لذا مضى فرعون متجاهلاً هذه المعجزة ورغب أن يركب هذا الطريق، غير ملتفت إلى شيء، إلا الانتقام ممن آمنوا بموسى؛ فنادى فرعون في الذين استخفهم فأطاعوه وعلى باطله اتبعوه قائلاً: **انظروا .. انظروا كيف انحسر البحر لي، طوعاً لأمري وانصياعاً لإرادتي، حتى أُدرك عبيدي الآبقين من يدي، الخارجين عن طاعتي ..**

قال هذه الكلمات ثم قفز فوق عربته، ضرب الخيل فصهلت وتحركت، فكانت فرط الضرب عليها تكاد تطير، فتقوّىَ جيشه بقوته، واطمأنوا لنصرته، ثم اندفعوا خلفه مسرعين، ونزل آخرهم وخاض مع من خاضوا لُجة البحر ..

ولما رأى فرعون موسى عليه السلام واقفاً على الشاطئ، رفع قوسه وسدد سهمه نحو صدره، فاصطدمت عجلة عربته بصخرة قاسية فانقلبت به، فاصطدمت العربات المندفعة خلفه بعضها ببعض، زحف فرعون حتى خرج من تحت عربته، فارتجت الأرض وارتفع صوت هدير المياه ..

حينها أمر الله – الجبار المنتقم – مياه البحر التي تماسكت إجلالاً لأمره، أن تنهار فوق رؤوسهم أجمعين، أتباعاً ومتبوعين ..

فاختلط صريخ الجند بصوت تكسير العربات، بصهيل الخيل الذي يحاول أن يقاوم الغرق ..

الأنفاس الأخيرة

ثم سلط الله الضوء على فرعون وحده .. ها هو ذا تنهار فوق رأسه مياه البحر بعلو الجبال الشامخات، وطل عليه شبح الموت؛ ها هو يصرخ من أعماقه طالبا الغوث والنجاة !! فالموت يحيط به، والغرق يدركه، ولا يستطيع مقاومة الأمواج إلا بيده الضعيفة وجسده النحيل.

فلما أيقن أنه هالك لا محالة، خطرت له خاطرة — وهو يلتقط أنفاسه الأخيرة – رأى فيها نجاته من هذا الموت المحقق .. إن بني إسرائيل قد ركبوا هذا الطريق، فوصل بهم إلى شاطئ النجاة، وإن الذي فعل بهم هذا هو إلههم الذي آمنوا به، وأنه لو آمن بهذا الإله لنجّاه كما نجاهم- هكذا فكّر وقدّر في لحظات الغرق – فتخلّى عن آلهته التي كان يعبدها، إذ تخلت هي عنه في هذه الشدة، وإنه ليؤمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل.. إنه الإله الحق، وكل آلهة غيره باطل وضلال!

﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس:90.

فسبحان من أسقط عن فرعون كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، فلقد تضاءل وتصاغر واستخذى؛ فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل بل يزيد في استسلام قائلاً:«**وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» !!

وكذلك حال فرعون كل عصر مع الإصلاح .. حتّى إذا أدركه المدّ الإصلاحيّ، وثورة استرجاع الحقوق الباسلة قال: آمنت أنّكم بشر، وأنّ لكم حقوقاً ضيعتها عليكم، وأنّ هناك شيئاً اسمه الإصلاح وأنا اليوم من المصلحين !!

فلم يتقبل الله إيمان فرعون، لأنه آمن إيمان المضطرين المجبرين[1]، ورد على طلبه مستنكراً فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ يونس:91.

آلآن حيث لا اختيار ولا فرار؟

آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار؟

إن في ذلك لعبرة

غاص فرعون – الذي علا في الأرض – إلى أعماق البحر، وهو يعالج سكرات الموت وكرباته ..

---

(1) كان هذا الإيمان الباطل، هو الذي طلبه موسى عندما دعا على فرعون: «**فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَليمَ**». وقد آمن فرعون، وآمن معه كثيرون من الغرقى من قومه، وذلك بعد أن رأوا العذاب الأليم الذي ينتظرهم يوم الحساب! فكان إيمانهم هذا لغوا باطلاً غير مقبول، فالله لا يقبل إسلام المُكرَهين إذ «**لا إكْراهَ فِي الدِّينِ**»، فإيمان من يؤمن بالله – في هذه اللحظات – غير مقبول، إذ جاء بإيمانه بعدما بلغت الروح الحلقوم، وأشرفت به على العالم الآخر، فرأى الحق عياناً، واستسلم له مجبراً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أليماً** ﴾ النساء:18.

فهذه لحظات "إيمان الإجبار"، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا، ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ يونس:99، ولكنه ترك لنا الخيار في أن نؤمن أو لا نؤمن، وأبى أن يتقبل إيمان المجبرين، لذا رد على فرعون إيمانه ولم يقبله! ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ غافر: 85.

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الملائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:52.

وحين عاد البحر لحالته، وهدأ الموج .. طفت على الماء العربات العسكرية المحطمة، والخيول الغارقة، وجنود جثثهم لحمُها متهتك، وبطونهم منتفخة، مبسوطة أذرعهم وعلى وجوههم سواد قاتم من شدة ما عاينوه من عذاب أعده الله لهم، رغم أنهم لم يكونوا سوى أتباعاً ينفذون أوامر الظالمين والفاسدين، ولكنهم لا يقلون عن سادتهم سوءاً ولا ذماً, فإنما انتشر الظلم في الأرض من خلالهم, وإنما مورس القهر والبغي على الناس بقوتهم و أيديهم.

أليسوا هم من ذبَّحوا الأطفال الرُضّع؟ أليسوا هم من روّعوا النساء؟ أليسوا هم من اقتادوا السحرة وقطّعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف ؟ أليسوا هم من عذبوا الماشطة وحرّقوا أطفالها أمامها ؟ أليسوا هم من طاردوا المصلحين أمثال "مؤمن آل فرعون" في الجبال ؟ أليسوا هم من سجنوا المعارضين لفرعون وأذاقوهم سوء العذاب ؟ أليسوا هم من خرجوا مع فرعون لقتل نبي من الأنبياء ؟!.

فمن هو فرعون لولا جنده وأتباعه ؟!.

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ النمل:85.

أما فرعون فقد قذفت جثته موجة غاضبة فألقت به على رمال الشاطئ !

ها هو الذي ملأ الأرض بغياً وعدواناً، وقال: « **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** »، ها هو الذي قال يوماً « **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** »، ها هو الذي بلغ به الكبر والغرور أن يقول: «**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**»؛ لقد صار في لحظات جثة هامدة، وكوماً من لحم، تزكم الأنوف ريحه!، أين ملكه؟ وأين سلطانه؟ وأين بطشه؟ وأين جبروته؟!

لقد ذهب كل ذلك عنه، وتعرّى من كل شيء كان بين يديه! ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ يونس:92، فليتعظ فراعنة الأمصار، وليتعظ كل ظالم جبار!

ها هي جثّته ملقاة على رمال الشاطئ، عافت حيتان البحر وحيوانات البر أن تأكلها، فقد وعد الله فرعون حين رد عليه إيمانه أن جسده لن يبلى، ليكون عبرة إلى يوم القيامة لكل ظالم وفاسد وطاغية[2]، يحكم بغير ما أنزل الله، ويحارب شريعة الله وأوليائه،﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ يونس:92.

فيا فراعنة كل عصر ..

أأنتم أعظم ملكًا وأوسع دولة وأشد بطشًا ورهبةً ؟ أمَّن قال: ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** ﴾ النازعات: 24؟! والآخر الذي قال: ﴿ **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ البقرة: 258.

---

[2] تاللهِ، لو لم يأمر الله البحر بأن يلفظ جثمان فرعون، لقال البعض: إن فرعون إله، والإله لا يموت وإنه سيرجع مرة أخرى؟ ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أي حيوان غارق؛ حتى لا يكون هناك شك في أن فرعون قد غرق، وحتى ينظر من بقي من قومه إلى حقيقته، فيعرفوا أنه مجرد بشر، ويصبح عبرة للجميع، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية.

ألم تعتبروا من مصيرهما ومصير أمثالهما ؟!

يا من حاربتَم الله ورسوله، وأبطلتَم شرْعَه وأمْرَه، وسجنتم أولياءه ﴿ **آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ يونس: 59 ؟!!.

غدًا تُوقفون بين يدَي الْمَلك الحقِ الجبَّار، فماذا تقولون؟ هل عندكم حُجَّة أو معذرة؟

انتبهوا وتحسسوا خطواتكم، فمصير فرعون موسى ولعنته تلحق بكل من يسير على (دأبه) إلى يوم القيامة، لذا خلّد الله قصة فرعون في القرآن لتدق في آذانكم جرس إنذار ..

﴿ **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (16) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (17) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (18) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ النازعات:19.

الأوضاع في مصر بعد هلاك فرعون

عانت مصر فترة من الانفلات السياسي، إذ أن الوجهاء والساسة والزعماء خرجوا تعاطفاً مع فرعون وجنوده فلاقوا ما لاقوه من غرق وموت، كما عانت مصر من الانفلات الأمني؛ فقد سحب فرعون كل الجنود تقريباً في هذه المعركة، وقد هلكوا معه غرقاً.

لذا صار أمر الناس في مصر إلى فوضى واضطراب، إلى أن هدأت الأمور واستقرت الأوضاع مرة أخرى.

نسيم الحرية

ومن ضيق دنيا فرعون التي جعلها سجناً ومقبرة لشعبه، انتقل بنو إسرائيل إلى سعة الدنيا ونعيمها واستنشقوا نسيم الحرية ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**

الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ الأعراف:137

ووقف موسى – وإلى جواره هارون – خطيباً في بني إسرائيل، يذكرهم بمنن الله عليهم التي تستوجب منهم مزيد من الشكر والطاعة لله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم: 7

لكن – للأسف – ما كاد بنو إسرائيل يخلصون من يد فرعون وتفارقهم مشاعر الخوف والفزع التي كانت مسيطرة عليهم– حتى تنبّهت فيهم غريزة المكر واللؤم – ، وتحرك فيهم داء الخديعة والعناد؛ فبدأت بوادر التمرد في الظهور، فقد اعتبر بنو إسرائيل ما حصلوا عليه من حرية بعد هلاك فرعون إنما هو حق مكتسب، وليس محض منة من الله تعالى على يد نبيه موسى عليه السلام، فعاندوا أوامره وعصوا تشريعاته ..

لينبت باطل جديد على ساحة الحياة، بعد هلاك الباطل الأكبر، ولتستمر قصص صراع الحق مع الباطل دون توقف إلى قيام الساعة ..

– فما الذي حدث عندما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم؟ ومن هم هؤلاء القوم؟!

– من هو السامري وما قصة حياته من البداية ؟ وكيف أقنعهم بعبادة عجل صنعه أمامهم بيده ؟!

– وما الجريمة الشنيعة الفظيعة التي فعلها بنو إسرائيل حتى تكون طريقة توبتهم منها أن يقتلوا أنفسهم ؟!

- ولماذا صُعق الوفد المرافق لسيدنا موسى عند جبل الطور ؟

- وما حكاية بقرة بني إسرائيل؟ وما سر تسمية أطول سورة في القرآن باسمها ؟

- ما حكاية القوم الجبارين الذين خاف منهم بنو إسرائيل وهم على مشارف فلسطين ؟

- وما حكاية العابد الزاهد بلعام بن باعوراء الذي انتكس فوصفه الله بالكلب ؟!!

- أين التقى موسى بالخضر، وما سر غموض شخصيته ؟

- من الذي آلت إليه قيادة بني إسرائيل بعد موت موسى وهارون ؟!

كل هذا وأكثر سنتطرق إليه في جزء آخر – بمشيئة الله تعالى – من قصة كفاح نبي الله موسى مع بني إسرائيل .. فانتظرونا ..

« رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ».

«وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».

كتبه راجياً مجاورة الأنبياء والمصلحين

محمد نجاتي سليمان

مصر – البحيرة – دمنهور

تم الانتهاء من الصياغة النهائية لهذا العمل فجر يوم الخميس

22 شوال 1437 هـ ، 28 يوليو 2016م.

وصية ..

أرجو منك أيها القارئ العزيز– من باب إثراء هذا العمل ومشاركتي في الثواب – إذا وجدت خطأً أو عيباً، أو إسهاباً لا طائل من ورائه، أن تنصحني بمحوه أو تعديله، فقد اعتبرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب مكتوبة بقلم رصاص احتراماً لمحاة نقدك؛ فالنقد منك يبني ولايهدم، كما أنه شهادة ناطقة على أن الكمال لله وحده، وأن العصمة لأنبيائه ورسله، وليكن بيننا تعارف، وتواصل مستمر عبر التواصل الهاتفي على رقم : 01091500080(002) أو عبر صفحات التواصل الاجتماعي(1)

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر والتقدير والعرفان بالجميل ..

إلى روح الأديب الشهيد سيد قطب صاحب تفسير "في ظلال القرآن".

وإلى روح المفكر الراحل عبد الكريم يونس الخطيب صاحب "التفسير القرآني للقرآن".

فلقد استفدت من تفسيرهما للقصة استفادة كبرى، فاقتبست من تفسيرهما اقتباسات عديدة وزعت في كل صفحات الكتاب تقريباً، حتى بات من الصعب عليّ حصرها فاقتضى التنويه.

كذلك أشكر الكاتب الأستاذ/ أحمد مراد الذي ساعدتني روايته "أرض الإله" على معايشة أحداث القصة وتخيلها، وقد اقتبست منها بالنص أو بالمعنى بعض المشاهد الدرامية والتخيلية في بعض المواقف داخل الكتاب، فاقتضى التنويه.

---

(1) https://twitter.com/AlDa3eeyaa

أو فيس بوك

https://www.facebook.com/Nagati.MN

المراجع

أولاً: كتب تفسير القرآن الكريم:

- تفسير في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي – طبعة دار الشروق - بيروت.

- التفسير القرآني للقرآن: عبدالكريم يونس الخطيب – طبعة دار الفكر العربي - القاهرة.

- تفسير الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/ عبد الله التركي، طبعة مؤسسة الرسالة.

- تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ: عماد الدين إسماعيل بن كثير، طبعة مؤسسة قرطبة.

- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية.

- تفسير الشعراوي – الخواطر - المؤلف: محمد متولي الشعراوي – طبعة أخبار اليوم.

- الأساس في التفسير - المؤلف: سعيد حوّى - طبعة دار السلام – القاهرة.

- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، طبعة: دار الحديث – القاهرة.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، طبعة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق:محمد علي النجار، طبعة المكتبة العلمية.

- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، طبعة

الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- التفسير الوسيط: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، طبعة دار الفكر – دمشق.
- صفوة التفاسير: المؤلف: محمد علي الصابوني، طبعة دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة.
- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض، طبعة: دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للعلامة: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبعة مؤسسة الرسالة.

ثانياً: كتب الحديث الشريف:

صحيح البخاري: المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري.
صحيح مسلم: المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري.
سنن أبي داوود: المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي.
سنن الترمذي: المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي.
سنن النسائي: المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني.
صحيح الجامع: المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني.

ثالثاً: كتب قصص القرآن:

- قصص الأنبياء، د.عبد الوهاب النجار، طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- القصص القرآني دروس وعبر للدعوة والدعاة، محمد بيومي، طبعة مكتبة الإيمان.
- 100 من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، جهاد الترباني، طبعة دار التقوى.

- قصص القرآن دروس وعبر، سعد يوسف أبو عزيز، طبعة دار الفجر للتراث.

- دروس من قصص القرآن، محمد سعيد مرسي، طبعة مؤسسة اقرأ.

- قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، مطبعة وأوفسيت منير —بيروت.

- قصص القرآن، محمود المصري، طبعة دار التقوى.

- أحسن القصص، علي فكري ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت.

- مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبارة، طبعة دار الكتب.

- مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق.

- قصص الأنبياء، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق جمال بدران، طبعة الدار المصرية اللبنانية.

- قصص القرآن، حمدي بن محمد نور الدين آل نوفل، طبعة مكتبة الصفا.

رابعاً: كتب منوعة ومقالات

- رواية أرض الإله — أحمد مراد — طبعة دار الشروق.

- كتاب مصر في القرآن — أحمد صبحي منصور — موقع أهل القرآن.

- كتاب نهاية فرعون وبداية شعب الله المختار، د.محمد إبراهيم فرحات – موقع شبكة الألوكة.

كتاب بنو إسرائيل في الكتاب والسنة: د/ محمد سيد طنطاوي، طبعة: دار الشروق.

- كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" تأليف/ عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكَوَاكِبِي طبعة المطبعة العصرية — حلب.

- مقال بعنوان "موسى عليه السلام ومهارة تجاوز الشخصنة" للكاتب/ محمد إلهامي موقع شبكة الآلوكة.

- مقال بعنوان "الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية" للدكتور/ زغلول النجار – موقع جريدة الأهرام.

- مقال بعنوان "ثم تولى إلى الظل" للكاتب/ حمد بن أحمد بن عبد العزيز الفراج، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية.

- مقال بعنوان "لطائف من قصة موسى في سورة القصص" للكاتب/ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار، موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية.

- مقال بعنوان "تاب سحرة فرعون ولم يتب سحرة عصرنا" للكاتب/ إسماعيل القاسمي الحسني – موقع رأي اليوم.

- مقال بعنوان "إعلام الفراعين" للكاتب/ محمد إلهامي – موقع طريق الإسلام.

- مقال بعنوان (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) للشيخ/ محمد حامد الفقي- موقع شبكة الآلوكة.

- مقال بعنوان "نظام الحكم في مصر الفرعونية" للكاتب/ محمد صادق إسماعيل – موقع دنيا الوطن.

- سلسلة مقالات بعنوان "تدبر سورة القصص" للكاتب/ محمد على يوسف – موقع طريق الإسلام.

- سلسلة حلقات برنامج تلفزيوني بعنوان "قصص القرآن ج2"، للدكتور/ عمرو خالد.